شرح

ثلاثة الأصول وأدلتها

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

شرح

عبد العزيز بن داخل المطيري

المشرف العام على معهد



للتعليم عن بعد

أصل هذا الشرح دورة ألقيت في معهد آفاق التيسير

من ١٥ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ إلى ٢٥ شعبان ١٤٣٢هـ.

سلسلة دورات الإعداد العلمي (١)

شرح
ثلاثة الأصول وأدلتها

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

شرح

عبد العزيز بن داخل المطيري

المشرف العام على معهد





للتعليم عن بعد

أصل هذا الشرح دورة ألقيت في معهد آفاق التيسير

من ١٥ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ إلى ٢٥ شعبان ١٤٣٢هـ.



المحاضرة التمهيدية: مقدمات في طلب العلم، ومنهج دراسة العقيدة

عناصر المحاضرة:

١: حاجة الأمة إلى الهداية.

٢: عداوة الشيطان للإنسان وأثرها في الإضلال.

٣: تضمن الكتاب والسنة لأحسن الهدي.

٤: الخروج من الظلمات إلى النور هو ثمرة الهداية.

٥: الهداية لا تكون إلا بالعلم النافع.

٦: فضل طلب العلم.

٧: الحث على العلم النافع والتحذير من العلم الذي لا ينفع.

٨: بيان معالم المنهج الصحيح لطلب العلم.

٩: المنهج المقترح لدراسة العقيدة.

١٠: أهمية دراسة الدعوات الإصلاحية.

١١: ميزات دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

١٢: تلخيص سيرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

الحمد لله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء رحمة وعلماً وتقديراً، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على من بعثه الله هادياً وبشيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذا اللقاء التمهيدي لدورة شرح رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى.

وقد رغبت أن تكون هذه المحاضرة التمهيدية في بيان بعض المقدمات المهمات في طلب العلم عموماً وطلب علم العقيدة على وجه الخصوص وبيان أهمية التدرج في تحصيل العلم ومواصلة طلبه، وارتباط الحاجة إلى العلم بحياة المسلم الفردية وشدة احتياج الأمة إلى العلم والهدى.

فحاجة الأمة إلى العلم الرباني ملحة ماسة فإنه لا نجاة لهم إلا بما يهديهم الله عز وجل به كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي: [يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ] رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
وهذا يشمل جميع ما يحتاجون إلى الهداية فيه، والهداية أصلها العلم.

ولو تأملنا أول وصية وصى الله بها الناس عند بدء هذه الحياة الدنيا، لما أهبط الله عز وجل أبوينا آدم وحواء إلى الأرض قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
فتضمنت هذه الآية وصية عظيمة ووعداً لا يخلفه الله وتحذيراً شديداً لمن يخالف هذه الوصية، وهذه الأمور قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
فضمن الله لمن اتبع هداه ألا يخاف ولا يحزن، وضمن لمن اتبع هداه ألا يضل ولا يشقى وضمن لمن اتبع هداه أن يخرجه من الظلمات إلى النور وأن يهديه سبل السلام وأن ينجيه مما يخاف، وهذا وعد صادق للفرد والأمة.
ونحن قد جاءنا أعظمُ الهدى وهو القرآن الكريم خير كتاب أنزل، وبعث إلينا نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو خير نبي أرسل، أحسن الهدي هديه كما ثبت في الحديث الصحيح: (إن أحسن الهدي هدي محمد) وقال الله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.
ولهذا كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، لأنها أعظم الأمم هداية.

وهذه الهداية مبناها على العلم الصحيح، واتباع رضوان الله عز وجل بطاعة أمره وتصديق وعده والحذر من طاعة الشيطان وحزبه كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ❖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

وتولي الشياطين يكون باتباع خطواتها وتصديق ما تعد به وتمني وفعل ما تزينه من المعاصي كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ❖ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقد أخبر الله تعالى أن أعداءه أولياء للشياطين، وأن الناس حزبان: حزب مع الله وحزب مع الشياطين، وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

فالعداوة الحقيقية بين الإنسان والشيطان قضية كبيرة بينها الله عز وجل لنا أتم بيان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وبيَّنها النبي صلى الله عليه وسلم بل جاء في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه**».

ومن شأن الشيطان حرصه على الإضلال كما قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ❖ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ❖ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ جبلاً: أي خلقاً كثيراً كانوا مجبولين على الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها.

لكن من آمن بالله واتبع هداه عصمه الله ووقاه وكفاه.

فيحتاج المؤمن إلى اتباع هدى الله في كبير الأمور وصغيرها وحاجته إلى الهداية أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنفس، والمهتدون يتفاضلون في الهداية تفاضلاً عظيماً

ولذلك أمر الله المسلمين أن يسألوه الهداية مراراً كثيرة في اليوم الواحد فلا تصح صلاة لا يدعو فيها المسلم بدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وما يعترض الإنسان من عوارض الفتن والمحن والشرور والمعاصي والهموم والأحزان والجهل والشك والحيرة وغيرها هي من الظلمات التي وعد الله المؤمنين أن يخرجهم منها.

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ❖ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وكم من ظلمة في اليوم والليلة تعترضك وأنت تدري أو لا تدري.

فتبينت بذلك حاجة الفرد والأمة إلى الهداية في كل شأن من الشؤون، وأن الحاجة لذلك ماسة، وأن الهداية لا تكون إلا بالعلم النافع واتباع رضوان الله تعالى وما وصى به عباده المؤمنين.

وإن الله لم يترك أمراً يحتاج الناس إلى بيانه إلا بينه لهم بما أنزل في كتابه الكريم وبما أرسل به نبيه صلى الله عليه وسلم، فقد أكمل الله الدين وأتمه كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» أي أنه بلغنا الرسالة وبين لنا أحكام الدين بياناً شافيا كافياً وافياً بما نحتاجه، وجاءنا بشريعة سمحة ودين يسره الله لنا تيسيراً عظيماً حتى لم يعد لأحد عذر في ترك اتباعه صلى الله عليه وسلم.

ولما اجتمع الناس في أعظم جمع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قال لهم في خطبة الوداع العظيمة: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت وقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات» رواه مسلم من حديث جابر.

وفي مستدرك الحاكم وسنن البيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله و سنتي و لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض». صححه الألباني.

فالتفقه في الكتاب والسنة والتمسك بهما عصمة من الضلالة، وهذا هو العلم النافع الذي نريده.

❑ ١: فضل طلب العلم

فطلب العلم لهذا المقصد العظيم من أفضل القربات إلى الله تعالى، والعلم أصل كل عبادة، وبيان ذلك أن كل عبادة يؤديها العابد لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله تعالى وعلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعرفة ذلك تستدعي قدراً من العلم.

وكذلك معرفة ما يحبه الله وما يكرهه إجمالاً وتفصيلاً لا تكون إلا بالعلم.

والناس متفاضلون في العلم تفاضلاً كبيراً كما قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وكلما كان الإنسان أكثر علماً فيما ينفع كان أكثر فضلاً.

وقد تواترت الأدلة ببيان فضل العلم وأهله، وفضل طلبه، ورتب على ذلك من الثناء العظيم والثواب الجزيل في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يجعل المؤمن حرياً بأن يكون حريصاً على نيل هذا الفضل العظيم مجتهداً في طلبه.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فأسند الرفع إليه جل وعلا وتكفل به، والله لا يخلف وعده، وهذا فضل من الله عظيم يفيد بأن من تحقق فيه وصف العلم والإيمان نال الرفعة بإذن الله جل وعلا.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وفي الصحيحين من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

والتفقيه في الدين يشمل جميع أبوابه في الاعتقاد والأحكام والأخلاق والآداب والتزكية والجزاء وغيرها.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنّةِ».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الجَنّةِ، وَإِنّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ حَتّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإنّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، وَإنّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يوَرّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإنّمَا وَرّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ». رواه أبو داود والترمذي.

ذكر ابن عبد البر في التمهيد أن استغفار الملائكة دليل على أن الله يغفر له إن شاء الله، وقال: (ألا ترى أن طلب العلم من أفضل الأعمال وإنما صار كذلك والله أعلم لأن الملائكة تضع أجنحتها له بالدعاء والاستغفار).

وقد أدرك أئمتنا هذه الحقيقة فاجتهدوا في تعلم العلم وتعليمه وصبروا على ما أصابهم في ذلك حتى تبوؤوا المكانة التي رفع الله بها ذكرهم وأعلى شأنهم فكانوا أئمة الدين وأولياء رب العالمين، وآثارهم في بيان فضل العلم مذكورة مشهورة.

- روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أنه قال: (ما عُبِدَ اللهُ بمثل الفقه).

- وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: (فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة وخير دينكم الورع) رواه الإمام أحمد في الزهد.

- وقال سفيان الثوري: (ما أعلم عملاً أفضلَ من طلب العلم وحفظه لمن أراد الله به خيراً) رواه الدارمي.

وروى ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن عبد الله بن المبارك أنه قال: قال لي سفيان الثوري: (ما يراد الله - عز وجل- بشيء أفضل من طلب العلم، وما طلب العلم في زمان أفضل منه اليوم).

فتأملوا عظيم فقهه رحمه الله، فنحن اليوم إنما نتعلم مما ورثوه لنا من العلم رواية ودراية.
فعنهم نتلقى مسائل الاعتقاد، وعنهم نتلقى مسائل الفقه، وعنهم نتلقى معرفة صحيح الحديث من ضعيفه ومن تقبل روايته ومن ترد، وعنهم نتلقى الأخلاق الفاضلة والتزكية والسلوك.
وهذه صفة العلماء الربانيين يجدهم طالب العلم فيما يَحتاج إليه من أبواب الدين أئمةً يقتدى بهم ويتلقى عنهم العلم والهدي.

- وروى البيهقي بإسناده إلى الربيع بن سليمان المرادي أنه قال: سمعت الشافعي يقول: (ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضلَ من طلب العلم، قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل).

- وقال مهنا بن يحيى السلمي: (قلت: لأحمد بن حنبل ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم لمن صحت نيته.
قلت: وأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل).

- ونقل ابن هانئ في مسائله عن الإمام أحمد أنه قال: (العلم لا يعدله شيء).

- وقد نقل النووي في المجموع اتفاق السلف على أن الاشتغال بالعلم أفضلُ من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن.

وقد صنف العلماء في فضل العلم وأهله مصنفات عظيمة النفع جليلة القدر، وأفرد له بعضهم أبواباً في بعض كتبهم فأفرد البخاري في صحيحه كتاب العلم وضمنه باباً في فضل العلم، وكذلك فعل الإمام مسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم كثير.

وصنف بعض العلماء في فضل العلم كتباً مفردة منهم: أبو نعيم الأصبهاني وأبو العباس المُرْهِبي (أحمد بن علي، من شيوخ أبي نعيم) وابن عبد البر وابن رجب وغيرهم.

وقد ذكرت لكم أهم ما استُدلَّ به على فضل العلم.

بل لا توجد أمة من الأمم اعتنت بتعلم أحكام دينها كعناية هذه الأمة المباركة؛ فإنها قد بلغت فيه غاية لم تبلغها أمة من الأمم قبلها.

تنبيه:

ومما ينبغي أن يعلم أنَّ العلم منه نافع وغير نافع، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع

- فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم.
- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله علماً نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجة.

والتعوذ من العلم الذي لا ينفع دليل على أن فيه شرٌّ يجب التحرز منه.

فينبغي لطالب العلم أن يعتني بالعلم الذي ينفعه في دينه ودنياه، ويحفظ وقته مما لا ينفعه.

والعلوم التي لا تنفع كثيرة ومن أبرز علاماتها مخالفة مؤداها لهدي الكتاب والسنة.

فكل علم تجده يصد عن طاعة الله أو يزين معصية الله أو يؤول إلى تحسين ما جاءت الشريعة بتقبيحه أو تقبيح ما جاءت الشريعة بتحسينه فهو علم غير نافع.

وسنأتي على شرح بعض المسائل المتعلقة بالعلم في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

المنهجية في طلب العلم.

وبعد أن عرفنا فضل الطلب العلم فكيف يكون طلب العلم؟

وما هي الأصول التي ينبغي لطالب العلم أن يراعيها حتى يسلك المنهج الأمثل في طلب العلم؟.

قبل بيان المنهج الأمثل ينبغي أن نعتبر بحقيقة مشاهدة تسهل علينا معرفة الميزان الذي توزن به طرق طلب العلم.

فلو تأملنا صنعة من الصنائع المعروفة كالطب أو الهندسة أو الزراعة أو النجارة أو غيرها من الصنائع التي يحتاجها الناس في حياتهم تجد أن لكل صنعة أصحابَها القائمين بها الذين أمضوا سنوات من أعمارهم في تعلمها حتى حذقوها وأفادوا بها وعرف الناس تمكنهم فيها حتى أمنوهم على مصالحهم وشهدوا لهم فيها بالإجادة والإحسان.

فهذه البراعة في الصناعة لم تأتهم سهواً رهواً ولا عفواً وصفوا، وإنما كابدوا في تحصيلها ما كابدوا.

وقد تأملت أحوال أرباب الصنائع فوجدت **أن المناهج المختلفة في التعلم تجتمع في أربعة أمور:**

الأمر الأول: الإشراف العلمي

والأمر الثاني: التدرج.

والأمر الثالث: النهمة في التعلم.

والأمر الرابع: الوقت الكافي للتعلم.

فتجد طالب تلك الصنعة يبدأ تعلمها تحت إشراف علمي من معلم يرشده ويقومه وربما يقوم ببعض العمل أمامه ويطلب منه إعادته وقد يخطئ المتعلم مرات كثيرة فيقومه معلمه ويبين له خطأه حتى يتعلم شيئاً فشيئاً.

وتجده يبدأ في التعلم بما يتيسر له مما يحسن معرفته بالتدريب اليسير ثم يتدرج لما هو أصعب منه قليلاً وهكذا لا يزال يتدرج في التعلم حتى يترقى في تلك الصنعة ويبلغ ما قدر له أن يبلغ من التمكن فيها.

ولا ينال ذلك إلا بالنهمة في التعلم والحرص عليه وتكرار المحاولات وعدم الإياس إذا فشل، بل يبقى حريصاً على التعلم حتى يشتد عوده في تلك الصنعة.
ومع هذا كله لا بد له من الصبر على التعلم مدة كافية من الزمن حتى يصل إلى الدرجة التي يشهد له فيها أرباب تلك الصنعة بالحذق والتمكن فيها، ويطمئن الناس إلى تمكنه من صنعته فيأمنونه على مصالحهم.

فلو رام إنسان اختصار هذا كله فتلبس بلباس أهل تلك الصنعة وتحدث بلسانهم، واستعمل شيئاً من أدواتهم وهو ولم يسلك طريقة أصحاب تلك الصنعة في تعلمها فإنه لا يكون من أهلها وإنما هو مدعٍ كذاب لا يوثق به ولا يأتمنه من يعرف حاله، بل ما أسهل ما يبيّن الامتحان كذبه وادعاءه.
إذا تبين ذلك فإن من أراد أن يكون عالماً وهو لم يسلك طريقة أهل العلم في التعلم فإنه لا يحصل مراده؛ فإن تكلم في العلم وتصدر مع ذلك فهو جاهل متعالم ضرره أكبر من نفعه.
وسلوك المنهج الصحيح في طلب العلم يفيد طالب العلم في حفظ وقته وجهده ويعرِّفه بمعالم كل علم فيأتيه من بابه ويتعلمه على وجهه الصحيح فإن سار فيه وصل ونجح، وإن تذبذب وانقطع لم يصل فيه إلى ما كان يأمل.
وقد بينت لكم في مقالة مفردة مسارات طلب العلم لدى العلماء، وتلك المسارات وإن كانت متنوعة إلا أن لها ثوابت محددة تجمعها، وهي أن كل علم يؤخذ عن أهله ولكل علم مصادره التي ينهل منها العلماء، وأن طالب العلم يحتاج إلى من يرشده بادئ الأمر حتى يصلب عوده ويشتد، فيعرف ما يأتي وما يذر.
فإذا أراد طالب العلم أن يتعلم العقيدة فليأخذها عن أهلها من الأئمة المعتبرين الذين لهم قدم صدق في الأمة فيقرأ كتبهم وسيرهم، ويستعين على فهم تلك الكتب بما يوضحها ويبينها من الشروح النافعة.

وإذا أراد أن يتعلم الحديث فليأخذه عن أهله، وإذا أراد أن يتعلم الفقه والنحو والبلاغة وغيرها من العلوم النافعة فكذلك، فيحتاج الطالب في كل علم يتعلمه أن يعرف أئمته المعتبرين وكتبه المعتمدة التي يشهد لها أهل العلم في ذلك الاختصاص بالمتانة العلمية.

والغرض من هذه الوصية أن يعي طالب العلم هذا الأمر جيداً حتى يحفظ وقته وجهده.

❑ المنهج المقترح لدراسة العقيدة

ومن هذه العلوم علم العقيدة الذي عُقدت هذه الدورة في أول متون تعلمها في هذا المعهد، أسأل الله تعالى أن يبارك في هذه الدورة وينفع بها إنه سميع مجيب.

وتعلم علم العقيدة يسير ولله الحمد إذا سار فيه طالب العلم سيراً صحيحاً، وأرجو أن يبلغ فيه مرحلة التقدم في وقت ليس بالطويل، وهو من العلوم التي يحتاج طالب العلم إلى التأني في دراستها، وفهمها جيداً، وحفظ ما يحسن حفظه من مسائلها وأن يسير فيه بالتدرج دون استعجال، فلو مكث الطالب في الباب الواحد أياماً حتى يضبطه جيداً لما كان كثيراً، لأن الرسوخ في فهمه يعينه على حسن فهم ما بعده من الأبواب.

ومسائل الاعتقاد لا تخرج عن بابين عظيمين من أبواب الاعتقاد:

الباب الأول: الشهادتان شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوازم هاتين الشهادتين العظيمتين، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله». وفي رواية في صحيح البخاري: «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله».

فأول ما يجب تعلمه التوحيد كما دل عليه الحديث.

الباب الثاني: مراتب الدين المذكورة في حديث جبريل الطويل التي هي: (الإسلام والإيمان والإحسان).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في تمام الحديث: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

والشهادتان مذكورتان في حديث جبريل، وإنما أفردت ذكرهما في الباب الأول للاهتمام بتقديمهما لتحقيق التدرج في التعلم، وأحسن ما يتعلمه طالب العلم أن يبدأ بدراسة هذا الحديث العظيم.

ولذلك اخترنا لكم في البداية رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها لأنها تضمنت هذين البابين وتضمنت حديث جبريل، وإلا لو درس الطالب متناً آخر يفي بهذا المقصد التعليمي لكفاه إن شاء الله.

ذلك أن طالب العلم إذا درس شهادة أن لا إله إلا الله دراسة جيدة عرف معنى التوحيد وأقسامه وواجباته وآدابه وما يقدح فيه، وعرف معنى العبادة التي يجب إفراد الله تعالى بها، وأنواعها، وأحوال دخول الشرك في العبادة وما يعتبر شركاً وما ليس بشرك، إلى غير ذلك من المسائل المهمة التي دلت عليها كلمة التوحيد العظيمة.

وإذا درس شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم دراسة جيدة عرف معنى المتابعة وشروطها وواجباتها وآدابها وعرف معنى البدعة وحكمها، وعرف ما ينقض الشهادتين، وعرف مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة أوامره واجتناب نواهيه وتصديق أخباره وقبول أحكامه، واعتقاد أن هديه أحسن الهدي في الأمور كلها، وأن محبته مقدمة على محبة النفس والأهل والولد، وعرف أن ما ينافي تحقيق هذه الشهادة فهو مخرج عن دين الإسلام والعياذ بالله.

فالشهادتان أصل الإسلام ومفتاح الدخول فيه وارتكاب أي أمر ينقضهما يعد ناقضاً من نواقض الإسلام.

ثم بعد ذلك ينتقل إلى دراسة مراتب الدين فيدرس أركان الإسلام ومنها الشهادتان، وأركان الإيمان وركن الإحسان.

وغالب مسائل الاعتقاد التي يذكرها الأئمة في كتبهم ترجع إلى أركان الإيمان الستة، حتى إن بعض الأئمة يرتب الكلام في أبواب الاعتقاد على ترتيب أركان الإيمان.

فالمرحلة الأولى من مراحل تعلم العقيدة أن يدرس معنى الشهادتين ومعنى مراتب الدين دراسة جيدة مؤصلة.

وهذه المرحلة يكفيه فيها دراسة ثلاثة الأصول وأدلتها أو ما يقوم مقامها، ولو درس شرح حديث جبريل الطويل دراسة جيدة يعتني فيها بمسائل التوحيد كفاه ذلك إن شاء الله تعالى.

ثم يدرس بعد ذلك بشيء من التفصيل ما يتعلق بالإيمان بالله جل وعلا ويعرف معنى التوحيد بتفصيل مناسب فيدرس معنى التوحيد وأقسامه وفضله وثواب من حققه وواجباته وآدابه ويعرف ما يناقضه وهو الشرك فيدرس خطره وأقسامه وأنواعه والأبواب التي يدخلها الشرك، ويدرس معنى العبادة التي يجب إفراد الله تعالى بها.

وهذه الموضوعات يكفيه في دراستها كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فهو كتاب قيم في هذا الباب.

وأوصيه أن يقرأ مع ذلك شرحاً ميسراً للأسماء الحسنى لما في دراستها من فوائد جليلة تعرف طالب العلم بربه جل وعلا، وإذا عرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وفقه معانيها ولوازمها وآثارها وجد في ذلك من العلم والإيمان ما يدفع عنه كثيراً من الشبه بإذن الله، ويعينه على الاستقامة على دين الله.

وأوصيه أن يدرس أشراط الساعة اهتداء بحديث جبريل عليه السلام، وفي دراسة أشراط الساعة فوائد جليلة فهي معينة على الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة عليها، واستشعار قصر هذه الحياة، وفيها فقه هذه الأشراط ما يعينه على فهم بعض أبواب العلم في العقيدة والسلوك.

فإذا أحكم طالب العلم هذه المعرفة جيداً واستقرت في قلبه تأهل لدراسة أصول الرد على شبهات الطاعنين في عقيدة التوحيد وهذه المرحلة يكفيه فيها دراسة كشف الشبهات في مسائل توحيد العبادة.

ثم بعد ذلك يحتاج إلى دراسة نواقض الإسلام وأحكام التكفير.

فهذا هو التسلسل المقترح في دراسة التوحيد والذي كان يوصي به علماؤنا في هذه البلاد رحم الله أمواتهم وحفظ أحياءهم.

والمهم هو تحقيق هذه المقاصد التعليمية.

والتفضيل بين المتون والكتب التي تعتني بهذه الموضوعات يدخله الاجتهاد، فإذا عرف الطالب المقصود لم ينشغل بمسألة التفضيل بين الكتب والمتون والتذبذب بينها بل كان همه مجتمع على فهم هذه الموضوعات المهمة ودراسة مسائلها جيداً.

ولذلك لا يحسن بطالب العلم الجاد أن يقف كثيراً عند كل ألفاظ المتون حتى يكاد يعربها لأن الإغراق في جزئيات المسائل الجانبية يشغله عن فهم المقصود الذي لأجله درس هذه المتون، ويشتت ذهنه ويضعف تركيزه.

فاعتن بهذه المسألة جيداً، ولتكن عنايتك متوجهة لفهم المقاصد أولاً، ثم ما تحصِّله بعد ذلك من العلم فهو خير على خير.

ومَن فقِه ذلك سهل عليه أن يدرس في الفن الواحد متوناً كثيرة، لأنه إذا درس متناً منها فهم مقاصده ومسائله فإذا قرأ متناً آخر في نفس العلم كانت عنايته متجهة لمعرفة ما فيه من زيادة علم، ولم يكن واقفاً عند رسوم الألفاظ.

وتنوع الاطلاع يحتاجه طالب العلم بعد أن يضبط أصلاً في كل علم.

ذكرنا لكم ما يتعلق بمنهج دراسة التوحيد.

وأما مسائل الاعتقاد المتعلقة بالأسماء والصفات ومباحث الإيمان والقرآن والقدر والغيبيات فأوصي بدراسة متن مختصر سهل العبارة يعرضها على سبيل الإجمال وقد اخترنا لكم في المعهد رسالة لمعة الاعتقاد لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، ثم بعد ذلك يدرس مسائل الاعتقاد بتوسع في العقيدة الواسطية، ثم يدرس العقيدة الطحاوية لما فيها من مسائل زائدة على ما في الواسطية، مع وجود بعض المسائل التي نبه عليها بعض الشراح، وهكذا يجد الطالب أنه يتوسع في دراسة العقيدة شيئاً فشيئاً وتتوسع مداركه كذلك.

فإذا حافظ طالب العلم على هذا التسلسل واجتهد في عدم الانقطاع عن الدراسة حصّل تحصيلاً جيداً مؤصلاً في وقت ليس بالطويل.

وأما إذا كان يدرس متناً ثم لا يتمه وينتقل إلى متن آخر ثم ينقطع فإنه يبقى مغبوناً في وقته وجهده محروماً من بلوغ مأموله إلى أن يعاود العزيمة الصادقة فيجتهد في تحصيل العلم على وجهه الصحيح.

فمراعاة التدرج ومتابعة الطلب مهمة جداً لطالب العلم فهي المنهجية الصحيحة في التعلم.

وهذه المتون التي اخترناها لكم هي على سبيل الاجتهاد في التفضيل، وإلا لو درس الطالب كتباً أخرى تعتني بتلك الموضوعات وفهم مقاصدها فإنه يكون قد أتى على المطلوب.

فإن رام التوسع بعد ذلك حسن به أن يدرس الفتوى الحموية والرسالة التدمرية ويقرأ القصيدة النونية لابن القيم وشرحها وكتاب الصواعق المرسلة ويعتني بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في الاعتقاد لما تضمنته من تحرير علمي عزيز وتعليم حسن بديع.

وفي هذا القدر كفاية لكم الآن، وأرجو أن ييسر الله تخصيص محاضرة علمية في بيان الطريقة المؤصلة لدراسة العقيدة حتى يبلغ الطالب مستوى طلاب العلم المتقدمين فيها.

❑ أهمية دراسة الدعوات الإصلاحية:

ومما يعين على فهم العقيدة فهماً حسناً قراءة تاريخ الدعوات الإصلاحية وسير المجددين من الأئمة ففيها فوائد جليلة تعين على فهم دعوة الإسلام كما ينبغي وتُعرِّفُ طالب العلم بما اعترض القائمين عليها من محن وابتلاءات، وكيف صبروا وثبتوا؟ وما جرت به سنة الله تعالى من نصر من ينصر دينه وجعل العاقبة لأوليائه.

فيتعرف على أسباب نجاح دعوة أولئك المجددين وانتفاع الناس بدعوتهم، ويتعرف أيضا على أنواع مكائد أعداء الدين في المكر بها لردها وإجهاضها وتنفير الناس منها، ويتعرف

أيضاً على مناهج الأئمة في معالجة هذا الأمر، وما كان هديهم في مواجهة تلك التحديات من أعداء الداخل والخارج، وأقصد بأعداء الداخل المنافقين وأعداء الخارج الكفار، وهؤلاء يأتمرون بينهم كثيرا في محاربة دعوة الإسلام الصحيحة، وغالب مكائد الأعداء ترجع إلى أنواع إذا ضبطها طالب العلم ودرسها جيدا فهم كثيرا من مسائل الدعوة المعاصرة، وتكشفت له بعض مكائد أعداء الدين اليوم، ومن تأمل سير أئمة الدين من المجددين الكبار وغيرهم وجد منهم عناية بارزة بسير الأئمة قبلهم، ومن قرأ كتبهم وجد استشهادهم بحوادث جرت للأئمة قبلهم أمراً ظاهراً.

وهذه المادة قد لا يحتاج طالب العلم فيها إلى متن يدرسه، لكن ينبغي له أن يقرأ في هذا العلم أو في هذه المادة التاريخية شيئا فشيئا من كتب السير والتراجم وما جمع في سير بعض المجددين من المؤلفات المفردة الخاصة، يقرأ سيرهم قراءة المعتني بفقه أسباب نجاح الدعوة وما كان يعترضهم من عقبات وصعوبات وكيف تصدوا لمكائد الأعداء؟

فالمقصد الذي يكون في نفس القارئ عند القراءة مهم جداً في انتفاعه من الكتاب، فالقراءة بغرض الثقافة قد تفيد الطالب في توسيع مداركه وازدياده من المعرفة، لكنها قد لا تصل به إلى الفقه المطلوب الذي نريد منه أن تكون هذه القراءة مادة مفيدة في نصر الدعوة وإمدادها وحسن التدبير لها.

وأول ما ينبغي دراسته في ذلك سيرة إمام المجددين صلى الله عليه وسلم، فقد جعل الله سيرته وهديه نبراساً للأئمة ومشكاة يقتبسون منها الهدي القويم في الملمات والشدائد التي تمر بهم، بل قلَّ أن يمر على عالم موقف من مكيدة الأعداء إلا وجد له أصلاً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يدرس سير المجددين بعده من علماء الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى عصرنا هذا.

وقد روى أبو داوود والحاكم في مستدركه وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»

والحديث صححه جماعة من أهل العلم.

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه عن الإمام أحمد أنه قال: (إن الله يقيض للناس في كل رأس مائة سنة مَن يعلمهم السنن وينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفي رأس المائتين الشافعي).

ولفظ (مَن) في الحديث يحتمل الواحدَ والجماعةَ.

فقد يقوم بالتجديد واحد، وقد يقوم به جماعة، وقد نص على ذلك جماعة من أهل العلم.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» وهذا الحديث روي من حديث أبي أمامة وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم وطرقه فيها ضعف بيِّن.

والحديث مختلف في تصحيحه وتضعيفه، نُقِل عن الإمام أحمد أنه صححه، وصححه ابن القيم رحمه الله باعتبار تعدد طرقه، ومن أهل العلم من ضعفه ومنهم من حسنه، لكن معناه صحيح.

ويؤيده ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ: سَمعْتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «إنّ اللهَ لا يقبضُ العِلمَ انتِزَاعًا يَنتزِعُهُ مِن العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبضُ العِلمَ بقبضِ العُلَمَاءِ حَتى إذا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتّخَذَ الناسُ رءوسًا جُهالاً فَسُئِلُوا فأَفتوا بغيرِ علمٍ فضَلّوا وَأَضَلّوا».

وهذا يدلك على أن حاجة الناس إلى العلم ماسة وضرورية، لأنهم بحاجة إلى السؤال، فإن وجدوا عالماً سألوه وإن لم يجدوا اتخذوا رءوساً جهالاً فسئلوهم، فالحاجة إلى السؤال باقية.

ولذلك ينبغي لطلاب العلم أن يفقهوا هذه المسألة جيدا؛ وهو أنهم اليوم طلاب، وغداً تحتاجهم الأمة؛ فينبغي لهم أن يتأصلوا بالعلم المفيد حتى إذا كانوا في السن والقدر الذي

يؤهلهم للإفتاء والتعليم والدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة كانوا من خير من يقوم بهذا الأمر.

عبدالله بن عمر رضي الله عنه كان في شبابه حريصاً على التعبد وكان يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم خيرا كثير من العلم النافع، لكنه لم يكن يخطر في باله أن سيعمَّر طويلاً ويحتاج الناس إليه في الإفتاء ورواية الحديث ونحو هذا، حتى قال في أواخر حياته رضي الله عنه قال: (لو كنت أعلم أنكم تحتاجون إليَّ لتفقَّهتُ لكم) وهو من فقهاء الصحابة رضي الله عنه لكنه أراد أن يزداد من التفقه لأجل أن ينفعهم ويزداد من الخير بنشر العلم النافع.

وما أجمل ما قاله الإمام أحمد رحمه الله في خطبة كتابه (الرد على الجهمية) قال: (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين).

فما أجمل هذا الكلام، وقد تضمن هذا الكلام من هذا الإمام المجدد العارف البصير بيان أصولِ انحرافات المنحرفين؛ فمن درسها دراسة جيدة عرف أن غالب انحرافات المنحرفين وأعداء الدين ترجع إلى هذه المسائل.

وكلام العلماء في تعيين المجددين كثير وفيه اختلاف كبير، لكن من المجددين من عرف لهم كبير أثرهم في الأمة ولهم دعواتهم الإصلاحية الظاهرة ومن أشهر هذه الدعوات دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

فأما سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ومزايا دعوته فأرجو أن نأتي على بيانها في دروس قادمة إن شاء الله تعالى.

وأما سيرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب فقد كتبت فيها مقالة تجدونها منشورة في قسم سير العلماء، وسأذكر لكم خلاصتها هنا للفائدة، وأنا أحب منكم أن تقرأوا سيرته قراءة جيدة و تتأملوا مافيها من الفوائد والدروس والعبر، وما يمكن أن يستفيده طالب العلم من المواقف التي تعرض لها شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ويستثمرها في ما يقوم به من الدعوة، فإن لكل واحد منا رسالة ينبغي أن يقوم بها، فيتعلم العلم النافع ويعمل به ويدعوا إلى الله على بصيرة، ومن كان هذا شأنه فقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلى ببعض الإبتلاءات ليختبر صدقه وإيمانه وثباته، وكلما كان أكثر أخذاً بهذه الأمور كان أكثر رفعة بإذن الله تعالى.

ترجمة المؤلف رحمه الله

- هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي.
- ولد فِي بلدة العُيَينةِ سنة ١١١٥هـ.
- نشأ نشأةً صالِحة فحفظ القرآن قبل بلوغه عشر سنين، وتتلمذ على والده قاضي العيينة.
- ظهرت عليه أمارات النبوغ من حدة الذهن وقوة الحفظ وحسن الفهم وعلو الهمة.
- قرأ على صغر سنه كتباً كثيرة في التفسير والحديث والاعتقاد والفقه وغيرها.
- رحل في طلب العلم إلى الحرمين والأحساء والبصرة والزبير.
- كان سريع الكتابة حاد الذكاء قوي الحفظ جاداً مقبلاً على العلم والعمل.
- أقبل على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ففهم مقاصدها واختصر بعضها.
- أسف لما آل إليه حال الناس من غربة الدين وانتشار الشرك والجهل حتى عبدت الأشجار والأحجار والقبور والجن.
- اتفق مع أمير الدرعية محمد بن سعود على الدعوة إلى التوحيد ونصرة الدين بالحجة والسنان، وتبايعا على ذلك.
- أقام مدرسة لتعليم التوحيد وعلوم الشريعة وألف لهم المناهج ورتب لهم الدروس فوفد إليه طلاب العلم وانتشرت دعوة الشيخ المباركة.
- كاتب الشيخ العلماء والأمراء والوجهاء وأقام الحجج وكشف الشبه.
- استجاب لدعوة الشيخ طائفة من الناس وأيدوه وناصروه، واستنكف آخرون وعادوه وآذوه واجتهدوا في تنفير الناس عنه ورميه بالعظائم.
- رفعت راية الجهاد بعد عام ١١٥٨هـ ففتح الله لهم القلوب والبلاد وأعلا الله كلمته ونصر أولياءه ودحض الشرك وأهله.
- وفي عام ١١٨٨ هـ انقطع الشيخ للعبادة والتعليم إلى أن توفاه الله عز وجل في الدرعية سنة ١٢٠٦ هـ فرحمه الله رحمة واسعة وألحقه بالصالحين، وجمعنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

الدرس الأول: شرح المسائل الأربع (٢/١)

عناصر الدرس:

١: بيان موضوع (ثلاثة الأصول) والتعريف ببعض نسخها.

٢: بيان مراتب الجهاد في سبيل الله بمعناه العام.

٣: بيان فضل جند الله تعالى.

٤: بيان معنى البسملة.

٥: شرح قول المؤلف: (اعلم - رحمك الله - أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل)

٦: شرح المسألة الأولى وهي العلم.

٧: شرح المسألة الثانية وهي العمل به.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا هو يوم السبت التاسع عشر من شهر جمادى الأولى من السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

هذه الدورة هي في شرح (ثلاثة الأصول وأدلتها)، هذه الرسالة مشهورة متداولة وقد طبعت كثيراً وشرحها كثير من أهل العلم في بلادنا، بل جعلوها من أول ما يبدؤون به تعليم العقيدة للسبب الذي شرحته لكم في المقدمة.

والمسائل الأربع والمسائل الثلاث هي ملحقة برسالة ثلاثة الأصول كما نبه إلى ذلك شيخنا الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله.

والأصول الثلاثة: هي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وكان الشيخ رحمه الله يكرر تأليف هذه الرسالة ويلقنها للعامة، وفي بعض نسخها اختلاف يسير وموضوعها واحد.

- منها رسالة باسم (الأصول الثلاثة) طبعت من دون المسائل الأربع والمسائل الثلاث وليس فيها حديث جبريل الطويل وبينها وبين هذه النسخة اختلاف يسير.
- ومنها رسالة أكثر اختصاراً باسم (أصول الدين الثلاثة) أدخل في بعضها ألفاظاً عامية ليقربها للعامة.
- ومن تلاميذ الشيخ والمعتنين بتدريس هذه الأصول الثلاثة من اختصرها وصاغها بأسلوب السؤال والجواب كما فعل ذلك الشيخ/ عبد العزيز بن محمد أبو حبيب الشثري وعلق عليها حاشية يسيرة وأسمى كتابه (المصقول في التعليق على مختصر ثلاثة الأصول) وقد اعتنى بنشرها حفيده الشيخ سعد بن ناصر الشثري حفظه الله.

والمقصود أن النسخة التي ندرسها هي أتم هذه النسخ وأكثرها شهرة وتداولاً، وعليها أكثر الشروح.

والرسالتان الوجيزتان المسائل الأربع والمسائل الثلاث ضمهما مع رسالة ثلاثة الأصول بعض تلاميذ الشيخ، وقد كان هذا التصرف سبباً مباركاً في كثرة تدريس هاتين الرسالتين الوجيزتين النافعتين.

وهذه الرسالة غلب عليها اسم (ثلاثة الأصول) حتى صار علماً عليها وهذا التركيب (ثلاثة الأصول) صحيح فصيح، قال المبرد في المقتضب: (تقول: هذه ثلاثة أثوابٍ؛ كما تقول: هذا صاحب ثوبٍ. فإن أردت التعريف قلت: هذه ثلاثة الأثواب، كما تقول: هذا صاحب الأثواب؛ لأن المضاف إنما يعرفه ما يضاف إليه فيستحيل هذه الثلاثة الأثواب؛ كما يستحيل هذا الصاحب الأثواب. وهذا محال في كل وجه، ألا ترى أن ذا الرمة لما أراد التعريف قال:

أمنزلتي ميٍ سلامٌ عليكما ... هل الأزمن اللائي مضين رواجع

وهل يرجع التسليم أو يدفع البكا ... ثلاث الأثافي والرسوم البلاقع

وقال الفرزدق:

مـا زال مـنـذ عقـدت يـداه إزاره ودنـا فـأدرك خمسـة الأشـبار

فهذا لا يجوز غيره).

وقد ذكر الحريري في أوهام الخواص أنهم يقولون ما فعلت الثلاثة الأثواب فيعرفون الاسمين ويضيفون الأول منهما إلى الثاني.

قال: (والاختيار أن يعرف الأخير من كل عدد مضاف، فيقال: ما فعلت ثلاثة الأثواب وفيم انصرفت ثلاثمائة الدرهم، وعليه قول ذي الرمة:

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأثافي والرسوم البلاقع)ا.هـ

فهذا اجتزاء في بيان صحة هذا التركيب وسلامته لغة.

❖❖❖

وكان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يعتني بتعليم طلابه الأصول الثلاثة وهي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، وكان يلقنها للطلبة والعامة حتى يحفظوها ويعقلوا معانيها.

وقد كرر تأليفها مراراً وبين النسخ اختلاف في العبارات وفي بعضها عبارات عامية لأنه كان يلقنها للعامة لتصحيح فهمهم مبادئ الإسلام، لأن الشرك في زمنه قد انتشر انتشاراً كبيراً واستفحل أمره بسبب الجهل وعلماء السوء وأهل البدع من الصوفية وغيرهم

وتأملوا هذه المقالة لتلميذين من تلاميذ الشيخ رحمه الله يحكيان فيه ما كان عليه واقعهم إضافة إلى ما ذكرته في تلخيص سيرة الشيخ رحمه الله.

وها هي أقرؤها عليكم وهي موجودة في تاريخ ابن بسام رحمه الله.

(من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبد الله المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شموس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان

والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمر إليه فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى ونصح ووفى بالعهد لما نقضوه وشمر عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه..

فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى - صلاة العصر - من الهذيان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة..

هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علماؤنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلًا ولا يهدون ضالًا والكلام من جهتهم طويل عصمنا الله وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا القليل منهم يكفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول ابن الكهمري: اللهم صل على سيدنا ولينا ملجانا منجانا معاذنا ملاذنا.

وكذلك تعطيل الصفات في الطيبي فيشهد أن الله لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

وأنا قصدت ببيان هذا الأمر لكم لأن من عرف حال الناس في زمان الشيخ قبل هذه الدعوة المباركة عرف قيمة هذه الدعوة، وعظيم قدرها، وفهم سبب عناية الشيخ رحمه الله بتقرير هذه المسائل.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مواضع من كتبه أثراً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية).

فمعرفة حال أهل الجاهلية مهم لطالب العلم المعتني بأمر الدعوة إلى التوحيد.

🗎 وموضوع رسالة الأصول الثلاثة هو المسائل الثلاث التي يسأل عنها العبد في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الميتَ ليسمع خَفْق نعالهم إذا وَلّوْا مدبرين حين يقال له: يا هذا، مَنْ ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومن نَبِيُّكَ؟».

رواه أبو داوود وغيره.

والشيخ رحمه الله كان يعتني بذكر الأعداد في رسائله من باب التعليم والإعانة على الحفظ والضبط فله المسائل الأربع، والمسائل الثلاث، والأصول الثلاثة والأصول الستة وغيرها، وهذا له فائدة تعليمية وهو منهج نبوي في التعليم، وفي الأحاديث الصحيحة: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً..»

«وثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»، وقال أبو هريرة: (أوصاني خليلي بثلاث) وغير ذلك من الأحاديث، فذكر العدد يعين على الضبط والحفظ والاستذكار. ألا ترون لو أن امرأة قالت لابنها اذهب إلى السوق واشتر لي كذا وكذا وعددت له أشياء أنه قد ينسى بعضها؟.

لكن لو قالت له: أحضر لي خمسة أشياء هي كذا وكذا وعددت له هذه الخمسة. ألا ترون أن ذلك يعينه على ضبط ما طُلب منه واستذكاره بسبب معرفة عَدَدِه؟

❏ فقال رحمه الله: **(اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل)** فيتهيأ ذهن المتلقي لضبط هذه المسائل الأربع.

وهذه الرسالة نافعة جليلة القدر ينبغي أن نفقهها حق الفقه لأنها تلخص للمسلم رسالته في الحياة والمبادئ العامة التي يسير عليها وهي العلم والعمل والدعوة والصبر. فيتعلم أولاً العلم النافع ثم يعمل به ثم يدعو غيره إلى ذلك ويستعين بالصبر على كل ذلك، الصبر على العلم والصبر على العمل والصبر على الدعوة.

وهذه المسائل يجب على المسلم أن يجاهد نفسه عليها، وما أحسن كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان مراتب الجهاد في كتابه المبارك زاد المعاد في هدي خير العباد. وأنا أسوقه هنا لأهميته وحسن تلخيصه، ولأنه مقدمة لبيان أهمية هذه المسائل، حيث قال رحمه الله:

(الجهادُ أربع مراتب: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب أيضاً:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل الله مِن الهُدى والبينات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب الله.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّلَ ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربَّانياً حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمَن علم وَعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيماً فى ملكوتِ السموات).

قال: (وأما **جهادُ الشيطان، فمرتبتان**؛ إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقى إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة فى الإيمان.

الثانية: جهادُه على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ، فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوك والشبهات).

قال: (وأما **جهادُ الكفار والمنافقين، فأربع مراتب:** بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان).

قال: (وأما **جهادُ أرباب الظلم، والبِدعِ، والمنكرات، فثلاث مراتبَ:** الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللِّسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه.

فهذِهِ ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و"مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ").

انتهي كلامه رحمه الله وهو كلام نفيس ينبغي لطالب العلم أن يعتني به جيداً، لأنه بين للمؤمن منهجه في الحياة على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وبين مراتب الجهاد التي لا ينفك مسلم عن بعضها بكلام مؤصل موجز سهل العبارة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

وتأملوا كيف قرن الله تعالى الأمر بالجهاد بنفي الحرج، وختم الآية بالوعد بحسن الولاية والنصرة لمن اتبع هداه فيها.

وهذا يدلك على أن الأمر بالجهاد في أي نوع من أنواعه لا يجب فيه على المكلف إلا ما يستطيع كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وهذا يقطع على النفس عذر المشقة واستصعاب القيام بهذه الأمور، فقم بما تستطيع منها، فإن ما لا تستطيعه معفو عنه ولا تؤاخذ به.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

فإذا قامت الأمة بما تستطيع من هذه الأمور تبدلت أحوالها وبوأها الله ما وعدها من النصر والرفعة والتمكين.

وكل من يقوم بواجبه في ذلك من المؤمنين في أي نوع من أنواع الجهاد فهو من جند الله وحزبه، وهذا هو التجنيد الصحيح بل هو أفضل التجنيد، وهو أن تكون جندياً لله تعالى فتعملَ بمرضاة الله وتنالَ محبته ورضوانه وفضله العظيم، وقد شرَّف الله جنده ووعدهم بالنصر والتمكين ونسبهم إليه جل وعلا نسبة تشريف فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ❖ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ❖ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

ومن أهم صفات الجندية الطاعة والتسليم والعمل بما يكلف به، واستشعار مسؤولية العمل الذي استعمل عليه، وهذه الصفات مقررة في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

وتأملوا الفرق العظيم بين من جنَّد نفسه لله، ومن جنَّد نفسه لهواها وللشيطان وللطواغيت.

ومن أبى أن يكون جندياً لله تعالى فقد جنَّد نفسه لغيره شاء أم أبى.

واجندية لله تعالى تتميز بميزات عظيمة من أهمها:

١: أنها جندية شريفة، شَرَفَ قَدْرٍ وَشَرَفَ نِسْبَةٍ، فأصحابها هم أشرف الناس في الدنيا والآخرة لأنهم أرفع الناس رتبة في الميزان الصحيح ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وأعظم المؤمنين شرفاً أكثرهم قياماً بها.

وقد نسبهم الله إليه نسبة تشريف فسماهم جنده كما تقدم، وأي شرف يداني هذا الشرف؟!!

ألا ترى لو أن ملكاً من ملوك الدنيا قال لشاعر عنده أنت شاعر الملك لعدَّ ذلك فخراً له يورثه أحفاده!!

فما بالكم بالنسبة إلى الله تعالى التي لا أشرف منها.

فيشعر المنتسب إلى الجندية لله تعالى بالعزة الإيمانية، والرفعة العظيمة، وأنه يعمل في الموقع الصحيح الذي خلق لأجله.

٢: أنها جندية نبيلة فالله تعالى لا يأمر جنده إلا بالعدل والإحسان ومكارم الأعمال والأخلاق، وما فيه خير العباد والبلاد، وهو تعالى ينهى عن الظلم والفحشاء ومساوئ

الأخلاق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فرسالة هذه الجندية رسالة سامية ذات أخلاق عالية، أهدافها تحرير العباد من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن رق النفس والهوى والشيطان إلى عبودية الملك الرحيم الرحمن.

ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد.

ومن سبل البدعة إلى منهاج السنة

ومن ذل المعاصي إلى عزة الطاعة.

فهل أنبل من هذه الرسالة؟!

٣: أنها جندية كريمة؛ كريمة في خصالها وأهدافها وأساليبها، كريمة في ثواب أصحابها، فثوابهم أعظم الثواب في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى مثنيا على بعض جنده ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ❖ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾.

وأعظم ثواب الدنيا الحياة الطيبة التي ملؤها السكينة والطمأنينة وبرد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الطاعة ونور العلم وبركة اتباع رضوان الله تعالى، كما قال الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قد خصهم الله بالربوبية الخاصة والفضل العظيم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ اللهم إنا نسألك من فضلك.

٤: أنها جندية رحيمة، رحيمة بالجندي نفسه ورحيمة في رسالته إلى الناس، فالجندي فيها لا يكلّف ما لا يطيق، بل متى وَجَدَ مشقة خُفِّفَ عنه، بل ربما أسقطت عنه بعض

الواجبات تخفيفاً عليه بخلاف الجندية للطواغيت المبنية على القهر والظلم والاستبداد. وهي جندية رحيمة في رسالتها إلى الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

٥: أنها جندية بصيرة، مبنية على العلم والحكمة، وتحقيق المصالح ودرء الفاسد، مبنية على الفقه في الدين، فليس فيها طاعة عمياء ولا اتباع من غير دليل، والتسليم فيها إنما هو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٦: أنها جندية منصورة مؤيدة بحفظ الله ورعايته، وتسديده وهدايته، وقد وعد الله جنده بالنصر والتمكين، والله لا يخلف وعده فقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

فمن جاهد لإعلاء كلمة الله في أي مرتبة من مراتب الجهاد جهاد النفس أو جهاد الشيطان أو جهاد الكفار أو جهاد المنافقين فهو موعود بالنصر والهداية، وقد قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

فالنفس الأمارة بالسوء والشيطان والكفار والمنافقون متصفون بالإجرام.

والمؤمنون هم أتباع الأنبياء ينالهم من جنس ما ينال الأنبياء من الابتلاء، وقد جعلهم الله أسوة لنا وأمرنا أن نقتدي بهم.

وقد تكفل الله لأوليائه بالهداية والنصر، فبالهداية يسيرون في الطريق الصحيح، وبالنصر يتغلبون على أعدائهم.

وتقديم الهداية على النصر في الآية من باب تقديم العلم على العمل، لأن الهدايةَ من ثمرات العلم والنصرَ من ثواب العمل.

⇦ فتبين لنا أن الجندية لله تعالى شريفة نبيلة كريمة رحيمة بصيرة منصورة؛ فلا يُحرَمُ فضلَها إلا شقيٌّ محروم مخذول مستحق للعذاب، نعوذ بالله من الخذلان.

وهذه الجندية لله تعالى مرتبطة بهذه المسائل الأربع: العلم والعمل والدعوة والصبر. وهذه المسائل الأربع ليست أعمالاً يؤديها الإنسان في مدة يسيرة ثم يتركها، بل هي منهاج حياته ما دام في دار الابتلاء؛ فهو مطالب بها إلى أن يتوفاه الله عز وجل أو يرتفع عنه التكليف.

فامتثالها ميسر وثوابه عظيم لكنه دائم ما دام تكليف العبد في هذه الحياة الدنيا.



بعد هذا التمهيد نشرع في شرح جمل الرسالة مستعينين بالله تعالى، **وإنما استرسلت في المقدمة لأنني لا أريد أن يكون تعلّمنا للمتون العلمية تعلماً نظرياً نستكثر به من المعلومات وشرح عبارات المتن، وإنما نريده منهجاً علمياً وعملياً نمثله في حياتنا**، وأن تكون حياتنا لله، وهمتنا لإعلاء كلمة الله، ورسالتنا أن نحيا في سبيل الله ونموت في سبيل الله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ❁ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

❐ قال رحمه الله: **(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**

البدء بالبسملة في الكتابة من سنن الأنبياء قال الله تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ❁ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❁ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

قال ابن عاشور في تفسيره: (والمظنون أن سليمان اقتدى في افتتاح كتابه بالبسملة بسنة موروثة من عهد إبراهيم).

وفيه اتساء بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكاتباته ومراسلاته ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل وبدأ بالبسملة.

وأما حديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع» فهو ضعيف جداً، رواه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع في أخلاق الراوي من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

ورواه الإمام أحمد وأبو داوود وابن ماجه بلفظ: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر» أو قال: «أقطع».

ومن أهل العلم من حسّنه كالسيوطي والعجلوني، وذكر السخاوي في المقاصد الحسنة أنه ألف فيه جزءاً، وضعفه الألباني وجماعة من أهل العلم، وقال الدارقطني: الصحيح عن الزهري مرسلاً.

وقد ذكر بعض الشراح أن المؤلف ابتدأ بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وفي هذا الاستدلال نظر إذ لو بدأ متحدث حديثه بالحروف المقطعة اقتداء بالكتاب العزيز لَعُدّ مبتدعاً.

- البسملة اسم لكلمة (باسم الله) صيغ على طريقة النحت، كما يقال الحمدلة، والحوقلة والحسبلة، أسماء منحوتة اختصاراً لكلمات الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

° (بسم) الباء للاستعانة والتبرك، و(اسم) مفرد مضاف فيعم جميع الأسماء الحسنى، وقد حذفت الألف في كلمة (بسم) رسماً – أي عند الكتابة - تبعاً لحذفها لفظاً للكثرة.

- ومتعلق الجار والمجرور محذوف ويقدر بفعل يناسب المقام نحو: أَكْتُبُ، أو أعلِّمُ أو أدرس.

ويصح أن يقدر المتعلق اسماً كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، ويصح تقديره فعلاً كما دل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

• والاستعانة بالله وشهود منته وطلب حفظه وتسديده من أسباب تمام العمل ونجاحه ؛ فينبغي للمعلِّم والمتعلم أن يستحضرا معاني البسملة وأن تمام الأمر إنما هو بحول الله وقوته ومنته ، وأن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

° (الله) علم على الباري جل وعلا ، وهذا الاسم هو أعرف المعارف كما قال سيبويه رحمه الله.

وقال بعض علماء اللغة : أصل اللفظ (الإله) فِعَالٌ بمعنى مفعول ، والمألوه المعبود ، الذي تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً ، وهذا الاسم هو الجامع لجميع صفات الكمال والجلال والجمال ، ويدل عليها بالتضمن واللزوم ، وهو اسم مختص بالله جل وعلا ، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم ؛ فيقال : الرحمن والرحيم والغفور من أسماء الله ، ولا يقال العكس.

(اللهم) معناها يا الله ، زيدت الميم عوضاً عن النداء ، ولذلك لا تقال إلا في الدعاء.

° (الرحمن) أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

° (الرحيم) الذي يرحم من يشاء من خلقه.

- قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ((الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه ، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم ؛ فكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولم يجئ قط رحمن بهم ، فعلم أن (رحمن هو الموصوف بالرحمة ، و(رحيم) هو الراحِم برحمته).

وصيغة فعلان في اللغة تدل على قيام الصفة بالموصوف وسعتها بما يناسب حاله فتقول فلان شبعان إذا امتلأ شبعاً ، وغضبان إذا امتلأ غضباً ، ونحو ذلك.

• **والرحمة نوعان:** رحمة عامة ورحمة خاصة فجميع ما في الكون من خير فهو من آثار **رحمة الله العامة** حتى إن البهيمة لترفع رجلها لصغيرها يرضعها من رحمة الله عز وجل كما جاء ذلك في الحديث.

وأما **الرحمة الخاصة** فهي ما يرحم الله به عباده المؤمنين مما يختصهم به من الهداية للحق واستجابة دعائهم وكشف كروبهم وإعانتهم وإعاذتهم وإغاثتهم ونصرهم على أعدائهم ونحو ذلك كلها من آثار الرحمة الخاصة.

- والمؤلف رحمه الله اقتصر على البسملة اختصاراً لئلا يطيل على القارئ بالخطبة، ولأن البسملة من أبلغ الذكر والثناء.

❑ شرح قول المؤلف: **(اعلم رحمك الله)**

° البدء بهذه الصيغة (اعلم) فيه تنبيه للقارئ، والدعاء له فيه تلطف وتودد، واسترعاء انتباه الطلاب والسامعين من سمات المعلم والداعية المؤثر.

والرفق بالطالب والنصح له من سمات العالم الرباني؛ فإن مبنى الدعوة والتعليم على الرحمة والنصح.

فبدؤه رحمه الله بالدعاء للمتلقي تعبير عن إرادة الخير له وفيه تلطف وتودد، وهذا له أثر حسن في نفس المتلقي، وهذا اللين مع المخاطبين نحتاجه في الدعوة كثيراً وهو من صفات نبينا صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، وقال الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

° قوله: (اعلم) العلم: إدراك المعلوم، والفرق بين العلم والمعرفة أن المعرفة مسبوقة بجهل أو غفلة غالباً.

° قوله: (رحمك الله) دعاء للطالب بالرحمة، ومن رحمة الله بطالب العلم أن يوفقه لحسن الفهم، وينفعه بما يقرأ ويسمع ويدرس، وأن يَغفر له الذنوب التي يحرم بسببها ثمرة التعلم.

- المغفرة من آثار الرحمة ؛ فالرحمة أعم من المغفرة.

❑ شرح قول المؤلف : **(يجب علينا تعلم أربع مسائل...)**

° قوله : (يجب علينا) فيه تنبيه آخر للقارئ ليعتني بمعرفة ما يجب عليه، والوجوب هنا يراد به الوجوب العيني، فهذه المسائل الأربع هي منهاج حياة المسلم، والناس متفاضلون في تحقيق هذه المسائل على مراتب كثيرة لا يحصيهم إلا من خلقهم فهم متفاضلون في العلم، متفاضلون في العمل، متفاضلون في الدعوة، متفاضلون في الصبر. (ما معنى متفاضلون؟ أي أنهم على درجات ومراتب ليسوا سواء فبعضهم أفضل من بعض، وكلما ازداد المرء من العلم والعمل والدعوة والصبر فهو خير له عند ربه، ويكون أعلى درجة ممن هو دونه في تحقيق هذه المسائل).

فينبغي لطالب العلم أن يأخذ بنصيب وافر من هذه المسائل.

❑ **شرح المسألة الأولى وهي: العلم**

قال رحمه الله : **(الأُولى: العِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ)**.

• المراد بالعلم هنا العلم الشرعي، وقد عرف العلم الشرعي بأنه معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

• وشرح هذا التعريف هو موضوع رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها، لأنها هي الأصول الثلاثة المراد تدريسها.

• فمعرفة الله تكون بالإيمان به وعبادته وحده لاشريك له والقيام بحقه جل وعلا، وسبيلها التفكر في آيات الله المتلوة وآياته الكونية.

• روى ابن حبان في صحيحه عن طلحة بن خراش يحدث عن جابر بن عبد الله أن (رجلا قام يركع ركعتي الفجر وقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى انقضت

السورة فقال النبي «هذا عبد عرف ربه»، وقرأ في الآخرة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى انقضت السورة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا عبد آمن بربه عز و جل» قال طلحة: وأنا أحب أن أقرأ بهاتين السورتين في هاتين الركعتين).

وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله في كتاب تعظيم قدر الصلاة: (من عرف ربه واعترف به أوجبت معرفته حبه وهيبته ورجاءه وخوفه، والدليل على ذلك أنه لو أعطى الدنيا كلها على أن تكفر به أو تكذب عليه ما فعل).

- ومعرفة النبي صلى الله عليه وسلم تكون بالإيمان به واتباع هديه.
- ومعرفة دين الإسلام تكون بتعلم العلم الشرعي الذي مبناه على آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فهي الأدلة على دين الإسلام.

- **ولفظ الإسلام يطلق على معانٍ ثلاثة:**

- **المعنى الأول**: الإسلام الكوني العام، ويراد به خضوع جميع المخلوقات لأمر الله الكوني كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

- **المعنى الثاني**: الإسلام الشرعي العام وهو دين الأنبياء جميعاً ويراد به توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة كما جاء في آيات كثيرة عن عدد من الأنبياء أنهم من المسلمين، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وفي قوله جل وعلا: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾

فدين الأنبياء واحد، وشرائعهم شتى.

- **المعنى الثالث**: الإسلام الشرعي الخاص وهو الشريعة المحكمة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

- قوله: (بدليله): الدليل هو طريق العلم والمرشد إليه.

➢ **والأدلة على قسمين: سمعية وعقلية.**

- **الأدلة السمعية**: هي التي مستندها الثبوت بالنقل الصحيح، وهي أدلة الكتاب والسنة والإجماع.
- **الأدلة العقلية**: هي التي مستند ثبوتها العقل والنظر.

حكم طلب العلم

- العلم الشرعي منه فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين هو ما يتأدى به الواجب، قال الإمام أحمد: (يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه) قيل له: مثل أي شيء؟ قال: (الذي لا يسعه جهله صلاته وصيامه ونحو ذلك).
- فيجب على العبد أن يتعلم ما يؤدي به الواجب ويكف به عن المحرم ويتم به معاملاته على الوجه الذي لا معصية فيه.
- وما زاد على القدر الواجب من العلوم الشرعية فهو فرض كفاية على الأمة.
- قال سفيان بن عيينة: (طلب العلم والجهاد فريضة على جماعتهم ويجزئ فيه بعضهم عن بعض، وتلا هذه الآية ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمِ﴾).
- قال ابن عبد البر: (قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع).

من فضائل العلم

- فمَن طلب العلم ليؤدي به ما وجب عليه من العبادات الواجبة، فقد أدى الفرض الذي يخصه، ويبقى النظر في الفرض العام فإن قام به من يكفي وإلا وجب عليه أن يطلب العلم لحاجة الناس إليه إن كان قادراً على ذلك.

• وطلب العلم له فضائل عظيمة ذكرت لكم بعض أدلته في الدرس السابق، ومن هذه الأدلة قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• وعن معاوية رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين». متفقٌ عَلَيْهِ.

• عن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أصَابَ أرْضاً؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ، وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أجَادِبُ أمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ؛ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كلأً، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». متفقٌ عَلَيْهِ.

وجوب الإخلاص في طلب العلم

ومما ينبغي التأكيد عليه بيان وجوب الإخلاص لله تعالى في طلب العلم، وبيان الوعيد الشديد لمن طلب العلم رياء وسمعة أو لا يريد به إلا ليصيب عرضاً من الدنيا.

° ففي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في ذكر أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، وذكر منهم: «رجلاً تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار». نعوذ بالله من غضبه وعقابه.

° وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا. رواه أَبُو داود بإسناد صحيح.

° قال مالك بن دينار: (مَن تعلّمَ العلمَ لِلعملِ كَسَرَهُ علمُه، وَمَن طَلبهُ لِغيرِ العملِ زادهُ فَخْرًا).

° وقَال مطر الوراق: (خيرُ العلمِ مَا نفع، وإنّما ينفعُ الله بالعلم مَن عَلِمَهُ ثُمّ عَمِلَ به، ولا ينفَعُ به مَن عَلِمَهُ ثُمّ تَرَكَهُ).

ومما يعين على الإخلاص في طلب العلم أن يطلب العبد العلم للعمل به والاهتداء بهدى الله لينال فضله ورحمته وأن يعظم هدى الله في قلبه ويفرح بفضل الله ورحمته إذا وجد ما يهتدي به لما ينفعه من خير الدنيا والآخرة.

فإن الله لم يحرِّم عليه شيئاً إلا عوضه خيراً منه، فعوض المخلصين بتركهم طلب ثناء الناس ثناء الله تعالى عليهم في الملأ الأعلى ووضع القبول له في الأرض.

وأين هذا من ذاك!

فالإخلاص في طلب العلم يكون بأن:

يبتغي به وجه الله ليهتدي لمعرفة ما يحبه الله ويرضاه فيعمله، ويعرف ما يبغضه الله فيجتنبه، ويعرف ما يخبر الله به فيؤمن به ويصدقه، ويقصد به رفع الجهل عن نفسه وعن غيره. فإذا فعل ذلك فقد صلحت نيته في طلب العلم.

⇦ فتلخص مما سبق بيانه أن العلم الشرعي منه فرض عين وفرض كفاية، وأن فضله عظيم، وأن الإخلاص في طلب العلم واجب، وقد ذكرنا أيضاً المقاصد الصالحة في طلب العلم.

❑ شرح المسألة الثانية: وهي العمل به

عظم شأن العمل بالعلم

والعمل بالعلم شأنه عظيم فثواب العاملين بالعلم ثواب عظيم كريم كما قال الله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

وعقوبة تاركي العمل عظيمة شنيعة والقوارع عليهم في الكتاب والسنة شديدة كما قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية.

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ❖ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

• وفي الصحيحين من حديث أسامةُ بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُؤتَى بالرجل يوم القيامة فيُلْقى في النار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بها كما يدُور الحمار في الرّحَى، فيجتمع إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فُلانُ مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأَنْهَى عن المنكر وآتيه».

• في حديث أبي هريرة في أول من تسعر بهم النار أنه يقال لقارئ القرآن: ماذا عملت فيما علمت.

• وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزولُ قدَمَا عبد يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربعٍ: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن عِلْمِهِ ما عمِل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

• عن أبي برزة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء على الناس وتحرق نفسها» رواه البزار وصححه الألباني.

اللهم إنا نسألك حسن التعلم وحسن العمل، ونعوذ بك اللهم من مثل السوء إنك رؤوف رحيم.

ولأهمية هذا الأمر أفرده بعض العلماء بالتأليف، فكتب الحافظ ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) رسالة (ذم من لا يعمل بعلمه) وألف الخطيب البغدادي (ت:٤٦٣هـ) كتاب (اقتضاء العلم العمل).

وأفرد له ابن عبد البر فصلاً في جامع بيان العلم وفضله، وقبله الآجري في أخلاق العلماء، وكذلك ابن رجب في فضل علم السلف على علم الخلف، وابن القيم في مفتاح دار السعادة، وغيرهم.

حكم العمل بالعلم

الأصل في العمل بالعلم أنه واجب، وأن من لا يعمل بعلمه مذموم بكل حال، وعند التفصيل نجد أن من العلم ما يجب العمل به وجوباً مؤكداً ، وذلك كالفرائض واجتناب المحرمات؛ فمن عَلِمَ وجوبَ فريضة من الفرائض وَجَب عليه أداؤها، ومَن علم تحريم شيء من المحرمات وجب عليه اجتنابه، فمن وفَّى نال الثواب وكان من عباد الله المتقين الذين يعملون بعلمهم، ومن فرَّط في الفرائض وضيَّعها وتقحَّم المحرمات فهو مذموم متسحق للعقاب الشديد والعذاب الأليم بسبب فسقه وعصيانه.

ومن العمل بالعلم ما هو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

ومنه ما هو مستحبّ يندب لمن علم به أن يعمل به ويثاب على ذلك فإن لم يعمل به فلا إثم عليه لكنه يكون قد فرَّط في ثواب عظيم.

ويجب على طالب العلم أن يكون حريصاً على أداء الواجبات واجتناب المحرمات هذا في المقام الأول، ثم يؤدي من السنن والمستحبات ما يتيسر له ويفتح الله له به عليه .

بيان أن ذم من لا يعمل بعلمه لا يختص بالعلماء

- ومن الخطأ أن يظن أن أحاديث الوعيد في ترك العمل بالعلم خاصة بالعلماء وطلاب العلم.

• بل كل من علم حكماً شرعياً وجب عليه العمل بمقتضاه، واستحق الذم على ترك العمل به إذا تركه.

فأوصي نفسي وإياكم إذا علمنا شيئاً أن نعمل به ولو مرة واحدة، إذا لم يكن فيه وجوب يقتضي تكرار العمل به.

وقد كان هذا من هدي أئمة الدين رحمهم الله تعالى فقد قال الإمام أحمد: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملت به.

وقال سفيان الثوري: ما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط إلا عملت به ولو مرة واحدة.

وقال عمرو بن قيس: إذا سمعت بالخير فاعمل به، ولو مرة واحدة.

وعن وكيع والشعبي وإسماعيل بن إبراهيم بن مجمع أنهم قالوا: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به.

فإذا وطن طالب العلم نفسه على العمل بما يتعلمه من العلم، ولو مرة واحدة، كان ذلك تدريباً له وتعويداً على العمل، والنفس إذا عوِّدت على أمر تعودت عليه وسهل عليها، فتتعود نفسه على العمل، ويترقى بذلك في مراقي العبودية، ولا يزال العبد يزداد بذلك من التوفيق والفضل العظيم، ويجد من البركة في حياته وأعماله ما هو من ثمرات امتثاله واحتسابه في العمل بما تعلم، نسأل الله من فضله.

وقد قال مالك بن دينار رحمه الله: (ما من أعمال البر شيء، إلا ودونه عقيبة، فإن صبر صاحبها، أفضت به إلى رَوح، وإن جزع رجع).

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن الزيغ بعد الرشاد، ومن الحور بعد الكور.

ومن أعظم ما يعين على العمل بالعلم أن يربي الإنسان نفسه على اليقين والصبر ولذلك تجد الإنسان لا يعصي الله تعالى إلا حين يضعف يقينه ويضعف صبره.

ألا ترى أن من كان على يقين بوجود سم في طعام مقدم له لا يتناوله مهما مدح له ذلك الطعام.

فإن اليقين يبصرك بعظيم العقاب على المعاصي الذي لا يقدم عليه صاحب لب، وعظيم الثواب على الطاعات الذي لا يفرط فيه إلا مغبون

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المنافقين في شأن صلاتي الفجر والعشاء: (ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً).

فكان ضعف العلم اليقيني بالثواب سبباً في زهدهم فيه.

وكذلك الصبر يعين على امتثال الأمر وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

الدرس الثاني: شرح المسائل الأربع (٢/٢)

عناصر الدرس:

١: شرح المسألة الثالثة وهي الدعوة.

- بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى.
- شروط الدعوة.
- آداب الدعوة.
- مراتب الدعوة.
- أنواع الدعوة.
- وسائل الدعوة.
- حكم الدعوة.
- مقاصد الدعوة.

٢: شرح المسألة الرابعة وهي الصبر.

- بيان معنى الصبر.
- فضل الصبر.
- أنواع الصبر.
- حُكْم الصبر.
- حاجة الداعية إلى الصبر.

٣: تفسير سورة العصر.

- بيان معنى العصر.
- بيان معنى الخسر.
- بيان أسباب النجاة من الخسران.
- بيان معنى الإيمان.
- بيان معنى الأعمال الصالحة.
- بيان معنى التواصي بالحق.

- بيان معنى التواصي بالصبر.
- بيان أقسام الناس في الإتيان بهذه الأسباب.
- بيان مقاصد سورة العصر.

٤: شرح قول الإمام الشافعي.

- ترجمة الإمام الشافعي.

٥: شرح قول الإمام البخاري.

- ترجمة الإمام البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

أما بعد:

فهذا هو الدرس الثاني من دروس شرح ثلاثة الأصول وأدلتها ألقيه يوم الإثنين الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأبدؤه بشرح المسألة الثالثة: وهي الدعوة.

قال رحمه الله: **(الثالثة: الدعوة إليه).**

مرجع الضمير إلى العلم الذي عمل به.

أي إن مما يجب على العبد إذا علم وعمل أن يدعو إلى الهدى ودين الحق.

فضائل الدعوة إلى الله تعالى:

- والدعوة إلى الله هي مهمة الرسل والأنبياء، والدعاة إلى الله تعالى على بصيرة هم وارثون للأنبياء متبعون لسبيلهم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾،

• وقد حث الله المؤمنين أن تنتدب منهم طائفة للدعوة إلى الخير فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أسباب الفلاح، والفلاح يطلق في اللغة في الأصل على البقاء ومنه قول الشاعر:

لكل همٍّ من الهموم سعة ... والمسي والإصباح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه.

ثم كثر إطلاق هذا اللفظ على معنيين مشهورين:

المعنى الأول: الفوز بالمطلوب.

والمعنى الثاني: النجاة من المرهوب.

وهذه المعاني الثلاثة تجتمع في حق المؤمنين المتبعين لهدى الله عز وجل فإنهم ينالون مطلوبهم من فضل الله ورحمته وعظيم ثوابه، وينجون مما يخافون من عذاب الله وأليم عقابه، وهم باقون في النعيم المقيم الذي لا ينفد.

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فجعل الله قول الداعي إليه أحسن القول.

• وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي يوم خيبر:

«انْفُذْ على رِسْلِكَ، حتى تنزلَ بساحتِهِم، ثُمّ ادْعُهم إلى الإسلامِ، وَأخبرهم بما يجبُ عليهم مِن حق الله عز وجل فيهم، فواللهِ لأن يهديَ الله بكَ رجلا واحدا خير لكَ من حُمْرِ النّعَم». متفق عليه.

وحمر النعم هي الإبل الحُمْر، وهي كرام الإبل عند العرب، وأنفسها وأغلاها ثمناً، وسميت حُمْراً على عادة العرب في التوسع في التسميات وإلا فهي ليست حمراء اللون خالصةً، وإنما تقاربه.

كما يقولون الإبل الصفر للتي يميل لونها إلى السواد.

والمقصود أن اهتداء رجل واحد على يديه خير له من هذه الإبل الكرام النفيسة، وهذا يفيد الداعي أن يجعل همته لما هو خير له عند ربه وأنفع، وأن يقدم الثواب الباقي على العاجل ولو أمكن أن يحصل هذا الثواب العاجل بطريقة قد يتأول فيه من لا يفقه الدعوة على النهج الصحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يتريث ولا يستعجل مبادرتهم بالقتال بل يدعوهم رجاء أن يهديهم الله، فإذا أجابوا فقد عصموا دماءهم وأموالهم ودخلوا في دين الله وحرم على المسلمين قتالهم وأخذ غنائمهم، وإذا كانت الهمة للدعوة لا لأخذ الغنيمة والتشفي بقتال العدو كان القصد صالحاً، وكان القائم على هذه الدعوة متسماً بالفقه الصحيح، فإن أبى أولئك المدعوون إلا القتال جاز قتالهم وكان المؤمنون موعودين بالنصر عليهم.

فإن خالفوا الهدي واستعجلوا القتال كان ذلك سبباً قد تحصل به الهزيمة فإن من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

- وعن أَبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَلّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ» رواه مسلم.
- وهذا يدلك على عظيم ثواب الدعوة، فرب كلمة يقولها المرء لا يلقي لها بالاً ينتفع بها غيره فيمتثلها وتخرجه من الظلمات إلى النور فيكون للداعي بها مثل أجر من دعاهم وأرشدهم.
- بل لو بلغ هذا المنتفع بدعوته غيره لكان للداعي الأول مثل أجره، وهكذا ما تسلسل به الأمر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.
- ولهذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم مثل أجر جميع من يعمل صالحاً من أمته لأنه هو الذي دلهم على هذه الأعمال الصالحة.
- وكذلك رواة الأحاديث الصحيحة التي بلغونا إياها ورووها لنا يكون لهم مثل أجور من دعوهم إلى الهدى.

• فانظروا إلى عظيم فضل الله لمن جعل نيته لله، وقصد ثواب الله، وابتغى وجه الله.

• وانظروا ماذا خسر من أراد بدعوته الرياء والسمعة ولم يرد إلا الحياة الدنيا.نعوذ بالله من الخذلان.

• وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أنّ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أجُورِ مَنْ تَبِعَه لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أجُورِهِمْ شَيئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثَام مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئاً» رواه مسلم.

• وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يقول: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنّا شَيْئاً، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ». رواه الترمذي.

• قال أبو سليمان الخطابي: (قوله: «نضر الله» معناه الدعاء له بالنضارة وهي النّعمة والبهجة).

- ولذلك تجد الدعاة إلى الله من أشرح الناس صدراً، وأنضرهم، وأبهجهم، فإنهم وإن ابتلوا ببعض ما يبتلي الله به عباده إلا أن قلوبهم في نعيم بمعرفة الله عز وجل والأنس به والاشتياق لرؤيته ونيل رضوانه الذي كتبه لأهل محبته وذكره، وهم في حياة طيبة، قلوبهم مطمئنة بذكر الله، تغمرهم السكينة، ويجدون في قلوبهم حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، وعزة الطاعة، فهم من أحسن الناس حياة على الحقيقة.

• حتى إنه ليقولُ قائلهم: (مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ محبةَ الله تعالى ومعرفَتَه وذكرَه)

• والداعي الذي يدركُ هذه الفضائل أحسنَ إدراك إنما هو الذي يقوم بما تقتضيه من الشروط والواجبات والآداب، وهي أمور يسيرة لمن يسرها الله تعالى له.

شروط الدعوة:

• فمن شروط الدعوة أن يكون الداعي على بصيرة فيما يدعو إليه، وعلى بصيرة بصحة طريقة الدعوة، وعلى بصيرة بحال المدعو فيدعوه بما يناسب حاله، فيأتسي بهدي النبي صل الله عليه وسلم في ذلك، ولا يحدث الناس بما لا تقبله أفهامهم من دقيق العلم، قال علي بن أبي طالب: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله).

• وعلى الداعي أن يراعي المصلحة الشرعية في الدعوة إلى الله؛ فإذا خشي السآمة على المدعوين أمسك حتى لا يُمِلّهم، وإذا ترتب على إنكار المنكر مفسدة أعظم فإن الحكمة تقتضي عدم الإنكار.

وهذا باب يتعلمه طالب العلم بتوسع فيما بعد في فقه الدعوة لكنني أحببت أن ألخص لكم أهم المسائل التي يذكرها أهل العلم في هذا الباب؛ لأن طلاب العلم عموماً وطلاب علم العقيدة على وجه الخصوص يحتاجون كثيراً إلى فقه مسائل الدعوة إلى الله.

آداب الدعوة:

• من آداب الداعية في نفسه: أن يكون ممتثلاً ما يدعو إليه، ملتزماً تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، متحلياً بمكارم الأخلاق مجتنباً مساوءها، فإن وقع في شيء من المعاصي والتقصير بادر إلى التوبة والاستغفار وإتباع السيئة الحسنة فإنها تمحوها.

فالداعية ليس بمعصوم بل قد يقع في الذنوب والمعاصي، لكن يجب عليه أن يتوب إلى الله إذا وقع في شيء من تلك المعاصي حتى لو كانت كبيرة من الكبائر، فالتوبة تجب ما قبلها، والله تعالى يفرح بتوبة عبده، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

فلا يمنعه وقوعه في الذنب من مواصلة الدعوة.

• وقد أنشد بعض الصالحين:

لو لم يعظ في الناس من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

• قيل للحسن البصري: إن فلاناً لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن: (وأينا يفعل ما يقول؟!!

ودَّ الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر).

• وقال مالك عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر، قال مالك: وصدق! ومن ذا الذي ليس فيه شيء؟!

• قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

(فَكُلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف.

وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها.

والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه).ا.هـ.

وهو كلام صحيح مسدد، لأن الذي يتركُ المعروف ولا يأمر به عند وجوب الأمر به يكون قد ارتكب معصيتين.

وكذلك الذي يفعل المنكر ولا ينكره قد وقع في معصيتين؛ معصية فعل المنكر، ومعصية ترك الإنكار.

لكنه إذا قام بالدعوة والإنكار كان ذلك سبباً معيناً له على امتثال ما يأمر به من المعروف واجتناب ما ينهى عنه من المنكر، ولا سيما إذا تضرع لله تعالى أن ينجيه مما وقع فيه من المخالفة، وبذل أسباب الإقلاع عن الذنب، وأكثر من الاستغفار، فإنه يرجى له أن يوفق للتوبة النصوح.

فالتقصير في العمل لا يبرر التقصير في الدعوة، وليس ذلك لأحد بعذر في ترك الدعوة إذا علم وجوبها عليه.

- ومن آداب الداعية في دعوته: أن يبدأ بالأهم، وأن يحدث الناس بما يناسب أفهامهم، ويستعملَ الحكمة في جميع أموره فيلين في موضع اللين، ويغلظ حين يحسن أن يغلظ،

وإذا وعظ أحسن الموعظة واقتصد فيها فلا يكثر فيملهم، ولا يجفو فيطول عليهم الأمد فتقسو قلوبهم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا الموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا) متفق عليه.

والدعوة لها مراتب بعضها مقدم على بعض؛ فمن كانت تجدي معه الموعظة الحسنة لا يحسن أن يجادَل، لأنه مستجيب منقاد للحق ليس لديه شبهة تمنعه من الانقياد له فهذا يذكَّر فتنفعُه الذكرى إن شاء الله كما قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

- وأما من كانت لديه شبهة تصده عن الحق فهذا ينتقل معه إلى مرتبة المجادلة بالتي هي أحسن.
- وأما الظالمون المعتدون الذين لا يليق بهم إلا الغلظة والشدة فيغلظ عليهم.

وكذلك بعض من يرتكب المنكرات ويجاهر بها ولا يستجيب للنصح الرفيق فمثل هذا يغلظ عليه إذا كان لأهل الحق ولاية عليهم، لأن ذلك من حسن السياسة الشرعية، ولأن الإغلاظ في موضعه من وسائل التربية الصحيحة إذا قام به من هو أهل لذلك.

والمقصود أن الدعوة لها مراتب لكل حال مرتبة تناسبها كما تدل على ذلك أدلة الشريعة.
ولا يقتضي أن تكون على التدرج مطلقاً، بل قد يقدم تلك المراتب على بعض لمصلحة شرعية تقتضيه، ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» فبدأ بالإنكار باليد وذلك حين يكون للإنسان ولاية أو وجاهة تخوله الإنكار باليد ولم يخش فتنة أكبر.

وهذا الإنكار يختلف حاله، فأحياناً يناسب أن يكون باللين والرفق، وأحياناً يناسب أن يكون بالغلظة والشدة بحسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية، وإن كان الغالب أن الرفق مقدم على الشدة، وهذا أصل مهم في الدعوة، أن الرفق مقدم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه». رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمرجع في هذا هو اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم فإنه أحياناً يحسن بالداعية أن يغلظ في الخطاب ليبين للمدعو شناعة ما أقدم عليه، كما أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على عمر في قصة صحيفة أهل الكتاب، وكما أنكر على أسامة بن زيد في شفاعته في حد من حدود الله، وكما أنكر عليه أيضاً قتله من قال لا إله إلا الله في المعركة حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم إلا ذلك اليوم.

وعامة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الغلظة في الإنكار تجده لبيان مراعاة حد من حدود الله، وحرمة من حرماته ليزجر المدعو عن ذلك ويبين له عظم شان تلك القضية.

وغالب ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم هو استعمال الرفق واللين ولذلك فهو الأصل إلا حين تقتضي المصلحة الشرعية الغلظة والشدة، وهذا كما يجده الإنسان في تعامله مع أولاده ومن تحت يده من الصبيان ونحوهم فيجد أن بعض الأمور يناسب فيها الرفق واللين، وبعض الأمور تقتضي الشدة والغلظة وعدم التهاون والتلطف معهم فيها ليميز أولئك الصبية أن بعض الأمور من الخطر عليهم اقترابها، وليتربوا على مراعاة الحدود والحرمات.

لكن مما ينبغي التنبه له أن هذا الإغلاظ متضمن لمعنى الرحمة لأن سببه والداعي له نصحُ المنكر عليه وزجرُه عما يضرُّه في دينه، ولذلك لا يجوز أن يفضيَ به الإغلاظُ إلى السب والشتم وقولِ ما لا يجوز قوله، ولا يجوز له أن يكون قصده الإضرار بالمنكر عليه.

إلا في الإغلاظ للكفار والمنافقين كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهؤلاء إنما شرع الإغلاظ في حقهم لبغيهم طغيانهم ومشاقتهم لله ولرسوله، وإلا لو أنهم استجابوا لله ورسول لما جاز الإغلاظ عليهم كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ❖ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ❖ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

وما أحسن ما قاله بعض أهل العلم:

ولـو أن فرعـون لمـا طـغى وقـال علـى الله إفكـاً وزورا

أنـاب إلى الله مستغفـراً لمـا وجـدَ اللهَ إلا غـفـورا

هذا خلاصة ما يتعلق بأحوال جواز الإغلاظ وهو مبني في أصله على الرحمة كما تقدم، وله تفصيل تدرسونه فيما بعد في فقه الدعوة إن شاء الله تعالى.

أنواع الدعوة:

• والدعوة لها أنواع منها: دعوة الكافر إلى الإسلام، ودعوة المسلم إلى مزيد من الهداية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم الشرعي، والنصيحة لكل مسلم، كل ذلك من أنواع الدعوة إلى الله تعالى.

وسائل الدعوة:

• وينبغي للداعية أن يعتني بما ييسره الله له من وسائل الدعوة وهي كثيرة متنوعة ولله الحمد، وأوّل ذلك أن يتمثل الداعية ما يدعو إليه فيكونَ إماماً يؤتم به ويقتدى به في الخير، ومن أكثر ما يؤثر في المتعلمين قيام المعلمين بما يقتضيه العلم، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس عملاً وخير الناس دعوة كما كان أحسنهم علماً.

• ومن وسائل الدعوة: إلقاء الخطب والدروس والمواعظ وكتابة المقالات والرسائل وتأليف الكتب النافعة واستخدام تقنيات العصر في الدعوة إلى الله كالإذاعات والفضائيات ومواقع الانترنت وغيرها.

• وفي هذا المجال من أبواب الخير العظيم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فليحرص المؤمن أن يأخذ منه بنصيب وافر.

ووسائل الدعوة كثيرة ومتيسرة ولله الحمد؛ فمن فتح له في وسيلة من الوسائل فليعتنِ بها لعلها تكون له سبباً موصلاً إلى رضوان الله تعالى وجنات النعيم.

وكم من عمل اجتهد المرء فيه فأتقنه ورعى أمانته وقام به حق القيام فكان سبباً في فوزه برضوان الله عز وجل ودخول جنته.

وفي الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من الدلائل بالإخبار عن بعض من كتب الله له دخول الجنة بسبب عَمَلٍ عَمِلَه ما يدلك على أهمية العناية بهذا الأمر.

- وإنّ أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ.

حكم الدعوة:

وأما حكم الدعوة إلى الله تعالى فهو فرض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

هذا الحكم من حيث الأصل، **وقد تتعين في أحوال:**

- فمن رأى منكراً وجب عليه تغييره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه.
- ومن سئل عن علم وجب عليه بيانه وحرم عليه كتمانه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه أبو داوود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- ومن استنصحه أخوه المسلم وجبت عليه نصيحته.
- وكذلك إذا دعت الحاجة إلى البيان لم يجز تأخيره.

فهذه مواضع تجب فيها الدعوة.

وما هو القدر الذي إذا أداه العبد يكون داعياً إلى الله؟

- **الجواب:** إذا قام بالقدر الواجب من الدعوة فهو من الدعاة إلى الله؛ وكلما ازداد تقرباً إلى الله تعالى بالدعوة إليه زاد نصيبه من فضل الله والزلفى لديه.
- ومن وقع في شيء من التقصير فيما وجب عليه من الدعوة فتاب وأناب وأتبع السيئة الحسنة فهو من الدعاة إلى الله.

وينبغي للطالب أن يعتني بفقه مقاصد الدعوة، وقد **لخصها بعض أهل العلم في ثلاثة مقاصد:**

المقصد الأول: إقامة حجة الله تعالى على خلقه كما قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

المقصد الثاني: براءة ذمة الداعية والإعذار إلى الله بامتثاله أمر الدعوة وقيامه بما وجب عليه كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. فقدموا المقصد الأول وهو الإعذار إلى الله تعالى، وبراءة ذمتهم.

المقصد الثالث: رجاء أن ينتفع المدعو بالدعوة فيستجيبَ لما ينجيه من العذاب ويوفق بسببه لنيل الثواب كما دل عليه قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولعل حرف ترجي، والتقوى تكون بامتثال الأمر واجتناب ما نهي عنه.

وفقه مقاصدة الدعوة يفيد في الحكم على وسائل الدعوة المعاصرة فما كان منها يحقق هذه المقاصد فهو من الوسائل المشروعة.

وكل وسيلة تتضمن محذوراً في نفسها أو يترتب عليها مفسدة أعظم فإنها لا تحقق مقاصد الدعوة.

❑ شرح المسألة الرابعة وهي الصبر

معنى الصبر:

معنى الصبر معلوم مستقر في النفوس، وقد تنوعت عبارات العلماء في التعبير عنه، ومن أجود هذه العبارات فيما أحسب:

- قال أبو عبيد: أصل الصّبر الحَبْس وكل من حَبَسَ شيئا فقد صبره.
- قال أبو حيان: الصبر حبس النفس على المكروه.
- قال ابن تيمية: الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل: الصبر حبس النفس عن الجزع.
- قال ابن القيم: الصبر هو حبس النفس عن محارم الله، وحبسها على فرائضه، وحبسها عن التسخط والشكاية لأقداره.
- قال ابن حجر: أحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج.

وهذه العبارات تفيدك بمجموعها معرفة معنى الصبر.

منزلة الصبر:

والصبر له فضائل عظيمة وقد ذكرالله الصبر في القرآن في مواضع كثيرة، قال الإمام أحمد رحمه الله: (ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا).

وقد أحسن ابن القيم رحمه الله في كتابه "عدة الصابرين" في ذكر هذه المواضع وتصنيفها تصنيفاً حسناً فليراجعه من أراد الاستزادة.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وبين أن الصبر واليقين سبب لنيل الإمامة في الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والصبر ضياء» رواه مسلم.

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله» رواه وكيع في الزهد موقوفاً بإسناد صحيح، وروي مرفوعاً بإسناد ضعيف. وروى عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (خمسٌ احفظوهن، لو ركبتم الإبل لأنضيتموهن قبل أن تدركوهن: لا يخاف العبد إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحيي جاهل أن يسأل، ولا يستحي عالم إن لم يعلم أن يقول الله أعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد، و لا إيمان لمن لا صبر له).

أنواع الصبر:

والصبر له أنواع ثلاثة:

١: الصبر على طاعة الله.

٢: الصبر عن معصية الله.

٣: الصبر على المصائب المقدرة

والمسلم مطالب بهذه الثلاث كلِّها،

- فمثال الصبر على طاعة الله قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

- وأما الصبر عن المعصية، فكل من أمسك عن معصية فقد صبر عنها، وقد **ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين عشرة أسباب تعين على الصبر عن المعصية**

(ألخصها لكم في كلمات ومن أراد الاستزادة فليراجعها وحبذا لو نقله أحدكم لينتفع به):

١ : العلم بقبح الذنب وأنه شر في نفسه.

٢ : الحياء من الله.

٣ : قصد المحافظة على نعم الله ، فإن المعاصي تزيل النعم.

٤ : خوف الله تعالى وخشية عقابه.

٥ : محبة الله تعالى فإن المحب الصادق لا يعصي من أحب.

٦ : المحافظة على شرف النفس وزكائها وطهارتها لأن المعصية تدنسها.

٧ : قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨ : قصر الأمل واليقين بسرعة انقضاء الحياة.

٩ : مجانبة الفضول في الطعام والشراب والنوم والمخالطة وغيرها وترك ما لا يعني المرء.

١٠ : قال: (هو الجامع لهذه الأسباب كلها ثبات شجرة الإيمان في القلب فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقته لفاعله وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم).

ومثال الصبر على المصائب المقدرة قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ❖ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ❖ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقد اجتمعت أنواع الصبر كلها في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ **فحكم الله تعالى إما كوني وإما شرعي**.

فالحكم الكوني هو القضاء والقدر، والصبر عليه يراد به الصبر على المصائب المقدرة.
والحكم الشرعي هو الأمر والنهي: فامتثال الأمر هو فعل الطاعات، واجتناب النهي هو ترك المعاصي.

والصبر عن المعاصي أفضل من الصبر على المصائب، لأن المعاصي تكون باختيار العبد، والمصائب لا اختيار له فيها.

حكم الصبر:

ومعرفة أنواع الصبر تفيد في بيان حكمه، فإن معرفة حكم الصبر، وما يلحق العبد من الإثم بتركه وما لا يأثم فيه مبني على معرفة أنواع الصبر.

١: فالصبر على الطاعات الواجبة واجب، كالصبر على أداء الصلاة المفروضة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، وأما الصبر على الطاعات المستحبة فهو مستحب، يثاب عليه فاعله، ولا يأثم تاركه.

٢: والصبر عن فعل المعاصي واجب، ويتأكد وجوبه في الصبر عن إتيان الكبائر، وأما الصبر عن المكروهات فهو مستحب، يثاب عليه فاعله، ولا يأثم تاركه.

٣: وأما الصبر على المصائب المقدرة فهو واجب بحيث لا يجزع ولا يتسخط على الله، وأما الرضا بالمصيبة فهو مستحب على الصحيح، ولا يناله إلا أصحاب البصائر وأولوا الألباب لأنهم يدركون أن ما يقضيه الله تعالى للمؤمن خير له وأحسن عاقبة إذا اتقى الله واتبع رضوانه.

وحزن القلب ودمع العين والتأذي الطبيعي من المصيبة ليس من الجزع إذا كان القلب مؤمناً بقضاء الله مسلماً لأمره.

والقدر الواجب الذي ذكرته لكم من هذه الأمور متفق عليه بين أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه).

وقال ابن القيم رحمه الله : (**الصبر الواجب ثلاثة أنواع:**

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله).

هذا تلخيص هذه المسألة ، ولها تفاصيل تدرسونها في مراحل لاحقة إن شاء الله تعالى.

حاجة الداعية إلى الصبر:

- ومن سنن الله تعالى أنه يجعل للدعاة إليه أعداءً من المجرمين يبتلي بهم صدق أوليائه ويقينهم قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

فتكفل الله لهم بالهداية والنصر ، وهذا يفيدك ببيان ما يحتاجه من يبتلى بعداوة المجرمين فهو يحتاج إلى الهداية التي يرشد بها ويوفق بها لسلوك سبيل النجاة ، ويحتاج إلى من ينصره على من ناصبه العداء واجتهد في الإضرار به ، فتكفل الله له بهذين الأمرين العظيمين ، ولم يوكل ذلك إلى أحد من خلقه بل تولاه بنفسه جل وعلا فقال : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ فإذا أيقن الداعي إلى الله بهذه الحقيقة الإيمانية لم يخش إلا الله ، وكان وثوقه بهداية الله ونصره وتصديقه بوعده سبباً في طمأنينة قلبه ورباطة جأشه وثباته على الحق والهدى.

وتأمل تقديم الله تعالى للهداية على النصر فهو ترتيب أولوية فإن من عميت عليه سبيل الهداية كان احتياجه إلى الهداية أولى من احتياجه للنصرة المترتبة عليها.

فيجب على الداعية أن يصبر على ما يدعو إليه من الحق وأن يصبر على ما يصيبه منه المشقة والأذى، وقد وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، ووعده حق لا يتخلف

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.

❑ ثم ذكر المؤلف الدليل على هذه المسائل الأربع وهو قول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ❖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وهذه السورة تدل على هذه المسائل الأربع، فالإيمان لا يكون إلا بعلم، إذ لا يتصور أن يؤمن الإنسان بشيء لا يعرفه.

❑ وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ نص على مسألة العمل بالعلم، والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، وصواباً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

والتواصي بالحق هو الدعوة إلى الله تعالى، وهي المسألة الثالثة.

والتواصي بالصبر نص في المسألة الرابعة.

فتضمنت هذه السورة الدلالة على وجوب هذه المسائل الأربع، لأن كون هذه المسائل سبباً للنجاة من الخسارة فيه دلالة على وجوبها، لأن من لم يأت بها فهو خاسر.

وقد سبق الحديث عن هذه المسائل بشيء من التفصيل المقتضب.

❑ قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ الواو للقسم، **والعصر فيه أقوال أشهرها قولان:**

الأول: أنه الدهر، وهذا القول ذكره البخاري في صحيحه عن الفراء، وهو قول أكثر المفسرين ورجحه ابن القيم.

والقول الثاني: أنه وقت العصر من اليوم، وهو مروي عن ابن عباس وقال به الحسن البصري وقتادة.

واختار ابن جرير أن الآية تشمل القولين لأن لفظ العصر يطلق على المعنيين إطلاقاً صحيحاً ولا دلالة على التخصيص.

والقول الأول له مناسبة وهو أن الدهر فيه الأعاجيب والعبر، والقول الثاني له مناسبة أيضاً وهي أن العصر هو علامة بينة على انحسار النهار وقرب انقضائه فمناسبته لحال القسم ظاهرة.

والله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله عز وجل لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو فليصمت» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسم، والإنسان اسم جنس فيعم جميع الناس إلا من استثنى الله منهم في هذه السورة، والاستثناء دليل على إرادة الجنس، فالألف واللام لاستغراق الجنس أي إن كل إنسان لفي خسر إلا من استثناهم الله.

﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ اللام موطئة لجواب القسم، والتنكير هنا للتهويل والتفخيم، أي في خسارة عظيمة، وتأملوا هذا التعبير ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، كأنه منغمس في الخسران، محيط به من جميع جوانبه.

والخسر هو الخسران ويعني: الهلاك والنقصان.

وأعظم الخسران خسران الإنسان نفسه وأهله يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ❖ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ❖ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فتبين أن من لم يأت بالإيمان فهو خاسر، وأن من لم يؤمن بالله فهو ظالم لنفسه، وقد قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ❖ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ❖ وَمَا كَانَ لَهُمْ

مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ❖ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخلُ أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة».

فأيٌّ خسران أعظمَ من خسران الكافر مقعده من الجنة في النعيم المقيم الخالد، فهو في العذاب المقيم، وأهل الجنة في الحبور والسرور مع أهليهم في النعيم المقيم ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

إذا تبين ذلك فإن الإنسان لا ينجو من هذا الخسران إلا بهذه الأمور الأربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وهذه الأمور الأربعة مترتبة بعضها على بعض فالإيمان أساس العمل الصالح، فلا يصلح العمل إلا بالإيمان، والتواصي بالحق هو من الأعمال الصالحة، وخُص بالذكر لأهميته، والتواصي بالصبر هو أيضاً من هو من التواصي بالحق؛ لأن الصبر المأمور به إما واجب وإما مستحب، والتواصي تواصٍ بفعل الواجب أو فعل المستحب.

فصارت مرتبة الإيمان هي الأصل وينبني عليها العمل الصالح وينبي عليهما التواصي بالحق وينبي على ذلك كله التواصي بالصبر.

ولذلك جاء في الأثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

فمن قام بهذه الأمور فقد سلم من الخسران وفاز فوزاً عظيماً.

ومن لم يقم بها فقد خسر خسراناً عظيماً.

ومن قصر في شيء من هذه الواجبات بما لا يخرجه من الإسلام، بحيث يبقى معه أصل الإيمان وأصل العمل الصالح، مع ارتكابه من المعاصي والمحرمات ما يضعف الإيمان ويقدح

في قيامه بالأعمال الصالحة فإنه يناله من الخسارة بقدر ما فرط فيه إلا أن يعفو الله عنه.
فصار الناس في تحقيق هذه الأمور الأربعة على **ثلاثة أقسام**:

القسم الأول: هم الذين لا يأتون بها كلها، أو لا يأتون بأصلها وهو الإيمان، لأن ما بني على غير إيمان فهو غير مقبول، وهؤلاء هم الخاسرون الخسارة العظيمة، وهم الكفار الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات، ويلتحق بهم كلٌ من أحبط عمله وخرج من الإيمان بارتكابه ناقضاً من نواقض الإسلام والعياذ بالله، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وتوجيه الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن أمر الشرك لا يعفى عنه أبداً مهما بلغ صلاح العبد وكثرة عمله، إذا وقع في الشرك الأكبر حبط عمله وكان من الخاسرين، والعياذ بالله، فهذا الخطاب يقتلع جذور العجب والاغترار من القلب.
فإذا كان أحبُّ الناس إلى الله وأقربهم منه منزلة لا يعفى عنه في أمر الشرك بالله فغيره أولى، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الشرك، ولكنّ هذا الأسلوب يفيد التأكيد الشديد على أنه لا يعفى عمن صدر منه الشرك مهما كان قدره ومنزلته وسابقة عمله، وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وحاشاها رضي الله عنها من السرقة.
والمقصود أن من لم يؤمن بالله فهو من الخاسرين.
وكذلك الذي تخف موازينهم من الأعمال الصالحة وعلى رأسها التوحيد فإنهم من الخاسرين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.
أما من كان معه حسنة التوحيد فإن موازينه لا تخف كما تخف موازين الكفار.

والقسم الثاني: الذين يأتون بهذه الأمور الأربعة كما أوجب الله فهؤلاء هم المفلحون الناجون من الخسارة الفائزون بالثواب العظيم، ويزيد الله من فضله من يشاء.
فإن المؤمنين يتفاضلون تفاضلاً عظيماً في الإتيان بهذه المسائل.

والقسم الثالث: من كان معه أصل الإيمان وأصل العمل الصالح لكنه يرتكب من المحرمات ويترك من الواجبات ما يستحق به العذاب، فهذا القسم يناله من الخسارة بقدر ما فرط فيه إلا أن يعفو الله عنه.

فهذا بيان أقسام الناس في الإتيان بهذه الأمور الأربعة.

❑ قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ التواصي هو أن يوصي بعضهم بعضاً، وهذا كما يدل على وجوب الدعوة بإيصاء الآخرين بالحق، يدل على وجوب قبول الوصية بالحق إذا وجهت إليه.

لأن التواصي تفاعل بين اثنين، هذا يوصي أخاه وعلى أخيه قبول الوصية، وعلى أخيه أيضاً إذا أوصاه أخاه أن يقبل وصيته بالحق.

والحق هو امتثال ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتصديق خبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فمن قام بذلك فهو قائم بالحق.

والتواصي بالصبر يشمل التواصي بالصبر على فعل المأمور، والتواصي بالصبر على ترك المحظور، والتواصي بالصبر على المصائب المقدرة، فيصبر ويُصبِّر إخوانه المسلمين.
فهذه السورة تضمنت على وجازتها الدلالة على الدين كله لأن مبنى الدين على الأمر والنهي والخبر والقدر

ففعل الأوامر وترك النواهي وتصديق الأخبار والإيمان بالقضاء والقدر هو الحق الذي يجب التواصي به والصبر على أدائه.

وإذا تأملت هذه السورة تأملاً حسناً علمت ما يحبه الله من عباده المؤمنين؛ فهو يحب منهم الإيمان والقيام بالأعمال الصالحة وأن يتآلفوا ويتوادوا ويتواسوا ويحب بعضهم لبعض الخير، فيتواصون بالحق وفعل ما يحبه الله ليكون بعضهم سبباً في ثواب بعض، ويتواصون بترك ما حرم الله فيكون بعضهم سبباً في نجاة بعض، ويتواصون على الصبر فيكونون متواسين متآلفين متحابين.

ومن عرف ذلك حق المعرفة ؛ عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا رأيت من نفسك أنك تسر إذا رأيت من يطيعُ الله عز وجل وتبتهج لذلك، وتحزن إذا رأيت من يعصيه وتتمنى ألا يقع في المعصية ؛ فإن ذلك دليل على صحة إيمانك وسلامة قلبك.

وإن من أقبح ما يكون من الحسد أن يحسد المرء أخاه على قيامه بطاعة الله ويتمنى منه أن يقع في المعاصي ويحرمَ فضل الله عز وجل ؛ فإن هذا من إخوان الشياطين والعياذ بالله، بل يخشى عليه أن يبتلى بما تمناه لأخيه المسلم.

إذا قامت الأمة بهذه الأمور الأربعة (الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر) كانت كما يحب الله عز وجل أن تكون، وكان الله لهم كما وعدهم والله لا يخلف الميعاد.

شرح قول الإمام الشافعي رحمه الله

قوله : **(قَالَ الشّافِعِيُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى- : (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).**

الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع وإليه نسبة الشافعي وهو من بني المطلب بن عبد مناف فهو قُرَشِيٌّ مُطَّلِبِيٌّ.

قال تلميذه الربيع بن سليمان المرادي : (ولد الشافعي يوم مات أبو حنيفة رحمهما الله تعالى).

وكان ذلك سنة ١٥٠ هـ، وقد طلب العلم وهو صبي، حدث عنه تلميذه المزني أنه قال : (حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت " الموطأ " وأنا ابن عشر).

وكان يقول : جعلت لذتي في العلم.

وقال الحميدي: سمعت الشافعي يقول: كنت يتيما في حَجر أمي، ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخففُ عنه.

وقال: كنت أكتب في الأكتاف والعظام.

وحبب إليه طلب العلم والرمي حتى مهر فيهما.

وأجازه شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة.

والكلام في سيرته وماتضمنته من الدروس والأعاجيب والعبر يطول، وهو ذو شجون؛ فقد كان آية في الصبر على طلب العلم والتفقه في الدين، ولقد ابتلي بقلة الرزق فصبر، ومن شعره:

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجى حرم الغنى ... ضدان مفترقان أي تفرق
وأحق خلق بالله بالهم امرؤ ... ذو همة يبلى برزق ضيق
ولربما عرضت لنفسي فكرة ... فأود منها أنني لم أخلق
لكن من رزق اليسار ولم ينل ... أجراً ولا حمداً لغير موفق

وله أشعار حسنة، وأقوال جليلة متينة، ذكر النووي في مقدمة المجموع والذهبي في سير أعلام النبلاء طائفة حسنة من أقواله ينبغي لطالب العلم أن يتأملها، فإنها صادرة عن حكيم من حكماء الأمة، ولو جمع أحد أقواله ورقمها ورتبها وعزاها إلى مصادرها ونشرها لرجوت له في ذلك خيراً كثيراً.

من أقواله النيرة ما قاله في مقدمة كتابه الرسالة: (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدلالة على سبيل الهدى فيها).

وقال: (ضياع العالم أن يكون بلا إخوان، وضياع الجاهل قلة عقله، وأضيع منهما من واخى من لا عقل له).

وقال: (إذا خفت على عملك العُجب، فاذكر رضى من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب؛ فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله).

إلى غير ذلك من حكمه العجيبة.

- وكان وافر العقل حاد الذكاء سريع الحفظ جليل القدر صاحب فراسة وكياسة، وكان جميل الخلقة حتى قال المزني: لم أر أحسن وجهاً من الشافعي.
- توفي رحمه الله سنة ٢٠٤هـ.
- وقد عدَّه الإمام أحمدُ المجدِّدَ الثاني.

❑ قوله: **(قَالَ الشّافِعِيُّ - رَحِمَهُ الله تَعَالى- : (هَذِهِ السُّورَةُ لَو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هِيَ لَكَفَتْهُمْ).**

لا أعرف مصدر هذه العبارة بهذا النص في كتب الشافعي لكنها مشهورة عنه بألفاظ مقاربة؛ فقد قال النووي في المجموع عن الشافعي أنه قال: (الناس في غفلة عن هذه السورة ﴿وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم. وهو كما قال).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم).

وقالَ ابْنُ القَيِّم رحمه الله في مفتاح دار السعادة: (قولُه تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

قالَ الشافعيُّ – رَضِيَ اللهُ عنه: لو فَكَّرِ الناسُ كلُّهم في هذه السورةِ لكَفَتْهُم.

وبيانُ ذلك أنّ الْمَراتِبَ أربَعٌ، وباستكمالِها يَحْصُلُ للشخْصِ غايةُ كمالِه.

إحداها: معرفةُ الْحَقِّ.

الثانيةُ: عَمَلُه به.

الثالثةُ: تَعليمُه مَن لا يُحْسِنُه.

الرابعةُ: صَبْرُه على تَعَلُّمِه والعَمَلِ به وتعليمِه، فذَكَرَ – تعالى – الْمَراتِبَ الأرْبَعَ في هذه السورةِ).

وهذه السورة بينت للمسلم منهاج النجاة من الخسران، فمن أخذ بأسباب النجاة نجا، ومن تركها هلك وخسر، فهي حجة بينة كافية.

ولعظيم ما دلت عليه هذه السورة كان من فقه الصحابة رضي الله عنهم كثرةُ قرائتها في المجالس والتذكيرِ بها ففي معجم الطبراني وصحيح ابن حبان وشعب الإيمان للبيهقي من حديث حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: (كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ...﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر). وقد صححه الألباني رحمه الله.

شرح قول الإمام البخاري رحمه الله

قوله: **(وَقَالَ البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- : (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ، والدّليلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَولِ وَالعَمَلِ)**.

- البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن بردزبة وهي كلمة بخارية تعني الزّرّاع كما ذكر ذلك الذهبي في السير.
- ولد سنة ١٩٤هـ، وكان والده ورعاً حريصاً على الكسب الطيب، ومات ومحمد صغير فنشأ يتيماً.
- قال محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟

قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتّاب.

فقلت: كم كان سنك؟

فقال: عشر سنين، أو أقل.

ثم خرجت من الكُتّاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره؛ فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل. فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟

قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال ابن إحدى عشرة سنة.

قال: فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء – يعني أصحاب الرأي- قال: ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها! وتخلفت في طلب الحديث).

- قال البخاري: (كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي صلى الله عليه وسلم، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب)

يقصد صحيحه الذي هو أصح الكتب المصنفة.

- قال ابن أبي حاتم سألته: هل من دواء يشربه الرجل، فينتفع به للحفظ؟

فقال: لا أعلم، ثم أقبل علي، وقال: (لا أعلم شيئا أنفعَ للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر).

- وكان صاحب ورع عظيم روي عنه أنه قال: (ما اغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها).

- وكان صاحب صلاة وتلاوة وتدبر إذا أقبل على التلاوة والصلاة فكأنه ذاهل عن غيرها.

- قال بكر بن منير: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة.

فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش آذاني.

فلما كشفوا قميصه وجدوه قد أثر فيه جداً حتى ورم بعض جسده.

فقيل له: لِمَ لم تخرج من صلاتك أول ما أبرك، قال: كنت في سورة فأحببت أن أتمها.

- ولقد أوذي رحمه الله في آخر حياته وطرد من بلده بسبب كيد حساده، وجرت له محن، وصبر على بلاء كبير.

- قال عبد القدوس السمرقندي: جاء محمد إلى أقربائه بخرتنك، فسمعته يدعو ليلة إذ فرغ من ورده:

(اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك). فما تم الشهرُ حتى مات.

والكلام في سيرته وما فيها من الفوائد العلمية والتربوية يستدعي محاضرة بل محاضرات.

- وقد كان رحمه الله حريصاً على اتباع السنة.

- قال النجم بن الفضيل: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، كأنه يمشي، ومحمد بن إسماعيل يمشي خلفه، فكلما رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه، وضع محمد بن إسماعيل قدمه في المكان الذي رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه).

- وكان حريصاً على التثبت في العلم، قال رحمه الله: (إني ما أثبتُّ شيئا، بغير علم قط منذ عقلت).

- مات رحمه لله سنة ٢٥٦ هـ.

❒ قوله: **(العلم قبل القول والعمل)** هذا باب في كتاب العلم من صحيحه، وهذا الكلام نقله الشيخ بالمعنى وزاده توضيحاً ولعله كتبه من حفظه.

ونص عبارة البخاري رحمه الله: (باب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ؛ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ).

فاستدل له بقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فلما بدأ بالعلم قبل القول والعمل كان ذلك دليلاً على تقديم العلم، والاستغفار قول، وهو أيضاً عمل لأنه عمل صالح.

وتقديم العلم على العمل يدل عليه العقل أيضاً فإن العمل بلا علم عمل على غير هدى، وما كان على غير هدى فإنه لا يقبل، فكان تقديم العلم على العمل واجباً.

وتقرير هذا الأمر مهم في تفهيم الناس العقيدة الصحيحة، فإن بعض من يقع في الشرك في العبادة يعمل أعمالاً من الصلوات الصدقات والحج وغيرها فيرى أنه قد أدى ما عليه، ويستدل بقيامه بهذه الأعمال على أنه على الحق.

فأراد الشيخ أن يبين أن العلم بالهدى مقدم، وأن الأعمال إذا لم تكن مبينة على الهدى فإنها باطلة مهما بلغت كثرتها وظن صاحبها أنها تنفعه.

فإن من كان يقوم بهذه الأعمال ويشرك في عبادة الله فيذبح لغير الله ويدعو غير الله ويقدم النذور لغير الله فهو مشرك كافر بالله عز وجل خارج من دين الإسلام وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

فإنه لا ينفع مع الشرك عمل لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فلهذا أورد الشيخ رحمه الله قول البخاري.

الدرس الثالث: شرح المسائل الثلاث (٢/١)

عناصر الدرس:

١: شرح إجمالي للمسائل الثلاث

- بيان أن المسائل الثلاث ترجع إلى معنى الشهادتين ولوازمهما.
- بيان ما تضمنته المسألة الأولى من ترتيب حسن لتقرير الاحتجاج لوجوب التوحيد.
- الفرق بين العالم الرباني وعالم السوء.
- بيان حسن معرفة الشيخ رحمه الله بتقرير مسائل التوحيد، وإمامته في هذا الباب.
- أهمية معرفة مقاصد الأبواب

٢: شرح قوله: (اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل)

٣: شرح المسألة الأولى.

٤: شرح المسألة الثانية.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فهذا هو الدرس الثالث من دروس دورة شرح ثلاثة الأصول وأدلتها ألقيه يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر جمادى الأولى من السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله:

(اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ: أنَّهُ يَجبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعلُّمُ ثَلاثِ هذِهِ المَسَائِلِ والعَمَلُ بهِنَّ:

الأُولَى: أنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرزَقنَا وَلَمْ يَتْرُكنا هَمَلاً؛ بَلْ أرْسَلَ إلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ

والدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُم كمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٤- ١٥].

الثّانِيَةُ: أنّ اللهَ لاَ يَرْضَى أنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا نَبيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غَيرُهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].

الثّالِثَةُ: أنّ مَنْ أَطَاعَ الرّسُولَ وَوَحّدَ اللهَ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاَةُ مَنْ حَادّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى: ﴿لاَ تَجدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُمْ أَو أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]).

هذه المسائل الثلاث مهمة جداً في تأصيل فهم التوحيد، وهي مبنية على الشهادتين ولوازمهما.

فالمسألة الأولى: بعضها في تقرير توحيد الربوبية وبعضها في تقرير شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقوله: **(الأُولَى: أنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرزَقنَا وَلَمْ يَتْرُكنا هَمَلاً؛ بَلْ أرْسَلَ إلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)**.

فتضمنت هذه المسألةُ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن الله خلقنا ورزقنا، وهذا من أنواع توحيد الربوبية.

الأمر الثاني: أن الله لم يتركنا هملاً، وهذا لبيان حكمة الله تعالى وتقرير مبدأ الرسالة والبعث والجزاء.

الأمر الثالث: أن الله تعالى أرسل إلينا رسولاً من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وهذا هو مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فمن أقر بهذه الأمور الثلاثة لزمه الإقرار بوجوب التوحيد، ولذلك قدم رحمه الله هذه المسألة على المسألة الثانية.

وهذا يعرّفك بخبرة الشيخ رحمه الله وحسن معرفته بتقرير مسائل التوحيد، فبدأ بالأمور البينة السهلة المتفق عليها حتى مع من يخالف في بعض مسائل توحيد العبادة.

والبدء بالأمور المتفق عليها طريقة حسنة في الإقناع والإلزام بالحجة.

فالأمر الأول وهو أن الله خلقنا ورزقنا لا يخالف فيه إلا ملحد، والإيمان به مستقر في غالب النفوس وتقتضيه الفطرة الصحيحة.

والشيخ رحمه الله قد كتب هذه الرسالة لأناس يعلم أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، فبدأ بالأمر المتفق عليه.

والأمر الثاني: وهو أن الله لم يتركنا هملاً، وهذا لا يمكن لأحد رده وإنكاره، فلا يستطيع أحد أن يقول إن الله تركنا هملاً.

فبنى على هذين الأمرين **الأمر الثالث** وهو تقرير إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أمر لا ينكره مسلم، ومن أقر بالرسالة لزمه الإقرار بمقتضاها وهو أن من أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وهذه المقدمات التي رتب بعضها على بعض بعبارة وجيزه سهلة تتقبلها النفوس، وهي مدخل مهم للاحتجاج لوجوب التوحيد الذي ذكره في المسألة الثانية.

وذلك لأن أعظم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو إفراد الله تعالى بالعبادة.
فمن عصاه في أعظم ما أمر به فهو من أهل النار.
فمن ادعى أنه يطيعه في أداء بعض الواجبات والانتهاء عن بعض المحرمات، وهو يعصيه في أعظم الأمور وأهمها، وهو الأمر الذي جاهد الكفار لأجله وقاتل الناس عليه وبين أنه الفارقُ بين الإسلام والكفر، فهو عاص للرسول صلى الله عليه وسلم، وطاعته له في غير هذا الأمر لا تنفعه ما دام أنه لم يطعه في أهم الأمور وأصل الإسلام الذي من أجله بعثه.
ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾
ليبين للقارئ أن تلقي العقيدة يجب أن يكون مبنياً على الدليل وأنه لم يأت للمخاطب بكلام من تلقاء نفسه بل بينه له ما يدل عليه الدليل الصحيح، وهذا من سمات العالم الرباني.

والفرق بين العالم الرباني وعالم السوء أن: العالم الرباني يقول بما يدل عليه الدليل الصحيح ويقصد النصح للناس فيبين الحق لهم كما دل عليه الدليل ويعلمهم ما يحتاجون إليه من العلم.
وعالم السوء يفتي بهواه، ويَلبس الحق بالباطل، ويدلِّس على الناس، ويسكت عن بيان الحق عند وجوب بيانه.
فهو خطر وفتنة يجب الحذر منها.
وبعد أن قرر الشيخ هذه المسألة الأولى بأسلوب قريب من أفهام المخاطبين، وافٍ بأركان الحجة العلمية انتقل إلى تقرير المسألة الثانية وهي مسألة وجوب التوحيد الذي هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وتفطن إلى حسن تعبير الشيخ في تقريره هذه المسألة فقال رحمه الله: (**الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غَيرُهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]).

هذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فشهادة أن لا إله إلا الله تقتضي أن لا يعبد مع الله أحدٌ من خلقه مهما كان لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

فالعبادة حق الله وحده، هو المستحق وحده للعبادة.

❒ وقوله: **(إن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته)** هذا أمر لا يستطيع أن ينكره أحد، وأنتم تعلمون أن الشرك قد كثر في زمان الشيخ رحمه الله وانتشرت مظاهر الشرك من دعاء الصالحين وتقديم النذور للقبور والذبح لغير الله وغيرها من مظاهر الشرك الأكبر والعياذ بالله

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال منهم من يصلي ويصوم ويحج ويقرأ القرآن ويظن أنه مسلم.

وفي بعض البلدان اليوم من يفعل ذلك والعياذ بالله.

وإذا قلت لهم (إن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته) لا ينازعون في هذا الأمر، فعبر بالتعبير الأقرب إلى القبول، وهم إذا أقروا بهذا لزمهم وجوب التوحيد وتحريم الشرك والإقرارُ بأنه منافٍ للإسلام مناقض لمقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

وسيأتي شرح هذه المسائل بشيء من التفصيل، لكن أردنا في هذه المقدمة أن نبين لماذا اختار رحمه الله تقرير هذه المسائل بهذه الطريقة، وهذا يفيدك بأنه رحمه الله كتبها بعد تأمل وعن خبرة ودراية وحسن معرفة بالاستدلال لوجوب التوحيد وبيان واجباته. فإن الشيخ قد مكث سنوات طويلة وعمراً مديداً وهو يدعو إلى التوحيد ويناظر المجادلين فيه ويكشف الشبه ويقرر الحجج ويدعو العامة والعلماء والأمراء والأعيان وغيرهم ويعلِّم طلاب العلم مسائل التوحيد ويقررها لهم من وجوه كثيرة حتى يفهموها، فهو صاحب خبرة قيمة في هذا الباب، وقد حصل له مع المخالفين في مسائل توحيد العبادة مناظرات ومخاصمات وحروب وفتن ومحن استمرت سنوات طويلة، وأكثر من كان يجادله ويناظره

ويخاصم من وصفت لكم حالهم في تلخيص سيرة الشيخ رحمه الله من علماء السوء وأهل البغي والحسد.

وكان الشيخ رحمه الله يخشى على العامة من فتنتهم فكان يجتهد في توضيح مسائل التوحيد بأسلوب ميسر قريب من الفهم وينتقي العبارات بعناية بالغة وقد فتح له في هذا الباب فتحاً عظيماً ونفع الله به نفعاً كبيراً فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء.

وهذا يفيد طالب العلم أن يأخذ كل علم عن أهله الذي برعوا فيه وتبين حذقهم فيه وحسن معرفتهم وخبرتهم في تعليمه وبيان مسائله.

فيأخذ كل علم عن أهله، ولا بأس أن يستعين في أول أمره ببعض الشروح التي تقرب له فهم كلامهم ومنهجهم حتى يتضح له المنهج ثم يواصل طلبه للعلم وهو ماهر فيه بصير بسبيله.

⇦ ذكرت لكم المسألة الأولى والثانية، وكيف رتب الشيخ رحمه الله الاحتجاج للتوحيد فيها.

وأنهما مما تقتضيه الشهادتان شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد تقرير هاتين المسألتين وتسليم المتلقي بهما، وتيقنه بأنه يلزمه الإقرار بالشهادتين حتى يدخل في الإسلام، فيقر بأن من أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، وأن أهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم التوحيد، وأن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته؛ فمن وحد الله دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، انتقل إلى بيان المسألة الثالثة وهي قوله: **(الثَّالِثَةُ: أَنّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاَةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ)**

هذه المسألة هي من واجبات تحقيق الشهادتين، فمن أقر بالشهادتين إقراراً صحيحاً وعرف معناهما معرفة صحيحة لزمه أن يقرّ بالمسألة الثالثة، وهي البراءة من الشرك وأهله؛ فإن

من صدقت محبته لله ولرسوله لزمه أن يحب من يحبه الله ورسوله، ويبغض من يبغضه الله ورسوله، وسنأتي على بيان هذه المسألة إن شاء الله.

فعرفنا بذلك أن هذه المسائل الثلاث ترجع إلى معاني الشهادتين ولوازمهما فمن فقه معنى الشهادتين فقهاً صحيحاً عرف هذه المسائل الثلاث.

فهذا عرض موجز لبيان مقاصد هذه الرسالة، وسبب ترتيبها على هذا النحو.

وأنا أود أن أنبه إلى مسألة مهمة ومفيدة لطلاب العلم، وهي أن طالب العلم إذا أراد دراسة أي باب من أبواب العلم، فأوصيه قبل أن يدخل في تفاصيل عبارات المتن أن يتعرف على المقصد العام لهذا الباب، فإنْ فَهِمَهُ سهل عليه بعد ذلك فهم جُمَلِه وفق هذا المقصد العام.

وننتقل الآن إلى شرح كلامه رحمه الله..

❑ قوله: **(اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل)**

نصه على كل مسلم ومسلمة هو من باب التأكيد واسترعاء الانتباه وليعلم جميع المكلفين أنهم معنيون بهذا الواجب سواء في ذلك الذكر والأنثى.

وتنويع العبارات وعرض الحجج من أكثر من وجه مما ينبغي للداعية أن يعتني به، خصوصاً إذا كان يخاطب قوماً ألفوا المنكر واعتادوه حتى شبَّ عليه صغيرهم وهرم عليه كبيرهم وتشرَّبته قلوبهم، فتنويع الخطاب لهم وعرضه من أكثر من وجه أمر نافع، لأن بعض الشُّبَه قد تَعْلَق ببعض القلوب ويصعب تخلصها منها، فعرض الحق وتقريره بأكثر من طريقه يفيد المهتدي ومن في قلبه شبهة.

فالمهتدي يزداد يقيناً بالحق الذي معه، ومن في قلبه شبهة تفيده هذه الطريقة في كشف شبهته.

وتنويع الاحتجاج من الهدي القرآني والنبوي، ومن تدبر القرآن والسنة وجد لذلك أمثلة كثيرة ولا سيما في المسائل الكبار كمسألة التوحيد والبعث والجزاء والنبوة وأن القرآن حق وغيرها من المسائل الكبار تجد تقريرها في القرآن والسنة من وجوه كثيرة.

والمقصود أن توضيح المسائل المهمة بأكثرَ من طريقة مفيد لطالب العلم، بل ينبغي أن يعتني به، ولذلك تجد بعض العلماء إذا أجابوا عن بعض الشبه يجيبون عنها من وجوه كثيرة، فإن كثرة الأدلة وتنوعها تورث اليقين في النفس وتزيل ما يلقيه الشيطان من الشبه.

❐ قوله: **(اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل)**

الوجوب هنا هو الوجوب العيني لأن هذه المسائل الثلاث يجب على كل مكلف ذكر أو أنثى أن يعلَمها ويعمل بها لأنها أصل الدين.

فتعلم هذه المسائلِ واجبٌ لأنها من معنى الشهادتين وواجباتهما، ومن عرف معنى الشهادتين معرفة صحيحة فقد عرف هذه المسائل الثلاث، وإن لم يقرأ هذه الرسالة.

شرح المسألة الأولى وهي قوله: (الأُولَى: أَنّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنا وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُم كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٤- ١٥]).

اعتقاد أن الله خلقنا ورزقنا فرض واجب، وهو من توحيد الربوبية **فإن التوحيد على ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله تعالى بأفعاله من الخلق والملك والتدبير والرّزق وغيرها.

والقسم الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

والقسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

فاعتقاد أن الله هو الخالق الرازق هذا من واجبات توحيد الربوبية، من أنكر ذلك فهو كافر كفراً أكبر والعياذ بالله.

والأدلة على أن الله خلقنا كثيرة منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله في الرزق: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

وقد أشار الله تعالى إلى الدليل العقلي على تفرده بالخلق بطريقة السبر والتقسيم وهو من الأدلة العقلية الملزمة في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ❖ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أضواء البيان: (ومن أمثلة السبر والتقسيم في القرآن قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، فكأنه تعالى يقول: لا يخلو الأمر من واحدة من **ثلاث حالاتٍ** بالتقسيم الصحيح.

الأولى: أن يكونوا خُلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً.

الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكون خَلَقَهم خالقٌ غيرُ أنفسهم.

ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، وبطلانهما ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه.

والثالث: هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جل وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا) ا.هـ.

قال جبير بن مطعم رضي الله عنه: أتيت المدينة في فداء بدر (وفي رواية: فداء المشركين) قال: وهو يومئذ مشرك قال: (فدخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي

صلاة المغرب فقرأ فيها بـ [الطُّور] فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ❖ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ❖ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ كاد قلبي أن يطير)، وفي رواية: (فكأنما صُدِّعَ قلبي لقراءة القرآن) رواه أبو داوود الطيالسي وأحمدُ وأصله في الصحيحين وفيهما أنه قال: (وذلك أولَ ما وقر الإيمان في قلبي).

والله تعالى من أسمائه الخالق والخلاق، والتفكر في اسم الخالق جل وعلى إذا أحسنه العبد ملأ قلبه يقيناً وتعظيماً لله جل وعلا؛ فهو سبحانه الخالق العظيم، وخلقه من أعظم الأدلة على وجوده جل وعلا، وعلى عظمته وبديع حكمته، وسعة علمه وعظيم قدرته، وجلال ملكه وحسن تدبيره؛ فهو الذي خلق الخلائق كلها كبيرها وصغيرها على كثرتها وتنوعها ودقائق تفاصيل خلقها الذي تحار فيه الألباب، فتذعن لحكمة الرب الخلاق العليم الذي أنشأها من العدم على غير مثال سابق.

وهو بديع السموات والأرض الذي ابتدع خلقها العجيب، ولم يكتسب معرفة خلقها من أحد، وذلك لكمال علمه وقدرته وإحاطته.

وهو الذي خلق عوالم الأفلاكِ والملائكةِ والإنس والجن والحيوانات والنباتات والرياح والسحاب والمياه، وغيرها من العوالم الكثيرة والعجيبة، وفي كل عالَم من هذه العوالم أمم لا يحصيها إلا من خلقها.

وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات دقائق وعجائب في تفاصيل خلقه تبهر العقول، فتستدل بها على حكمة خالقها جل وعلا وسعة علمه، وعظيم قدرته، فتبارك الله رب العالمين.

فهو الرب الذي خلق كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يخلق كخلقه جل وعلا. ولقد تحدى المشركين أن يخلقوا هم وآلهتهم ذباباً فلم يستطيعوا، بل تحداهم أن يسترجعوا ما يأخذه منهم الذباب!.

وذلك غاية ما يكون من الضعف والذل.

فلم يستطيعوا أن يخلقوا شيئاً وذلك لضعف قوتهم.

ولم يستطيعوا أن يستنقذوا ما أخذه منهم الذباب على قلته وحقارته، وذلك لضعف عزتهم.

فكيف يدعون لما لا يخلق حقاً في العبادة؟!!

سبحان الله وتعالى عما يشركون.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فله تعالى القوة المطلقة، والعزة المطلقة، ومن آمن بذلك أيقن أنه لا يستحق أن يعبد إلا اللهُ عز وجل، وأن عبادة غيره ظلم عظيم، وضلال مبين.

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

فالذي لا يخلق شيئاً لا يستحق أن يكون إلهاً، بل الإله الحق هو ربنا الذي انفرد بالخلق، ولا يستطيع أحد أن يخلق كخلقه جل وعلا، فلذلك يجب إفراده بالعبادة. كما قال الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

والإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق لم يخالف فيه إلا الملاحدةُ الذين ينكرون وجود الله تعالى، والمجوسُ الذين يزعمون أن للكون خالقين النور والظلمة.

وكان مشركو العرب يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ومع ذلك لم يكونوا مسلمين لأنهم لم يخلصوا العبادة لله عز وجل ولم يطيعوا الرسول، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) ﴾.

فمن أقرّ بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ولم يخلص العبادة لله تعالى فهو مشرك كافر متوعّد بهذا العذاب الأليم.

❏ قوله: **(وَلَمْ يَتْرُكنا هَمَلاً...)** أي مهملين بلا أمر ولا نهي ولا غاية.

روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال: هملاً.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال: أن يُهمل.

وقال ابن جرير: (وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ يقول تعالى ذكره: أيظنّ هذا الإنسان الكافر بالله أن يترك هملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يُتَعَبّد بعبادة) والعرب تقول: إبلٌ هَمَل وَهَمْلَى إذا كانت مهملة مسيبة ليس لها راعٍ يرعاها.

وهذا كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

فالله تعالى يتنزّه ويتعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً ويتركهم هملاً، كيف يكون ذلك وهو الحكيم الخبير.

بل خلقنا لغاية عظيمة بينها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ❖ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ❖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

فالله تعالى خلقنا لعبادته، وكيف نعبده؟

بين لنا ذلك بإرسال الرسول الذي من أطاعه فقد عبد الله كما يحب الله، ومن عصاه فقد استحق العذاب لأنه لم يمتثل الأمر الذي خلق لأجله.

قال: [بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ]

(بل) إذا تقدمها نفي فهي لتقرير هذا النفي وتأكيده، ويكون ما بعدها بيان وتوجيه يعرف به صحة النفي السابق، [وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً] وهذا كما في قوله تعالى عن عيسى عليه السلام:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ❖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

فإثبات رفع عيسى عليه السلام بيان لصحة النفي السابق وهو أنه لم يقتل.
فرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم تؤكد صحة أننا لم نترك هملاً.

❑ قوله : (**بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ**).
هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار
قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.
وقال الله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.
فبين أن **الناس قسمان:** مطيع ومتولي لا يوجد قسم ثالث، وهاتان الآيتان تدلان على أنه من صفات العصاة اللازمة أنهم متولون متعدون لحدود الله عز وجل، فإن العدول عن اللفظ المقابل عند تبادره إلى وصف آخر دليل على إرادة معنى هذا الوصف.
وهذا مدخل مهم لتقرير التوحيد؛ فإن من أقر برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم لزمه تصديقه فيما يخبر به وطاعته فيما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه لأن هذا هو معنى الإيمان بالرسول، فمن لم يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في خبره أو لم يطع الرسول في أمره فهو غير مؤمن به.
فهذا من حيث الأصل ينبغي أن يقرر.
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذِي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيده لا يسمع بي أحَدٌ من هذه الأمّة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ يموت ولم يؤمِن بالذي أرْسلتُ بهِ إلا كانَ مِن أصْحابِ النَّار».
رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❑ قوله : (**والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُم كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٤-١٥]).

﴿إِنَّا﴾ الضمير عائد إلى عز وجل، والضمير إذا كان عائداً إلى مفرد وصيغ بصيغة الجمع فهو للتعظيم.

﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي بعثناه إليكم برسالة يؤديها، فافقهوا معنى هذه الرسالة وامتثلوا ما فيها.

﴿شَاهِداً عَلَيكُم﴾ كل رسول شهيد على أمته، وسيأتي النبي صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته يوم القيامة في مشهد عظيم وصفه الله بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ❖ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

ففي هذه الآية وعيد شديد لمن عصى الرسول.

وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على من كانوا في حياته بما رأى منهم، وعلى من بعده بما ترك لهم.

كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد تركْتكُم على البَيْضاءِ لَيْلُها كنَهارِها لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالِك». رواه أحمد وغيره من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرعَوْنَ رَسُولاً﴾ وهو موسى كليم الله صلى الله عليه وسلم.

﴿فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ﴾ لم يقل فعصاه فرعون، وأعاد ذكر لفظ الرسول، لفائدة بلاغية لطيفة وهي بيان ترتب الحكم على الوصف لا على الشخص، فاستحقاق فرعون للعذاب هو لأجل أنه عصى من أرسله الله عز وجل، وليس لأجل كون الرسول هو موسى، بل لو أرسل إليه غير موسى فعصاه لاستحق العذاب أيضاً.

وهذا يفيدك أن طاعة الرسول هي طاعة لله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي فعذبناه عذاباً شديداً ثقيلاً متتابعاً كما يتتابع الوابل من المطر قال ابن جرير رحمه الله: (العرب تقول لمن تتابع عليه الشرّ: لقد أوبل عليه).

وعبر بالأخذ لبيان أنه لا يفلت من هذا العذاب.

فأخذه جل وعلا عند الغرق هو وجنوده فلم يفلتهم ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ ذهبت أجسادهم للغرق، وأرواحهم للحرق، بسبب خطيئاتهم وطغيانهم.

وهم في البرزخ يعذبون كم قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

فكذلك من يعص الرسول من هذه الأمة فإنه مستحق للعذاب الوبيل. نعوذ بالله من معصية الرسول.

❑ قوله: (**الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا غيرُهُما، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالى:** ﴿وَأَنَّ المَسَاجدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾).

الله تعالى لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، بل توعد من أشرك به أحداً منهم وعيداً شديداً، بل توعد الرسل أنفسهم أنهم إن أشركوا أحبط أعمالهم وجعلهم من الخاسرين، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ❖ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

بل اللهَ فاعبد أي لا تعبد إلا الله، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر في لسان العرب، فالعبادة حق لله وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وقال تعالى عن الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ❖ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ❖ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ❖ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

ولعظيم جرم الشرك فإن الله لا يغفره كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

فإذا كان أشرف الخلق وهم الأنبياء والملائكة ليس لهم نصيب من العبادة، بل يفرَقون فرقاً شديداً من أن يدَّعى فيهم شيء من خصائص الله تعالى، ويغضبون غضباً شديداً على من يصنع ذلك، فكيف يدعونه لأنفسهم.

وفي سنن أبي داوود من حديث جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعرابيٌّ فقال يا رسول الله: جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا؛ فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك!.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويحك أتدري ما تقول!» وسبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبِّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه.

ثم قال: «ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك».

ولما قال له رجل: (ما شاء الله وشئت) أنكر عليه وقال له: «أجعلتني لله ندا؟!!»

فالعبادة حق لله تعالى وحده ليس لأحد فيها حق كائناً من كان.

إذا تقرر هذا فإن ما يفعله الذين يذبحون لغير الله من الأولياء والجن وغيرهم ويقدمون لهم النذور ويسألونهم الحوائج أولى بأن يكونوا من المشركين.

ولذلك قال الشيخ رحمه الله في كتابه كشف الشبهات:

(إذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الناس عليه، فاعلم أن **شرك الأولين أخفّ من شرك أهل زماننا بأمرين:**

أحدهما: أن الأولين يشركون ويدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، إلى قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما راسخا، والله المستعان.

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله. إما أنبياء، وإما أولياء، وإما ملائكة، أو يدعون أشجارا أو أحجارا مطيعة لله ليست عاصية.

وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك.

والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يُشاهد فسقه وفساده ويَشهد به) ا.هـ

❑ قوله: (**وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾).

المساجد فيها ثلاثة أقوال مشهورة:

الأول: أنها مواضع السجود من جسد الإنسان لأنها المساجد التي يسجد بها وهي (لله) لأن الله هو الذي خلقها فلا يجوز أن تعبد هذه المساجد إلا الله، وهذا القول مروي عن

سعيد بن جبير والربيع بن أنس البكري وذكره الفراء وجهاً في التفسير، وقال به الزجاج.

القول الثاني: أن المساجد مصدر كالمضارب فهي بمعنى السجود يقال سجدت سجوداً ومسجداً ومساجد، وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله.

القول الثالث: أن المساجد مواضع الصلاة التي يصلى فيها ويدعى فيها فهي لله لا يجوز أن يشرك مع الله أحد، وهذا قول جمهور المفسرين لأنه المعنى المتبادر لهذا اللفظ والمعهود في القرآن.

ولما نزلت هذه الآية ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ لم يكن في الأرض إلا مسجدان معروفان: المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهما معظمان عند العرب وعند أهل الكتاب تعظيماً كبيراً، ولهما شأن عظيم، وجمعهما على مساجد يفيد التعظيم أيضاً.

وكون هذه المساجد لله لا ينازع فيه أحد، فإن الأصنام مستحدثة في المسجد الحرام لم تكن فيه، وقد بنيت هذه المساجد لله، فلا يجوز أن يدعى فيها غيره.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا﴾ أيها الناس ﴿مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ولا تشركوا به فيها شيئا، ولكن أفردوا له التوحيد، وأخلصوا له العبادة).

قال قتادة: (كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه أن يوحد الله وحده).

الدرس الرابع: شرح المسائل الثلاث (٢/٢)

عناصر الدرس:

١: البراءة من الشرك وأهله.

- معنى البراءة من الشرك وأهله.

٢: أسباب البراءة من المشركين.

- الأسباب المتعلقة بالمتبرئين (وهم المؤمنون).
- الأسباب المتعلقة بالمتبرأ منهم (وهم المشركون)

٣: مقاصد البراءة من المشركين.

٤: الغاية التي تنتهي عندها البراءة منهم

٥: ميزات البراءة في الإسلام.

٦: الولاء والبراء أمر فطري.

٧: تصحيح الشريعة المحكمة لمفهوم الولاء والبراء.

٨: البراء في الإسلام لا يخرج عن مقتضى العدل والإحسان.

٩: بيان الفرق بين حسن المعاملة والمحبة القلبية.

١٠: التعامل مع الكفار يكون وفق أحكام الشريعة.

١١: بيان حكم موالاة الكفار.

- بيان معنى الموالاة
- بيان الأدلة على أن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين ردة عن دين الإسلام، وأنه من النفاق الأكبر.
- تفسير قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

١٢: بيان درجات الكفار من حيث حكم معاملتهم.

١٣: أقسام المسلمين في البراءة من الكفار والمشركين.

١٤: الثناء على بعض الخصال الحسنة لدى بعض الكفار ليس من موالاتهم.

قوله: **(الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى:** ﴿لاَ تَجدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُمْ أَو أَبْنَآءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ألا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [**المجادلة**: ٢٢]).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فهذا هو الدرس الرابع من دروس دورة شرح ثلاثة الأصول وأدلتها ألقيه يوم السبت السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى من السنة الثانية والثلاثين بعد الأربعمائة والألف من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

❏ قوله: **(من أطاع الرسول)** هذا هو مقتضى المسألة الأولى.

وقوله: **(ووحد الله)** هذا هو مقتضى المسألة الثانية.

أي إذا أتيت بما وجب عليك في المسألة الأولى التي سبق بيانها، وأتيت بما وجب عليك في المسألة الثانية فاعلم أنه لا يجوز لك أن توالي من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب. إذا هذه المسألة يخاطب بها من أقر بالشهادتين، أما من لم يقر بهما فيبين له وجوبهما، وأن الإنسان لا يدخل في الإسلام حتى يشهد الشهادتين، فإذا شهد الشهادتين عُرِّف بما يجب عليه.

ومن لوازم تحقيق الشهادتين البراءة من الشرك وأهله

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: (وقد بين تعالى هذا التأسي المطلوب وذلك بقوله ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

فالتأسي هنا في ثلاثة أمور:

أولا: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله.

ثانيا: الكفر بهم.

ثالثا: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبدا إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده. وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبدا والسبب في ذلك هو الكفر؛ فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم).

فالبراءة من الشرك وأهله لها أسباب ومقاصد وغاية تنتهي بانتهائها وأحكام تحكمها

وهذه الأسباب على قسمين:

- أسباب متعلقة بالمتبرئين وهم المؤمنون.
- وأسباب متعلقة بالمتبرأ منهم وهم المشركون والكفار.

➢ فأما أسبابها المتعلقة بالمتبرِّئين وهم المؤمنون فهي:

السبب الأول: موافقة الله تعالى فيما يحب ويبغض، وذلك أن هؤلاء الذين أمرنا بالبراءة منهم قد أبغضهم الله عز وجل، وكلما كان المؤمن أشد حباً لله كان أكثر بغضاً لمن يبغضه الله مهما تزين ذلك المغضوبُ عليه، ومهما قال الناس فيه من مدح وثناء، إذا تحقق المؤمن أن الله تعالى يبغضه فإن مقته يحل في قلبه، بل من شدة محبة المؤمن لربه يجد هذا الأمر ضرورياً في نفسه وشعوراً تلقائيا تجاه كل من يبغضه الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لاَ تَجدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ..﴾

فأتى بها بصيغة الخبر، كأن الأمر مفروغ منه، وأنه من مقتضيات الإيمان الضرورية.

كما قال الله تعالى لما ذكر استئذان المنافقين عن الغزو: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ [التوبة: ٤٤- ٤٥].

فالله تعالى يعلم حال عباده المؤمنين المتقين ويعلم ما في قلوبهم من محبته واليقين بفضله وثوابه، وعظيم خشيتهم منه جل وعلا، وخوفهم من عقابه إن هم عصوه، ويعلم اشتياقهم لرؤيته وكرامته وأنهم يتمنون أن يموتوا في سبيله فكيف يستأذنونه عن الجهاد في سبيله؟!!.

بل من لم يجد منهم وسيلة للجهاد تجده يتحسر ويتألم، بل ربما فاضت عيناه وحزن قلبه مما يجد في نفسه من الاشتياق للجهاد في سبيل الله وعدم قدرته على ذلك،

كما ذكر الله عن البكائين في سورة التوبة في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❖ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾

فالمؤمن بالله يجد من ضرورات الإيمان أن يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله، ويتبرؤ مما تبرأ الله منه.

وقد نبه الله على هذا السبب بقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]

السبب الثاني: طاعة الله تعالى في أمره فإن الله تعالى أمر بالبراءة من الشرك وأهله ونهى عن توليهم، ومدح إبراهيم ومن معه على براءتهم من المشركين، وأمرنا أن نأتسي بهم في هذه البراءة التي مدحها الله عز وجل في القرآن في أكثر من موضع.

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

وقال الله تعالى على لسان الخليل ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ❖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

وقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ❖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ❖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ❖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

السبب الثالث: الغضب لله جل وعلا والحميَّة له، فإن من صدق في محبة محبوب ووجد من يغضبه أحس في قلبه بغضاً له، ولو أنك وجدت من يجتهد في أذية من تحبه ويحبك فلم تبغضه فإنك لم تقم بواجب المحبة.

فكيف بمن امتلأ قلبه من محبة الله تعالى وشهود مننه العظيمة وآلائه الكثيرة، وعرف حقه العظيم، وثوابه الكريم، وثناءه على من يحبهم في الملأ الأعلى، وما أعد لهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم وجد من يشرك بالله ويجتهد في إيذائه جل وعلا بالشرك وكفر النعم وفعل ما يبغضه ويمقته جل وعلا من الأفعال المشينة وإيذاء أولياء الله، لا شك أن من شهد هذا وجد في قلبه ضرورة ببغض من يفعل هذه الأفعال غضباً لله جل وعلا، في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنه يشرك به ويجعل له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم».

فبين أن الشرك وادعاء الولد لله تعالى إيذاء لله يبغضه الله، والمؤمن لا أحدَ أحب إليه من الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فمدحهم على ذلك، فإذا رأى

من يؤذي من يحبه أعظم محبة لا شك أنه سيبغضه ويمقته ويجد هذا ضرورياً في قلبه لأنه من لوازم الإيمان المتحتمة.

ومن وجد هذا من نفسه فقد صح إيمانه بل هو علامة على وثوقه وكماله ففي مسند أبي داوود الطيالسي من حديث معاوية بن سويد بن مقرن عن البراء بن عازب قال: كنا عند النبي صلى الله عليه و سلم فقال: «أتدرون أيَّ عرى الإيمان أوثق؟»

قلنا: الصلاة.

قال: «الصلاة حسنة وليست بذلك».

قلنا: الصيام. فقال مثل ذلك، حتى ذكرنا الجهاد فقال: مثل ذلك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله عز و جل والبغض في الله».

- وفي سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أحب لله و أبغض لله و أعطى لله و منع لله فقد استكمل الإيمان».

قال ابن القيم رحمه في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث: (فإن الإيمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان: عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلا وتركا وهما العطاء والمنع؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان صاحبُها مستكملَ الإيمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه).

السبب الرابع: إثبات أن محبة الله تعالى مقدمة على محبة غيره، وأن الله أحب إلى العبد مما سواه، وأن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا هذا الدين أحب إليه مما سواه من الخلق، ومن كان هذا حاله وجد حلاوة الإيمان كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» وهذه الأمور الثلاثة يترتب بعضها على بعض.

فتلخص أن أسباب البراءة المتعلقة بالمتبرِّئين هي:

١ : موافقة الله تعالى فيما يحب ويبغض.

٢ : امتثال أمر الله تعالى بالبراءة من الشرك وأهله.

٣ : الغضب لله جل وعلا.

٤ : إثبات تقديم محبة الله تعالى على محبة غيره.

➢ وأما أسبابها المتعلقة بالمتبرأ منهم وهم المشركون والكفار فمنها:

١ : عداوتهم لله تعالى، وبغضهم لما يحبه الله، ومحبتهم لما يبغضه الله، ومحادتهم لله ورسوله، ومن كان هذا حاله فهو مستحق لأن يعادى ويتبرأ منه مهما كانت قرابته، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

٢ : أنهم أعداء للمؤمنين يجتهدون في إعناتهم والمشقة عليهم وإفساد أمورهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإذا تمكنوا من المؤمنين ساموهم سوء العذاب من العذاب النفسي والحسي، وما تخفي صدورهم من البغضاء أكبر مما أبدوه قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٣ : سعيهم للصد عن سبيل الله عز وجل بأقوالهم وأعمالهم، وقولهم على الله بلا علم وافترائهم الكذب على الله ليضلوا الناس بغير علم، وتمنيهم كفر المؤمنين كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾

فكان من أول الصفات التي وصف الله بها الظالمين أهل النار صدهم عن سبيل الله وذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ❖ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾

والصد عن سبيل الله شأنه عظيم وهو ظلم مبين لأن فيه إغواء للناس عن سلوك الصراط المستقيم المفضي إلى رضوان الله وجنات النعيم، فمن صد الناس عن سبيل الله فلا شك أنه ظالم معتدٍ مستحق للعذاب والبراءة منه ومن فعله.

٤: حسدهم للمؤمنين وتمنيهم زوال الخير عنهم كما قال الله تعالى عنهم: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

٥: كفرهم بنعم الله جل وعلا ومقابلتها بالشرك والفسوق والعصيان ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ❖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ❖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

فالبراءة من الشرك وأهله أصل عظيم من أصول الدين، وحد من حدود الله، وله أسبابه المبينة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وأما مقاصد البراءة من الشرك وأهله فهي:

١: رعاية حدود الله عز وجل، وأعظم الحدود ما جعله الله من الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، وسمى الله المشركين محادين له ولرسوله، فهم في حد، والمؤمنون في حد.

فالبراءة من الشرك وأهله هي من إقامة حدود الله، وهي واجب من واجبات الإيمان، وقد قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾.

٢: إنكار المنكر العظيم الذي لا أعظم منه وهو الشرك بالله جل وعلا فهو أنكر المنكرات وأكبر الكبائر وإنكاره من أوجب الواجبات وأعظم الحقوق.

٣ : التنصل من موافقة المشركين على دينهم أو محبتهم لما يفعلونه من الشرك أو إقرارهم عليه، وقد علمنا ما توعد الله به أهل الشرك من العذاب المهين والغضب الشديد والمقت الكبير والخلود في النار

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

فإذا علم المؤمن بعظيم مقت الله للكفار حرص على التنصل من موافقتهم على ما مقتهم الله عليه أو إقرارِهم عليه.

٤ : رجاء أن يقلع المشرك عن شركه إذا وجد من المؤمنين بغضاً لما يفعله من الشرك ومجانبة والامتناع عن بعض التعاملات معه فلا تؤكل ذبيحته ولا يشرب في آنيته ولا يرث ولا يورث ولا يناكح ولا يوالى ولا يتشبه به في شيء مما يختص به إلى غير ذلك من الأحكام فإن ذلك قد يحمله على الإسلام، وقد أسلم لهذا السبب عدد من المشركين.

٥ : الاعتزاز بدين الله تعالى والاستغناء به جل وعلا، فإن الله لما أمرنا بالبراءة من الشرك وأهله علمنا أن الله تعالى قد أغنانا عنهم بفضله وأعزنا بدينه، فإن الله أكمل لنا الدين، ومن إكماله أنه واف بما نحتاجه في جميع شؤوننا.

وما يقع فيه بعض المسلمين من موالاة الكفار هو من مظاهر ضعف اعتزازهم بدين الله عز وجل.

٦ : النصيحة للمسلمين وبيان الحق لهم فإن موالاة الكفار قد تغر بعض المسلمين فتفتنَهم عن دينهم.

وأما الغاية التي تنتهي عندها هذه البراءة فهي إيمان من أمرنا بالبراءة منه فإذا آمن فهو من إخواننا نحبه ونواليه كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فإذا آمنوا بالله وحده لا شريك له وكفروا بما يعبد من دونه فهم من المؤمنين نحبهم ونواليهم

وقد قال الله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

وهذا يعرفك بسمو مقاصد هذه البراءة الإيمانية وعظيم حلم الله تعالى وسعة مغفرته وأنه هو التواب الرحيم والعفو الحليم وأنه يقبل التوبة ممن تاب ولو كان مشركاً.

فالبراءة من الشرك في الإسلام لها ميزات منها:

١: أنها متصلة بالله جل وعلا، فمدار الحب والبغض فيها على ما يحبه الله ويبغضه الله، ومن كان هذا حاله فقد أسلم قلبه لله.

٢: أنها عبادة ملازمة للمؤمن لا تخلو منها لحظة من لحظات حياته فهو وإن لم يستشعرها فهو مستصحب لحكمها، وهذا البغض عبادة قلبية عظيمة.

٣: أن هذه البراءة مبنية على الفقه والهدى وعلى تحقيق المصالح الشرعية ودرء المفاسد فهي ليست بغضاً أهوج، ولا عاطفة عمياء. بل لها أحكام سنوضحها إن شاء الله.

فهذه البراءة تخلو من آثار البراءة الجاهلية العمياء فإنه ما من شخص إلا وهو يوالي ويعادي، فمن جعل موالاته ومعاداته لله فقد استكمل الإيمان، ومن جعل موالاته ومعاداته على أمر جاهلي فهو امرؤ فيه جاهلية.

فالولاء والبراء أمر فطري وما من شخص إلا وهو يوالي ويعادي، وقد جاء الإسلام بتهذيب الولاء والبراء وتصحيح مساره، وتقويم منهجه، وبيان أحكامه، فصحح ما يعقد عليه الولاء والبراء، وصحح معنى الولاء والبراء، وبين منهجه الذي ينتهجه المؤمن بلا غلو ولا تفريط، وبين أحكامه وما يجوز فيه وما لا يجوز، وبين الحقوق التي يجب حفظها ولا يجوز الاعتداء عليها حتى مع المخالفين، وأن هذا الولاء والبراء محكوم بأحكام الشريعة، ومن سار على ما بينه الله من الهدى في هذا الباب العظيم لم يحصل منه ما يحصل من آثار الولاء والبراء الجاهلي الذي يُعقد على عرق أو بلد أو حزب أو جماعة أو غيرها من الأسباب الجاهلية التي يعقد عليها الولاء والبراء.

فالبراء في الإسلام لا يخرج عن مقتضى العدل والإحسان، بل كل أحكام الشريعة لا تخرج عن مقتضى العدل والإحسان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ونهى عن الاعتداء حتى على المشركين كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فقرَنَ النهي عن العدوان بالقتال في سبيل الله، وهذا يدلك على الرسالة السَّامية للإسلام حتى في القتال، ينهى فيه عن العدوان والخيانة؛ حتى لو كان بيننا وبين الكفار عهد وخفنا منهم الخيانة ونقض العهد وقامت قرائن وأمارات على ذلك لم يجز أن نبدأهم بالقتال حتى نعلمهم بذلك وننبذ إليهم عهدهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلم يرض الله لأوليائه أن يكونوا خائنين، ولم يرض لأوليائه أن يكونوا معتدين، ولم يرض لأوليائه أن يكونوا ظالمين.

فالمؤمنون وإن كانوا يبغضون الكفار بغضاً شديداً ويعادونهم في الله إلا أنهم لا يحملهم ذلك على ظلمهم والاعتداء عليهم كما أرشدنا الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بل إن الله يحب لأوليائه أن يكونوا محسنين مقسطين، وأن تكون معاملتهم للناس حسنة يزينها الصدق والوفاء بالعهد وحسن القول والخلق كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ❖ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالمنهي عنه أن نتولاهم فنناصرهم على المسلمين بأن ندلهم على عورة من عورات المسلمين، وأن نعينهم على المسلمين بأي نوع من أنواع الإعانة.

أما الإحسان إلى من ليس من أهل الحرب والقتال بما لا يعين على المسلمين فليس بمنهي عنه بل هو من القسط الذي يحبه الله.

فينبغي أن نفرق بين حسن المعاملة والمحبة القلبية؛ فمودة الكفار ومحبتهم محرمة في دين الإسلام، بل إن بغضهم من لوازم الإيمان، فإنهم لما أسخطوا الله تعالى وهو أعظم محبوب لنا استحقوا أن نبغضهم، فبغض أعداء الله من لوازم الإيمان بالله ولوازم محبته كما قال تعالى: ﴿لاَ تَجدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ.. ﴾ فالإيمان بالله ينفي وجود محبة الكفار، لأن محبة المؤمن لله تعالى تقتضي منه أن يبغض أعداء الله، وأن يبغض من يبغضه الله.

ونحن إنما نبغضهم لكفرهم وفسوقهم وعصيانهم لا نبغضهم لذواتهم وهيئاتهم وأنسابهم وأعراقهم وبلدانهم إنما نبغضهم لما أبغضهم الله عليه، ولذلك فإنهم إن تابوا وأسلموا أحببناهم لزوال مقتضى البغض والكراهية.

أما التعامل معهم فيكون وفق أحكام الشريعة، وقد أمرنا الله تعالى بأن نقول للناس حسناً، وأن نعاملهم بالحسنى، وألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، ويجب علينا أن نفي بالعهد بيننا وبينهم، وإذا ائتمننا أحد منهم أدينا له الأمانة، وندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، ونبين لهم أخلاق أهل الإسلام، ودعوةَ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى مكارم الأخلاق.

كل ذلك مطلوب، ولا يقتضي محبتهم القلبية وهم مقيمون على الكفر والفسوق والعصيان.

لأن تعامل المؤمن نابع من إيمانه وامتثاله لأحكام الشريعة السمحة وأخلاق القرآن العظيم.

أما الكفار المحاربون والمعتدون الظالمون من الكفار والمنافقين فقد أُمرنا بالغلظة عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فالذين يستحقون أن نجاهدهم أمرنا بالغلظة عليهم، وهذه الغلظة كما تقدم في الدرس السابق لها حدودها الشرعية فلا يجوز أن تفضي بالمسلم إلى قول ما لا يجوز قوله ولا على العدوان والبغي.

فتبين بذلك أن البراءة في الإسلام لها مقاصد سامية، وآداب عالية، وأنها ليست كالبراءة

الجاهلية المبنية على الظلم والعدوان وقول الإثم والبهتان، وغصب الحقوق والدعاوى الباطلة.

وأن البغض الإيماني ليس حقداً عنصرياً ولا كرهاً أعمى، بل هو بغض إيماني له أسباب ومقاصد وغاية كما تقدم.

ونحن مع بغضنا لهم بسبب أعمالهم وكرهنا ومقتنا لكفرهم وفسوقهم وعصيانهم نود لهم الهداية ونسأل الله أن يخرجهم من الظلمات إلى النور وندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن، رجاء أن يمن الله عليهم بالهداية فنواليهم بعد المعاداة ونحبهم بعد البغض كما قال الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

نأتي الآن إلى بيان مسألة مهمة وهي حكم موالاة الكفار.

الموالاة تطلق على معنيين بينهما تناسب وتلازم وهما التحاب والتناصر، فالولاية تطلق على المحبة والنصرة في اللغة وعلى ما ينشأ منهما؛ فالحليف ولي، والكفيل ولي، والقيم على من تحته ولي كولي اليتيم وولي المرأة.

فالولاية تطلق في اللغة على معانٍ، ولها سبب ومقتضى.

والأسباب التي تنعقد بها الولاية تختلف باختلاف نوع تلك الولاية؛ فالقريب وليّ لقريبه بسبب القرابة، والقيّم على المرأة واليتيم وليّ لهما بسبب القوامة والرعاية، والكفيل وليٌّ لمكفوله بسبب عقد الكفالة والضمان، والحليف وليٌّ لحليفه بسبب الحِلْف، وولي الدم هو المطالب به من عصبة القتيل.

والسيّد وليٌّ لمملوكه بسبب استرقاقه له، ويبقى الولاء له بعد عتقه - إن أعتقه - ويرث بسببه.

وكلاهما مولى للآخر.

فالولاية في اللغة تطلق على هذه المعاني وغيرها، ولها في كل مقام من هذه المقامات ما

يناسبه، وما تقتضيه من الحقوق والواجبات.

والمعنى الجامع لما تقتضيه الولاية من المولى هو النُّصْرَة، فالوليُّ نصير لمولاه، والنصرة معنى جامع ينتظم جميع ما تقتضيه الولاية في كل مقام بحسبها؛ فتكون النصرة بالمال والجاه والرعاية والمؤازرة وغيرها من المعاني.

وكل هذه المعاني يصدق عليها في اللغة اسم النصرة.

فالولي هو الذي يقوم بما تقتضيه الولاية في كل موضع بحسبه من المحبة والموافقة والتأييد والسعي في تحقيق مصالح المولى وحمايته مما يخافه عليه.

ولذلك يكثر الاقتران بين الولاية والنصرة في القرآن الكريم قال الله تعالى عن نفسه المقدسة: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرِ﴾، وقال: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُم وهُوَ خَيْر النَّاصِرِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَمَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ إلى غير ذلك من الآيات تدل على أن النصرة من مقتضيات الوَلاية وأنها هي مقصودها، وبدونها لا تصح الولاية، فالولاية أصلها المحبة والموافقة، ومقتضاها النصرة والتأييد.

فمن شأن الولي أنه ينصر مولاه.

ولذلك فإن النصرة علامة على صدق الولاية، والذي يقوم بواجب النصرة يكون قد أدى حق الولاية وقام بها، والذي يخذل مولاه ولا ينصره بل يسعى في مشاقته ومحاربته فهو عدو له وليس بمولى، وإن تظاهر بالولاية.

ولذلك فإن أولياء الله هم الذين ينصرون الله عز وجل فيقومون بما تقتضيه محبته جل وعلا من تحقيق ما يحبه الله ويرضاه واجتناب ودفع ما يكرهه ويبغضه فمن فعل ذلك فهو من أولياء الله.

ومن قام بضد ذلك بأن والى أعداء الله فنصرهم وأيدهم على محاربة دين الله فليس من أولياء الله، بل هو من أعداء الله، لأن هذه الأعمال تنافي محبة الله، ولا تحصل هذه الخصلة من المؤمنين وإنما تحصل من المنافقين النفاق الأكبر والعياذ بالله؛ فهم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، **ومعنى اتخاذ الكفار أولياء يشمل معنيين:**

المعنى الأول: أن ينصر المنافقُ الكافر على المؤمنين وعلى محاربة دين الله عز وجل ومحادة الله ورسوله.

والمعنى الثاني: أن يستنصر به على ذلك.

فإذا حصل هذا أو هذا فقد اتخذه ولياً، وكلاهما ولي للآخر، بينهما رابط الولاية، فهذا التعبير من روائع التعبير القرآني ففيه اختصار بديع مع الدلالة على المعنى، والتنبيه على العلة، وإلغاء الفارق في الوصف بين الحالتين، والإبقاء على رونق اللفظ وحسن السبك.

فإذا نصره أو استنصر به فقد اتخذه ولياً، وهذا الأمر هو من صفات المنافقين اللازمة لهم وهي من علاماتهم الظاهرة وأعمالهم المتواترة التي يدأبون عليها، ولذلك جعل الله هذا الأمر من أول ما يصف به المنافقين، وأعظم ما يمقتهم عليه، وتوعدهم الوعيد الشديد بسببه فقال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ إلى أن قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

ولما ذكر الله الذين كفروا من بني إسرائيل بين لنا أن من أعظم ما مقتهم عليه أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾.

واتخاذ المنافقين للكفار أولياء قد بين الله تعالى تفاصيله في كتابه الكريم إذ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾

فهذه الآيات تبين لك بياناً جلياً معنى اتخاذ الكفار أولياء، وأنت إذا تأملت هذه الآيات تبين لك أن هذا الأمر حد عظيم من حدود الله جل علا، وأنه فارق بين الكفر والإيمان، وأن الله قد توعد من فعله وعيداً شديداً، وعدّ من فعله عدواً له، وسماه مرتداً عن دين الإسلام وأوجب له الدرك الأسفل من النار، لما تضمنه هذا العمل من الخيانة العظمى، والخديعة الكبرى، ومحاربة الله ورسوله وأوليائه.

ولذلك لا يفعله من في قلبه إيمان، وإنما هو من خصال المنافقين النفاق الأكبر والعياذ بالله، وقد نزه الله تعالى عباده المؤمنين وبرأهم من هذه الخصلة الذميمة اللئيمة المبنية على الخداع والمكر والكيد للمؤمنين ومؤازرة الكافرين؛ فقال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

تأملوا هذا الوعيد والتحذير: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ هذا استثناء منقطع.

فبين الله أن **للمسلم حالان؛ حال اختيار وحال اضطرار.**

- **ففي حال الاختيار** لا يتخذ المؤمن الكفار أولياء، قال الله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ ولم يقل: (ومن يفعل ذلك منهم) وهذا دليل على أن من صدر منه هذا الاتخاذ فليس بمؤمن، وليس من الله في شيء.

وقد تبرأ الله منه، ومن تبرأ الله منه فهو من الخاسرين، والعياذ بالله.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي فقد برئت منه ذمة الله، ليس له من ولاية الله نصيب، والعياذ بالله.

- **وأما في حال الاضطرار** بأن يخشى من الكفار ضرراً فلا بأس أن يداريهم مداراة يدفع بها شرهم مع انطواء القلب على بغضهم وبغض ما يفعلون من الكفر والفسوق والعصيان.

قال ابن جرير: (ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ **فيه قولان مأثوران عن السلف رحمهم الله:**

فالقول الأول: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على دينهم ولا تعينوهم على مسلم بشيء.

وهذا القول مروي عن جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأبو العالية الرياحي وجابر بن زيد، وقال به ابن جرير الطبري.

القول الثاني: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي إلا أن يكون بينكم وبين بعض الكفار رحم فتتقون قطيعتها فتصلونها من غير أن تتولوهم في دينهم. وهذا قول قتادة والحسن البصري.

وابن جرير – رحمه الله – صحح هذا القول من جهة المعنى في نفسه لكنه بين أن لفظ الآية لا يدل عليه.

وهذا المعنى الذي ذكره قتادة والحسن يدل عليه نص قول الله تعالى في الأبوين الكافرين: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾. وقوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

وسبب نزولها في قصة أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

فقد بين الله تعالى في كتابه أن الكفار على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الأبوين الكافرين.

الدرجة الثانية: الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يعينوا عليهم.

الدرجة الثالثة: المقاتلون والمعينون على قتال المؤمنين والعدوان عليهم.

وجعل لكل درجة حكماً..

- فأما الأبوان الكافران فقال الله تعالى فيهما: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾.

فأمر الله بإحسان صحبتهما، وكذلك الأرحام الذين ليسوا من أصحاب الدرجة الثالثة.

- وأما أصحاب الدرجة الثانية فقال الله تعالى فيهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾

- وأما أصحاب الدرجة الثالثة فقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي يتخذهم أولياء كما يفعل المنافقون.

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ من كفار أهل مكة ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ يقول: وعاونوا من أخرجكم من دياركم على إخراجكم أن تولوهم، فتكونوا لهم أولياء ونصراء: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ يقول: ومن يجعلهم منكم أو من غيركم أولياء ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: فأولئك هم الذين تولوا غير الذي يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر الله في ذلك).

إذاً نعود لبيان جواب السؤال: ما حكم موالاة الكفار؟

الجواب: أن موالاة الكفار هي بمعنى اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين على ما وصف الله في الآيات التي سبق ذكرها وهي ناقض من نواقض الإسلام والعياذ بالله.

وهذا يشمل محبتهم لدينهم والرضى به ومناصرتهم على المسلمين وعلى محادة الله ومحاربة دينه فهذا ناقض من نواقض الإسلام.

بعض علماء الدعوة يفرقون بين الموالاة والتولي في الحكم، وهذا التفريق لا أعرفه عمن سبق من العلماء ولا تقتضيه اللغة فالموالاة والتولي في اللغة وفي استعمال السلف واحد وكلاهما يدل على اتخاذ الكفار أولياء.

وأما ما يذكرونه من محبة بعض أهل الكفر على أمر دنيوي من غير اتخاذهم أولياء فهذه ليست موالاة وسيأتي بيان أحكامها إن شاء الله.

الموالاة هي: التوافق والتناصر على الإسلام والمسلمين، ولا تكون موالاة إلا إذا اتخذه ولياً.

➢ **أما محبة بعض الكفار على أمر دنيوي**، ومصاحبتهم ومعاشرتهم والتعامل معهم فهذا له أحكام أخرى منها ما هو مشروع مأمور به بضوابطه الشرعية، ومنها ما هو محرم لا يجوز، وهي ليست من موالاة الكفار.

فيجب التفريق بين هذين القسمين من المسائل، ولا تخلط مسائل هذا القسم بمسائل هذا.

فالله تعالى قد جعل موالاة الكفار وتوليهم حداً من الحدود الفارقة بين الإسلام والكفر، ولا يجوز لمسلم أن يتولى الكفار ولو كان من تولاه أحد أبويه أو من عشيرته فاتخاذهم أولياء وإعانتهم على دعوة الإسلام وعلى المسلمين كفر وردة عن دين الله عز وجل.

➢**وأما مصاحبتهم ومعاشرتهم والإحسان إليهم من غير موالاة** فليست من هذا الباب، وهي على درجات ولها أحكام:

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فهذه المصاحبة بالمعروف واجبة على المسلم الذي له والدان كافران، وليست هذه المصاحبة بالمعروف من الموالاة في شيء.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فأمر الله تعالى بمصاحبتهم بالمعروف ونهى عن اتخاذهم أولياء وحذر من اتخاذهم أولياء، ووصف من فعل ذلك بأنه من الظالمين المتوعدين بالعذاب الشديد؛ فعلِمَ أن مصاحبتهم بالمعروف ليست من الموالاة في شيء.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير آية التوبة: (يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المُكْثَ بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار).

وهذا التفسير من ابن جرير هو الحق وهو الذي تقتضيه دلالة النصوص ؛ فمناصرة الكفار على المسلمين وموالاتهم كفر وردة عن دين الله عز وجل ، ولو كان الذين والوهم آباءهم أو أبناءهم أو عشيرتهم.

- فموالاة الكفار حد فارق بين الإسلام والكفر ، بينه الله تعالى بياناً لا لبس فيه.

➢ **وأما مصاحبتهم بالمعروف** فمأمور بها، وما أمر الله به فليس من الشرك في شيء ، وأوامر الشريعة تتفق ولا تختلف، ومن فقه مقاصد الشريعة فقها صحيحاً اتضحت له حدود الله عز وجل التي بينها في كتابه الكريم.

إذا تبين هذا فكل ما أذن الله به في معاملة الكفار من مصاحبة بالمعروف ومعاشرة الرجل لزوجته الكتابية ، والإحسان إلى من أذن الله بالإحسان إليهم من الكفار كل ذلك ليس من موالاتهم في شيء.

- وكذلك الثناء على بعض الخصال الحسنة لدى بعض الكفار ليس من موالاتهم بل هو جائز لا بأس به ، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بعض الخصال الحسنة لدى بعض الكفار ، وقال لأشج عبد القيس : «إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة».

لكن ينبغي ألا يتخذ ذلك ذريعة لمحبة باطلهم أو الاغترار بما لدى بعضهم من خصال حسنة فيعتقد أنهم على الحق في دينهم.

فهذه أمور مشروعة وليست من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين.

- وقد جاءت الشريعة بسد الذرائع المفضية إلى موالاة الكفار، فنهى الله تعالى عن اتخاذهم بطانة ؛ فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن جرير رحمه الله: (﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ يقول: من دون أهل دينكم وملّتكم، يعني من غير المؤمنين.

وإنما جعل "البطانة" مثلاً لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه - في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه- محلّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه.

فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم) إلى أن قال: (هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق منهم، ويصافونهم المودّة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام، فنهاهم الله عن ذلك وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم).

فاتخاذهم بطانة ومصادقتهم محرم في دين الإسلام، لكنها ليست من الموالاة، وفرق بين الأمرين.

- وكذلك الثناء على بعض الخصال المحرمة لدى بعض الكفار ومحبتها أمر محرم لا يجوز، كالثناء على غناء المغنين منهم، وكذلك التعاون معهم على بعض المعاصي كالغناء وغيره من الأعمال المحرمة هو حرام لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

⇦ لكن إذا أفضى هذا التعاون إلى اتخاذهم أولياء ومناصرتهم على المسلمين فهي ردة عن دين الإسلام.

ولذلك تجد بعض الأعمال الظاهرة يفعلها بعض الناس وتكون محرمة وكبيرة من الكبائر، ويفعلها بعضهم وتكون ردة عن دين الإسلام، والفارق في هذا هو النية والقصد، فإذا كان قصده من التعاون مع هؤلاء الكفار اتخاذهم أولياء ومحاربة دين الإسلام والمناصرة على المسلمين وإفساد أخلاقهم لأجل أن ينتصر عليهم الكفار فهذه ردة عن دين الإسلام.

وإن كان لم يقصد ذلك وإنما قصد أمراً من الأمور المحرمة كالاستمتاع المحرم ببعض المعاصي والكسب الحرام من غير أن يقصد مناوءة دين الله فهذا قد أتى كبيرة من الكبائر ومنكراً عظيماً وهو على خطر عظيم يخشى عليه منه، وتجب مناصحته وتحذيره من مغبة فعله.

إذا تبين هذا تبين أن **المسلمين في البراءة من الكفار على ثلاثة أقسام:**

قسم غلوا في البراءة وتعدوا حدود الله في ذلك فارتكبوا من الظلم والعدوان والتنفير عن دين الله عز وجل ما لا يحل لهم، وهم مخطؤون في ذلك خطأ شنيعاً.

وقسم فرطوا وتساهلوا في ذلك حتى حصلت منهم مودة ومحبة للكفار في بعض شؤون دنياهم من غير أن يتخذوهم أولياء، وإنما خالفوا هدى الله ففعلوا ما لم يأذن الله به.
فأصحاب هذين القسمين مخالفون لهدى الله خاطؤون مذنبون.

وقسم وسط اتبعوا هدى الله وامتثلوا أحكامه فتبرؤوا من الكفر وأهله وعاملوهم بمقتضى شرع الله فأحلوا ما أحله الله وحرموا ما حرمه الله ورعوا فيهم حدود الله.
فهؤلاء هم الموفقون الناجون.

وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أحكام معاملة الكفار وبين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أراد تفاصيل ذلك فليطلبه بتعلم هذه المسائل في كتب الفقه.
فقد حرم الله مناكحة المشركين الوثنيين وحرم ذبائحهم، وأباح نكاح الكتابيات وأباح طعام أهل الكتاب، وحرم استعمال آنية الكفار، وحرم التشبه بهم، وبين أحكام التهادي بين المؤمنين والكافرين وما يجوز منه وما لا يجوز، إلى غير ذلك من الأحكام التي يحتاج طالب العلم إلى تعلمها، ولا سيما من يبتلى بمعاملة الكفار كثيراً.
فيعرف ما يحل له وما لا يحل له.
مع انطواء قلبه على محبة الله ورسوله وبغض الشرك وأهله.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة

هذه أسئلة وتطبيقات افتراضية ولها أمثلة في الواقع أردت أن يقيس بها طلاب الدورة فهمهم لمسائل الدروس السابقة.

س١ : رجل وجد دعاية لدورة تدريبية تنظمها إحدى المؤسسات، وهذه الدورة تدرّس نظريات تثبت - على قولهم- أن كل الأفعال التي يعتبرها الناس خاطئة يمكن تبريرها ولها دوافع إيجابية. وأن النظر إليها نظرة إيجابية هو الموقف الصحيح لتقبل الآخرين والتعايش معهم كما هم.

ماحكم الالتحاق بهذه الدورة؟

اذكر الدليل على ذلك.

س٢ : رجل لديه اضطراب في النوم، وكثيراً ما ينام عن صلاة الفجر، هل يصح له أن يدعو غيره إلى أداء صلاة الفجر مع جماعة المسلمين؟

س٣ : رجل برفقة عائلته مر على قوم يشربون الخمر، وإذا نصحهم وأنكر عليهم خشي أن يعتدوا على أهله، فهل ينكر عليهم؟

س٤ : رجل وجد مُلحِداً ينكر وجود الخالق عز وجل، فكيف يلزمه بالحجة على ذلك؟

س٥ : اشترك رجل مسلم مع رجل نصراني في مصنع لتصنيع الأواني وبيعها، فما حكم ما فعله المسلم؟

س٦ : ألقت الشرطة القبض على عصابة مكونة من خمسة أفراد وهم :

١ : خالد (مسلم)

٢ : زيد (مسلم)

٣ : ماريا (نصرانية)

٤ : ووتش (نصراني)

٥ : اليعازر (يهودي)

تقوم هذه العصابة بالنصب والاحتيال والسرقة.

ما حكم ما فعله خالد وزيد؟ وهل هو ردة عن دين الإسلام؟

س٧: طالب مسلم مبتعث للدراسة في الخارج، وتعرف على طالبة نصرانية، وأصبحت عشيقة له ؛ فما حكم ما فعله هذا الطالب؟

وهل هو ردة عن دين الإسلام؟

س٨: باحث متخصص في إعداد الدراسات والبحوث، اجتمع به موظف استخبارات من دولة كافرة، وطلب منه التعاون في إعداد بعض الدراسات عن الأنشطة الدعوية في بلد من بلدان المسلمين وتعريفه بمصادر تمويلها وأثر هذه النشاطات على سكان ذلك البلد وأن يقدم له التوصيات المناسبة لتحجيم دور هذه النشاطات ومنع تمويلها وتشويه جهود القائمين عليها، فقام هذا الباحث بإعداد هذه الدراسة وقدمها لموظف الاستخبارات وحصل بموجب ذلك على مبلغ مالي وحوافز تشجيعية.

السؤال: ما حكم ما فعله هذا الباحث؟

الدرس الخامس: شرح الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه جل وعلا

عناصر الدرس:

١: بيان معنى الحنيفية.

٢: بيان أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد.

٣: بيان أعظم ما نهى الله عنه وهو الشرك.

٤: بيان الأصول الثلاثة التي يجب على العبد معرفتها وهي: معرفة العبد ربه ونبيه ودين الإسلام بالأدلة.

٥: دراسة الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه جل وعلا.

٦: بيان معنى الرب.

٧: بيان طرق معرفة العبد ربه جل وعلا.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

(اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبْراهِيمَ - : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وبِذَلكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بالْعِبَادَةِ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُوْلُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُها؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ: مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، **وَكُلُّ مَن سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.**

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَعْبُودُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢]

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (الْخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ).

بسم الله الرحمن الرحيم

الإثنين: ٢٨ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا شروع في شرح رسالة ثلاثة الأصول وأدلتها، والرسالتان السابقتان ملحقتان بهذه الرسالة كما تقدم بيانه، وهما رسالتان مهمتان جليلتان ينبغي لطالب العلم أن يعتني بهما.

ودرسنا اليوم في بيان سبعة عناصر، إذا فهمناها جيداً فهمنا درس اليوم، ونأتي الآن لبيان العنصر الأول:

❑ ١: **بيان معنى الحنيفية، وأنها ملة إبراهيم عليه السلام التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعها، وهي ملة التوحيد.**

❑ قوله: **(اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ)** الدعاء للمتلقي فيه تلطف له كما سبق بيانه.

والإرشاد هو الدلالة على طريق الرشد، والرشد هو إصابة الحق، وهو ضد الغي.

قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾

وقال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

فالغي والغواية بمعنى واحد ومعناهما: الضلال والخطأ ومخالفة الصواب والانهماك في الباطل.

والرشد نقيضه وهو الحق والصواب والهدى.

❑ قوله: (**لِطَاعَتِهِ**) **الطاعة هي** امتثال الأمر واجتناب النهي.

❑ قوله: (**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ - مِلَّةَ إِبْراهِيمَ - : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ**).

إبراهيم عليه السلام لما رأى قومه على الشرك في عبادة الله عز وجل بين لهم الأدلة على التوحيد وقال لهم كما حكى الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

حنيفاً أي مستقيماً موحداً.

قال ابن جرير: (وأما"الحنيف"، فإنه المستقيم من كل شيء، وقد قيل: إن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى، إنما قيل له"أحنف"، نَظَرًا له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد"المفازة"، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للديغ: "السليم"، تفاؤلاً له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك).ا.هـ.

ويقال: رجل يتحنف أي يتحرى أقوم الطريق.

فالحنيف هو المستقيم على الطريقة، **والملة الحنيفية هي** الدين المستقيم، وهو دين التوحيد.

كما قال الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا أنه قال: «إني خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً».

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

قال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث وينصر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هجوت مباركاً براً حنيفاً أمينَ الله شيمته الوفاء

حنيفاً أي مستقيماً لا تجدون عليه مغمزاً.

قال الراعي النميري يبين للخليفة حال قومه وكذب الوشاة عليهم :

خليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا

فتبين بذلك أن **الحنيفية هي** الملة القويمة المستقيمة التي لا ميل فيها ولا انحراف ولا مطعن فيها ، وهي ملة التوحيد.

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم الحنيفية ، وأثنى الله تعالى في كتابه الكريم على إبراهيم بأنه كان حنيفاً في مواضع كثيرة من القرآن :

- قال الله تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
- وقال : ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
- وقال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾
- وقال : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
- وقال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
- وقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فهذه الحنيفية التي مدحها الله عز وجل ، وأثنى على أهلها ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها ، وأمر بها عباده هي : أن يكونوا مستقيمين على الدين القيم لا يشركون بالله شيئاً ، مخلصين العبادة لله جل وعلا.

وهو أمر بين الدلالة من الآيات السابق ذكرها.

❑ قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

❑ قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) هذا هو معنى الحنيفية التي أمر الله بها.

والإخلاص في اللغة: التصفية والتنقية

ومعناه: تخليص الأعمال من الشرك بالله جل وعلا، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة لا شريك له.

ومن أخلص العبادة لله فهو من المسلمين الموعودين بدخول الجنة والنجاة من النار.

ومن لم يخلص لله تعالى فهو مشرك كافر مخلد في عذاب جهنم. والعياذ بالله.

فالإخلاص في العبادة هو: إفراد الله تعالى بها، بأن يؤديها لله وحده لا شريك له، تقرباً إليه جل وعلا بامتثال أمره ورجاء ثوابه وخوف عقابه.

ومن لم يعبد إلا الله فقد أخلص العبادة لله جل وعلا، وصفاها ونقاها من عبادة غيره جل وعلا، وهذا هو التوحيد المأمور به.

والله تعالى يحب عباده المخلصين ويتولاهم ويحفظهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعدهم الوعد الحسن بفضله العظيم في الدنيا والآخرة، ويبشرهم بما يثبتهم به على الإخلاص له، ويشوقهم به إلى لقائه والفوز بفضله ورضوانه.

والمسلمون يتفاضلون في الإخلاص وكلما كان العبد أكثر إخلاصاً في العبادة بقوة الاحتساب وإحسان العبادة والازدياد من النوافل بعد أداء الفرائض كان أحب إلى الله وأقرب إليه زلفى.

فهذا شأن المخلصين.

➢ وأما من صرف عبادة من العبادات لغير الله تعالى فهو غير مخلص لله في العبادة، وإنما أشرك معه غيره، فيستحق على شركه العذاب الشديد والحرمان مما جعله الله لعباده المخلصين من الثواب العظيم، وهذا هو الخسران المبين، نعوذ بالله من الخسران.

❑ قوله: **(وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ).**

أي خلقهم الله لعبادته كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذا الأسلوب في لسان العرب يسمى الحصر، فالله حصر الغاية من خلق الجن والإنس في عبادته جل وعلا وحده لا شريك له.

فمن لم يفعل ذلك لم يؤدِّ ما خلق لأجله؛ فيستحق العذاب على تركه ما خلق لأجله.

➢ أما من امتثل هذا الأمر فعبد الله وحده لا شريك له فقد أدَّى ما خُلِق لأجله، وقد جعل الله له الثواب العظيم الجزيل، ووعده أن يدخله الجنة خالداً فيها في النعيم المقيم، نسأل الله من فضله.

فالغاية من خلق الجن والإنس هي عبادة الله وحده لا شريك له.

والإنس هم: بنو آدم عليه السلام، سموا إنساً لأنهم يأنس بعضهم ببعض.

والجن سموا جناً لاجتنانهم أي استتارهم عن أنظار الناس كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

❑ قوله: **(وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ)** هذا تفسير باللازم، لأن العبادة إذا لم تكن خالصة لله تعالى فهي باطلة، ليست بشيء، ويجعلها الله يوم القيامة هباء منثوراً كما قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

فعلم أن العبادة التي تنفع صاحبها إنما هي العبادة المقبولة التي أخلص بها العبد لربه جل وعلا، فهذه العبادة لا تصح إلا من الموحدين الذي شهدوا الشهادتين العظيمتين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فتكون عباداتهم خالصة لله تعالى صواباً على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك تكون مقبولة عند الله نافعة لهم.

❏ ٢: بيان أعظم ما أمر الله به.

❏ قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ).

عرف التوحيد بأنه إفراد الله تعالى بالعبادة.

وهذا هو تعريف توحيد الألوهية، وهو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل وقومهم.

وأما توحيد الربوبية فلم يخالف فيه إلا قلة وهم الملاحدة والثنوية.

والذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ولم يدخلوا في دين الإسلام لأنهم لم يفردوا الله تعالى بالعبادة ولم يطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أعظم ما أمر الله به وهو التوحيد.

❏ قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ).

كيف نعرف أن أعظم ما أمر الله به التوحيد؟

الجواب: يتبين ذلك بأمور:

١: أنه أول ما كان يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو أول ما كان يدعو إليه الرسل كلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

وهذا تجده مبينا فيما قصه الله من أنباء الرسل مع قومهم في القرآن الكريم:

- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

- وقال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
- وقال: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

فهذه دعوة الرسل قومهم إلى توحيد الله تعالى.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله»

٢: أن توحيد الله تعالى هو مفتاح الدخول في الإسلام، وبدونه لا يكون المرء مسلماً، وإذا ارتكب العبد فعلاً ينقض هذا التوحيد خرج من دين الإسلام.

ومن خرج عن دين الإسلام فهو كافر مخلد في نار جهنم والعياذ بالله.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ❖ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

٣: أن ثواب فاعله أعظم الثواب وهو رضوان الله تعالى ومحبته والخلود في الجنة، وعقاب تاركه أعظم العقاب وهو سخط الله تعالى ومقته والخلود في نار جهنم، والعياذ بالله.

فالتوحيد هو أعظم ما أمر الله به.

والتوحيد: مصدر وحَّد يُوحِّد توحيداً إذا جعل الشيء واحداً، فإذا جعل العبد قصده واحداً لله جل وعلا، ولم يقصد بالعبادة شريكاً له تعالى فهو موحد مخلص لله جل وعلا.

والذين يصرفون شيئاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى غير موحدين، بل هم مشركون خارجون عن دين الإسلام مستحقون للعذاب الشديد والخلود في نار جهنم والعياذ بالله.

وأقسام التوحيد ثلاثة:

١: **توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله تعالى بأفعاله من الخلق والرزق والملك والتدبير وغيرها.

٢: **توحيد الألوهية:** وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

٣: **توحيد الأسماء والصفات**، وهو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

❑ ٣: أعظم ما نهى الله عنه.

قوله: (**وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦]).

أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك، ويعرف ذلك بأمور:

١: أن أول دعوة الرسل هي إلى التوحيد وترك الشرك.

٢: أن من لم ينته عن الشرك فهو كافر غير داخل في دين الإسلام.

٣: أن عقاب الشرك أعظم العقاب، وأن الله لا يغفر لمن صدر منه الشرك مهما كان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

وقال الله تعالى بعدما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾

فالأنبياء – على صلاحهم وشرفهم وقربهم من الله تعالى وعظيم محبته لهم - لا يغفر لهم الشرك بالله جل وعلا لو وقع منهم، وقد علمنا أن الله تعالى قد عصمهم من الشرك، وبقي الخطاب يتلى علينا لنتدبره ونتأمله، ونفهم منه عظيم جرم الشرك.

فغير الأنبياء أولى بأن لا يغفر لهم إذا أشركوا.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فبدأ بأعظم ما يخافه عليه.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» متفق عليه.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم، قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تزاني حليلة جارك».

فخطر الشرك عظيم، وهو أعظم ذنب عصي الله به، والمشرك يمقته الله مقتاً كبيراً، ولا يقبل منه عملاً ما دام مشركاً، ومن وقع في الشرك بعد إيمانه حبط عمله وأصبح من الخاسرين.

فهو أكبر الكبائر، وأعظم الظلم، وهو خيانة لأعظم الأمانات وأعظم الحقوق، وهو حق الله عز وجل في الأمر الذي خلق الخلق لأجله.

وهذا يدلك على وجوب التحرز من الشرك.

❑ قوله: **(وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)**

عرف الشرك بالله بأنه دعوة غيره معه، وهو تعريف حسن دل عليه النص على اختصاره ووفائه بالدلالة على المراد.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾

وقال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا

دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

❐ قوله: **(وهو دعوة غيره معه)** يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

والشرك على قسمين:

▫ **أحدهما: الشرك الأكبر**: ويكون في الربوبية والألوهية:

- **أما الشرك الأكبر في الربوبية فهو**: اعتقاد شريك لله تعالى في أفعاله من الخلق والرزق والملك والتدبير.

- **وأما الشرك الأكبر في الألوهية**: فهو عبادة غير الله تعالى.

▫ **والقسم الآخر: الشرك الأصغر**، وهو ما كان وسيلة للشرك الأكبر وسمي في النصوص شركاً من غير أن يتضمن صرفاً للعبادة لغير الله عز وجل.

ومثاله: الرياء بتحسين أداء الصلاة، لطلب مدح الناس وإعجابهم على عبادته لله جل وعلا.

فهو صلى لله، لكنه أراد أن يمدحه الناس على حسن صلاته، وربما زاد في تحسينها ليزداد الناس في مدحه.

وهو شرك أصغر، لأنه لم يخلص القصد لله جل وعلا، وليس بشرك أكبر لأنه لم يعبد غير الله.

وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

❐ قوله: **(والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً﴾)**.

قرن النهي عن الشرك بالأمر بعبادة الله تعالى فتبين بذلك معنى التوحيد، وهذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة، وبدأ الله فيها بحقه جل وعلا الذي خلق الخلق لأجله.

❑ ٤: **الأصول الثلاثة.**

❑ قوله : **(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُوْلُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُها؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).**

صاغ المؤلف رحمه الله هذه المسائل بطريقة السؤال والجواب لتكن أقرب للفهم، وأيسر للتلقين للعامة والناشئة.

وينبغي أن يعتنى بتعليم الناشئة هذه المسائل وتلقينهم إياها حتى ينشأوا على معرفة هذه الأصول العظيمة التي هي أصول الدين.

والأصول جمع أصل، وهو ما ينبى عليه الشيء.

فمن لم يقم أصول الدين فدينه ليس له أصل.

وأصول دين الإسلام هي هذه الثلاثة وهي راجعة إلى معنى الشهادتين.

فمعرفة العبد ربه هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وهو الأصل الأول.

ومعرفة العبد نبيه صلى الله عليه وسلم هي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما **دين الإسلام فهو** الرسالة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم.

فههنا ثلاثة أمور: مُرسِل، ورسول، ورسالة.

فالمرسِل هو الله جل وعلا.

والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم.

ورسالته هي دين الإسلام.

فالدين لا يقوم إلا على هذه الأصول الثلاثة، فهي أصول الدين.

ولذلك فإن هذه الأصول هي التي يسأل عنها العبد في قبره

كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الميتَ ليسمع خَفْق نعالهم إذا وَلَّوْا مدبرين حين يقال له: يا هذا، مَنْ ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومن نَبِيُّكَ».

وهذه الرسالة هي في شرح هذه الأصول الثلاثة، التي هي أصول الدين.

وطالب العلم يحتاج إلى هذا التأصيل، لأن مسائل الدين كلها ترجع إلى هذه الأصول الثلاثة.

❑ ٥: الأصل الأول: معرفة العبد ربه جل وعلا.

❑ ٦: بيان معنى (الرب).

❑ قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ: مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وَكُلُّ مَن سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ).

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)

هذا شروع في بيان الأصل الأول، وهو معرفة العبد ربه جل وعلا.

[بيان معنى (الرب)]

والرب هو الجامع لجميع معاني الربوبية من الخلق والملك والإنعام والتدبير والتربية والإصلاح؛ فالربوبية في اللغة تشمل هذه المعاني كلها.

- فهو الخالق العظيم والخلاق العليم الذي خلق كل شيء، فما من موجود من المخلوقات إلا والله تعالى خالقه وحده لا شريك له.

- **ومن معاني (الرب) في لسان العرب:** المالك؛ فرب الشيء هو مالكه، ورب الدار: صاحبها ومالكها، ورب الإبل: مالكها.

ولا يطلق هذا اللفظ بغير الإضافة إلا على الله عز وجل، فهو الرب وحده.

والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، لا يخرج شيء عن ملكه، فهو مالك كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، فله جميع معاني الملك، فيملك المخلوقات، ويملك تصرفاتها ويملك تدبيرها والتصرف فيها، فلا تتصرف إلا بإذنه.

وهو الذي يملك بقاءها وفناءها، وحركاتها وسكناتها، فيبقيها متى شاء، ويفنيها إذا شاء، ويعيدها إذا شاء.

بل لا تملك جميع المخلوقات لنفسها نفعاً ولا ضراً إلا بإذنه جل وعلا.

وهذا مما يوجب توحيده جل وعلا بالعبادة، وطاعته فيما يأمر به،وينهى عنه. ولذلك أنكر الله تعالى على من يعبد غيره فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ وبقية المعاني العظيمة للربوبية العامة من الإنعام والإصلاح والتربية والتدبير هي من آثار اسمه (الملك)، فهو جل وعلا مالك النعمة ومُوليها، الذي ربى خلقه بالنعم، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأصلح خلقهم وأحسنه، وأصلح أحوال معاشهم، فمهَّدَ لهم الأرض، وأنبت لهم فيها من كل الثمرات، وبث فيها من كل دابة، وأنزل لهم من السماء ماء، وجعل في الأرض الجبال الرواسي، والأودية والأنهار والآبار والبحار التي تحفظ لهم الماء، وجعل لهم الأنعام لهم فيها منافع كثيرة، وعَلَّمَهم الحِرَفَ التي يكتسبون بها أقواتهم.

وهو الذي حفظ لهم هذا الملكوت العظيم الذي يعيشون فيه فأمسك السموات أن تقع على الأرض، وجعل الأفلاك تسير في نظام دقيق محكم تقوم به مصالح العباد في معاشهم وسائر أمور حياتهم

فحماهم من شدة البرد وشدة الحر وأذاقهم شيئاً يسيراً منهما ليذكروا نعمة ربهم فيما صرف عنهم، وإلا لو قربت الأرض من الشمس مداراً أو مدارين لم يطق الناس شدة الحر، ولو ابتعدت مداراً أو مدارين لم يطيقوا شدة البرد.

وكل ذلك إنما هو ذكر لأمثلة يسيرة مما نعلمه ونشاهده من معاني ربوبيته جل وعلا، من باب تقريب الصورة وتوضيح المراد، وإلا لو تأملت تلك المعاني العظيمة حق التأمل وتفكرت في آثارها في الخلق والأمر لأفضت بك إلى نظر فسيح في ملكوت الله جل وعلا لا تملك معه إلا أن تسبح بحمده، وتوحده جل وعلا، ولأيقنت أن العالم لا صلاح له إلا بأن يكون ربه واحدا، بل لا يمكن أن يكون له أرباب متعددون كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

فكما أن الكون ليس له إلا رب واحد على الحقيقة، فلا يكن في قلبك إلا إله واحد هو هذا الرب العظيم، فأسلم قلبك له واعبده وتوكل عليه.

فاسم الرَّبِّ يقتضي أن نعبده جل وعلا ونفرده بالعبادة ولهذا قال تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فاستدل على توحيد العبادة باسم الربوبية.

فلأنه ربنا الذي خلقنا من العدم، وأسبغ علينا النعم، لم نكن شيئاً قبل خلقه لنا، ولم يخلقنا غيره، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً إلا بما شاء، فإخلاص العبادة له حق واجب، وشكر نعمته فرض لازم.

وعبادة غيره ضلال مبين، وظلم عظيم، إذ كيف يعبد من لا يخلق شيئاً.

والربوبية لها معنيان:

- **ربوبية عامة** بالخلق والملك والإنعام والتدبير، وهذه عامة لجميع المخلوقات.
- **وربوبية خاصة** لأوليائه جل وعلا بالتربية الخاصة والهداية والإصلاح والنصرة والتوفيق والتسديد والحفظ.

والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها.

وأنت إذا تأملت هذه المعاني تبين لك بجلاء أنه لا يستحق العبادة أحد إلا الله جل وعلا، وأن عبادة غيره ظلم عظيم، وكفر مبين، وسفه وضلال.

فهذه إلماحة يسيرة لبعض معاني الربوبية، تطلعك على ما وراءها من المعاني العظيمة وتشرع لك أبواب التفكر فيها.

ويطلق لفظ (الرَّبّ) في النصوص ويراد به المعبود، كما في سؤال العبد في قبره: من ربك؟ المراد به من معبودك الذي تعبده؟

ولأن العبادة من لوازم الربوبية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الآيات

فذكر من آلاء ربوبيته ما نبَّه به على الأسباب الموجبة لاستحقاقه العبادة وحده لا شريك له جل وعلا.

والربُّ الحق هو الله، وهو المعبود الحق، فهذه المعاني تجتمع في حق الله تعالى اجتماعاً صحيحاً.

وأما ما عبد من دون الله، فليس معبوداً بحق، وليس برب على الحقيقة، وإنما اتُّخِذَ رباً، واتُّخِذَ إلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

قال عدي بن حاتم: (يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم)

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه و يحلون ما حرم الله فتستحلّونه؟»

قال عدي: بلى.

قال صلى الله عليه وسلم: «فتلك عبادتهم») رواه أحمد والترمذي وحسنه جماعة من أهل العلم.

ففهم عدي - رضي الله عنه - من هذا اللفظ معنى العبادة، لأن اتخاذ الشيء رباً معناه عبادته، لأن الربوبية تستلزم العبادة.

ولذلك قال الله تعالى في أول أمر في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

فإذا قيل: الرب هو المعبود، فهذا الإطلاق صحيح باعتبار، وإذا قيل: من معاني الرب فصحيح باعتبار آخر.

❏ قوله: **(وهو معبودي ليس لي معبود سواه)**

هذا تلقين للمتلقي، وبيان له بأن لا يكون له معبود سوى الله جل وعلا.

وقد ذكرت بيان إطلاق لفظ (الرَّبّ) على المعبود.

❏ **٧: طرق معرفة العبد ربه جل وعلا.**

❏ قوله: **(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟**

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿لَخَلْقُ السّماواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالى:﴿إِنّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. **وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَعْبُودُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢]

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (الْخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ)).

لمعرفة العبد ربه جل وعلا طريقان بينهما الله عز وجل في كتابه الكريم:

الطريق الأول: التفكر في آياته الكونية المخلوقة.

والطريق الآخر: التفكر في آياته الشرعية وهي آيات القرآن العزيز وما تضمنه أمره جل وعلا في كتابه وفي غيره من الآيات البينات.

و(الآية) في اللغة: تطلق على العلامة وعلى الرسالة وعلى الجماعة.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي علامة في قول الجميع لا أعلم في ذلك خلافاً.

وفي الصحيحين من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

فالآية هي العلامة البينة الدالة على المراد.

ومن الإطلاق الثاني قول كعب بن زهير:

ألا أبلــغا هــذا المعــرض آيــة   أيقظان قال القول إذ قال أو حلم

وهذا استعمال مشهور في لغة العرب.

فالآيات هي علامات بينات على ما أراده الله تعالى بها، وهي رسائل من الله إلينا.

والعلامة وإن كان فيها معنى الظهور والبيان والدلالة على الشيء حيث جعلت عليه ومنه سمي الجبل علماً، لدلالته على الموضع دلالة بينة إلا إن لفظ الآية أبلغ في البيان والدلالة من لفظ (العلامة) ولذلك استعمل في القرآن الكريم.

ففيها زيادةً على معنى الدلالة معنى الوضوح والجلاء والبيان، ومنه يقال (إياة الشمس) يعني ضوؤها، وقولك في التفسير والتبيين: (أي) هو من هذا الأصل الذي هو التبيين والوضوح والجلاء.

وهذا مما يدل على براعة التعبير القرآني، وأسرار اختيار بعض الألفاظ على بعض.

قال الخليل بن أحمد: (الآية: العَلامةُ، والآية: من آيات الله، والجميع: الآي)

قوله: (والآية: من آيات الله) يشمل الآيات الكونية والشرعية

- **فالآيات الكونية**: الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض وما أنعم به من سائر النعم كلها آيات على أنها من عند الله جل وعلا وهي علامات بينات لا ينكرها إلا مُكابِر مُعانِد.

- **والآيات الشرعية هي**: آيات القرآن المتلوة، سميت بذلك لأنها دالة على أنها من عند الله عز وجل.

ولأن فيها من البراهين البينة ما يوجب قيام الحجة على من بلغته.

وقد ذكر الله تعالى في الكتاب براهين عقلية تدل على بطلان عبادة ما يعبد من دون الله قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

- فذكر ثلاثة أدلة بينة على أن هؤلاء الشركاء الذين يُدعون من دون الله لا يستحقون أن يعبدوا من دون الله جل وعلا.

١: فهم لم يخلقوا شيئاً، وعبادة من لا يخلق من دون خالقه سفه وضلال كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

٢: وليس لهم نصيب في الملك يشاركون الله فيه، فيسألهم من يدعوهم من نصيبهم الذي يملكونه.

٣: ولم يأذن الله بعبادتهم.

فبطل ما كانوا يغرون به بعضهم من زخرف القَوْل والعِدَات الباطلة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ بيان لسنة كونية لا تنخرم، وهي أن الظالمون إنما يغر بعضهم بعضاً ويمنّي بعضهم بعضاً حتى إذا أتوا ما يمقتهم الله عليه وعاينوا عذابه لم تنفعهم وعودهم ولم تغن عنهم من الله شيئاً.

وهذه الآية نظير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾

فلم يخلقوا شيئاً ابتداء، وليس لهم فيه شراكة في الملك، ولم يؤذَن بعبادتهم.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فتأمّلْ كيف أخذَتْ هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك؟!!

وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؟!!

فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه وإلا فلو لم يرجُ منه منفعةً لم يتعلّقْ قلبه به.

وحينئذ **فلا بدَّ أن يكون المعبودُ:**

- مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده.
- أو شريكاً لمالكها.
- أو ظهيرا أو وزيراً ومعاوناً له.
- أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت موادُّه.

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقالَ ذرَّة في السموات والأرض.

فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق!

فنفى شركتها له.

فيقول المشرك: قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً!

فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾

فلم يبقَ إلا الشفاعة؛ فنفاها عن آلهتهم.

وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذنُ للشافع؛ فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين؛ فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها.

وأما منْ كلُّ ما سواهُ فقيرٌ إليه بذاتِهِ، وهو الغني بذاتِهِ عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!!).

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾

- وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾

تجدون فيه بياناً جلياً على وجوب إفراد الله تعالى، وتحريم الشرك، وأنه حد بين الكفر والإيمان.

وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) ﴾

فأصبح مع الموحدين حجج وجوب التوحيد، ومن أهمها:

١ : أن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر فهو المستحق للعبادة.

٢ : أن الله تعالى هو الذي بيده وحده النفع والضر وغيره لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي الذي يعلم أحوالكم ويسمع دعاءكم.

٣ : أن الموحدين معهم سلطان الحجة والبرهان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له، وبذلك أرسلت إليهم الرسل.

٤ : وأن المشركين الظالمين إنما يغر بعضهم بعضاً وأنهم لا حجة لهم على الشرك، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

والمقصود أن من تأمل الآيات الكونية والآيات الشرعية تبين له وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وأن من أشرك بالله شيئاً فهو من الخاسرين.

ولكن الظالمين يكون لديهم علوم يفرحون بها، ومزاعم يغترون بها، ويتعامون عن التفكر في ما أمر الله بالتفكر فيه، بل كرر الأمر به في مواضع كثيرة من القرآن العظيم، فيتعامى أولئك الظالمون عن تلك الآيات البينات، ويفرحون بما عندهم من العلم الدنيوي، ويُعرضون عما جاءت به الرسل، ويستهزئون بهم وبما جاؤوا به حتى إذا فنيت أعمارهم، وانقضت مهلة بقائهم في الدنيا، ورأوا ما كانوا يوعدون تبين لهم أنهم كانوا خاطئين وعرفوا من أول ما يرون آيات الآخرة أن الشرك بالله باطل وضلال مبين، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان ولا يقبل منهم، ويتخلى عنهم الشيطان بعد أن أوردهم المهالك، وكتب عليهم الشقاء الأبدي، وحرمت عليهم السعادة أبداً، وخسروا الخسران المبين والعياذ بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ

الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾

الدرس السادس: بيان معنى العبادة وأنواعها (١/٣)

عناصر الدرس:

١: بيان معنى العبادة.

٢: العهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا.

٣: درجات تحقيق العبودية لله تعالى.

٤: العبادة الكونية والعبادة الشرعية.

٥: بيان وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأربعاء: ١ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

أما بعد:

لما ذكر المؤلف رحمه الله أن الأصل الأول من أصول الدين هو معرفة العبد ربه جل وعلا، وبين أن أعظم ما أمر الله به التوحيد وفسره بأنه إفراد الله بالعبادة، وذكر الدليل على ذلك، وبين أن أعظم ما نهى الله عنه هو الشرك في عبادة الله جل وعلا، اقتضى الترتيب أن يبين معنى هذه العبادة التي لها هذا الشأن العظيم التي يجب إفراد الله تعالى بها، والتي من صرف شيئاً من أنواعها لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر.

وموضوع درسنا اليوم هو في بيان معنى العبادة وأنواعها.

❏ ١: بيان معنى العبادة.

قال ابن جرير رحمه الله: (العبودية، عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذلّلته السابلة (معبَّدًا) ومن ذلك قولَ طَرَفَة بن العَبْد:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجياتٍ وأَتْبَعت   وَظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالمَوْر: الطريق، وبالمعبَّد: المذلَّل الموطوء.

ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج: معبَّد.

ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه.

والشواهد على ذلك - من أشعار العرب وكلامها- أكثرُ من أن تُحصى، وفيما ذكرناه كفاية لمن وُفِّق لفهمه إن شاء الله تعالى).

فهذا تعريف لها باعتبار أصل معناها الملازم لها، واعتبار هذا المعنى مهم.

والعبادة على نوعين:

١: عبادة كونية.

٢: عبادة شرعية.

فأما **العبادة الكونية** فهذه عامة لجميع الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

فهو سبحانه مالك الخلق أجمعين لا يخرج أحد منهم عن ملكه وتدبيره، ولا يمتنع أحد منهم عنه، لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق لهم إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

وأما **العبادة الشرعية**: فلها تعريفات ذكرها بعض أهل العلم، وقد سلكوا مسالك في التعريف: ومن أحسنها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة (العبودية)

قال رحمه الله تعالى: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

فهذا تعريف باعتبار ما يشمله اسم العبادة مما شرع للعبد أن يتعبد به في شريعة الإسلام.

وقول ابن جرير: (العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة) هذا بيان لما تكون به العبادة فهي لا تكون إلا بتذلل وخضوع **ثم يصحب ذلك في العبادات الشرعية التي أمر الله بها ثلاثة أمور:**

الأمر الأول: المحبة

الأمر الثاني: الانقياد.

الأمر الثالث: التعظيم.

فالعبادة لا تسمى عبادة حتى تجتمع فيها ثلاثة أمور:

الأمر الأول: المحبة العظيمة، فالعبادة هي أعظم درجات المحبة، ولذلك لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

قال الشاعر يصف شدة حبه لمحبوبته:

لا تـدعني إلا بـ(يـا عبـدها) فإنـه مـن أشـرف أسمائـي

وقال إبراهيم الصولي:

وهان عليَّ اللوم في جنب حبها وقـول الأعـادي إنـه لخليـع

أصمُّ إذا نوديت باسمي وإنـني إذا قيـل لـي يـا عبدهـا لسـميع

نعوذ بالله من الخذلان.

فالعابد مُحِبٌّ لمعبوده أشد المحبة؛ يقدِّم محبته على محبة النفس والأهل والولد والمال، لا يهنأ إلا بذكر محبوبه، ولا يأنس إلا بفعل ما يحبه، فذكره في قلبه ولسانه لا يكاد يكل ولا

يمل من ذكره، بل يأنس بذكره في كل أحيانه، ويجتهد في كسب رضاه ومحبته، حتى لو بلغ الأمر به أن يضحي بنفسه في سبيله.

وهذه المرتبة من المحبة لا يستحقها أحد غير الله عز وجل.

وإذا عظمت محبة الله في قلب العبد قادته إلى الاستقامة على طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فهو يطيعه محبة له ورغبة ورهبة.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

وهذه الآية يسميها العلماء آية الامتحان، فإن دعوى المحبة سهلة، ولكن صدقها يبين بهذا الامتحان وهو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أثبت صدق محبته لله تعالى، وأحبه الله جل وعلا وأفاض عليه من فضله ورحمته وأول ذلك مغفرته لذنوبه التي هي سبب الشقاء والعذاب.

وينبغي للمؤمن أن يفقه معنى قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فوصف الله محبة عباده المؤمنين له بأنها شديدة قوية متينة وهذا يقتضي أنهم لا يقدمون طاعة غير الله على طاعة الله، فمن فعل ذلك فإنما هو لنقص في إيمانه.

ومحبة الله تورث في نفس المؤمن حلاوة وعزة ورفعة لا يجدها غيره أبداً، وذلك أن الله له ما في السموات وما في الأرض، وله الدنيا والآخرة، وقد كتب العزة والرفعة والحياة الطيبة لعباده المؤمنين الذين يحبونه ويتولونه، ويفعلون ما يحبه ويرضاه، وجعلَهم حزبَه وأولياءَه وأنصارَه وأتباعَه وعبادَه فأضافهم إليه إضافة تشريف وتكريم تقتضي لطفه بهم ومحبته وتوليه لهم، فـ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو وليهم الذي يتولى أمورهم ويجيب دعاءهم ويقضي حوائجهم ويفرج كروبهم ويعينهم ويعيذهم ويغيثهم ويغفر لهم ويرحمهم ويحفظهم ويتقبل أعمالهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

ومن كملت محبة الله في قلبه كملت طاعته واستقامته، ومن كملت طاعته لم يعذبه الله أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فالمحبة تمنع العذاب.

ولذلك قال الحسن البصري: (والله لا يعذب الله حبيبه في النار).

وإنما يقع العبد في الذنوب والمعاصي إذا ضعف إيمانه وقل يقينه، وضعف حبه لله وحبه لثوابه، حتى يؤثر اللذة الفانية على ثواب الله الباقي، فيقع في التقصير ويستحق من العذاب بقدر ما يعمل من المعاصي.

ولو أن العبد عظَّمَ محبة الله في قلبه لآثر ما يحبه الله ويرضاه على ما تحبه نفسه وتهواه.

الأمر الثاني: التعظيم والإجلال، فإن العابد معظِّمٌ لمعبوده أشد التعظيم، ومُجِلٌّ له غايةَ الإجلالِ، فالتعظيم من لوازم معنى العبادة.

ولذلك تجد المؤمن بالله معظِّماً لربه جل وعلا، ومعظماً لحرماته وشعائره، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فتعظيم الشعائر والحرمات من آثار تعظيم المؤمن لربه جل وعلا، وإجلاله له.

وكما أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه تعظيماً شديداً، وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: تعظموه شكراً له على هدايته لكم.

ومن تأمل أسماء الله الحسنى وتأمل آثارها في الخلق والأمر تبين له بعض معاني عظمة الله جل جلاله، وأورثه ذلك تعظيم أوامره ونواهيه، والحرص على أن يكون من أوليائه وحزبه المفلحين، واشتد كرهه لما يعرضه لمقت الله وسخطه.

الأمر الثالث: الانقياد والخضوع والتذلل، يقال طريق معبَّد أي مذلَّل، فالعابد منقاد لمعبوده خاضع له.

وهذا الذل والخضوع والانقياد لا يجوز صرفه لغير الله عز وجل.

وذل العبد لله عز وجل وانقياده لطاعته هو عين سعادته، وسبيل عزته ورفعته، ومن ذل لله رفعه الله وأعزه، ومن استكبر واستنكف أذله الله وأخزاه، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ويذله ويهينه.

ولذلك فإن أعظم الخلق خشية لله وانقياداً لأوامره الأنبياء والملائكة والعلماء والصالحون، وهم أعظم الخلق عزة رفعة وعلواً وسعادة.

وأعظم الخلق استكباراً واستنكافاً مردة الشياطين، والطغاة والظلمة، وهم أعظم الخلق ذلاً ومهانة.

ومن تأمل أحوال الشياطين وأعمالهم الشريرة المهينة وأماكنهم النجسة القذرة، وأحوال أتباعهم من المجرمين والطغاة والعصاة، وعرف أخبارهم ونهاياتهم تبيّن له الفرق الكبير بين من أكرمه الله وأعزه، ومن أذله الله وأخزاه.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

وهذه الأمور الثلاثة (المحبة والتعظيم والانقياد) مبنية على التذلل لله جل وعلا، وبها يتحقق معنى العبودية لله جل وعلا.

ولقبول هذه العبودية لا بد من شرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله جل وعلا.

والشرط الثاني: أن تكون هذه العبادة على ما شرع الله عز وجل بما أنزله في كتابه العظيم وبينه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وبتحقيق هذين الشرطين: إخلاص العبادة لله عز وجل، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، يكون العبد من المسلمين الموعودين بدخول الجنة، ومن نقض شرطاً منهما فليس من أهل الإسلام والعياذ بالله.

فالشرط الأول هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

والشرط الثاني هو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

ولا يصح إسلام عبد حتى يشهد هاتين الشهادتين.

❑ ٢: العهد العظيم بين العبد وربه جل وعلا.

مَن شهد أن لا إله إلا الله فقد عاهد الله أن يخلِص العبادة له وحده، وبهذا العهد يدخل في دين الإسلام، وقد علمتَ معنى العبادة فيما سبق من الشرح والبيان.

فإذا شهدت أن لا إله إلا الله فاعلم أنك قد عاهدت الله أن تحبه المحبة الشديدة، وأن تعظمه، وأن تخضع له وتنقاد لأمره.

ولذلك كانت (لا إله إلا الله) أعظم الحسنات، وأعلى شعب الإيمان، ومفتاح الجنة، وأفضل الذكر، ومن كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة.

وهذا العهد العظيم جزاء من وفى به أن يدخله الله الجنة، ومن خان هذا العهد وغدر ونقضه أدخله الله النار.

فهذا العهد الذي بين العبد وربه بالتوحيد وإخلاص العبادة له هو أعظم العهود، وأعظم الأمانات.

وجزاؤه وثوابه أعظم الجزاء والثواب.

وعقاب نقضه ونكثه أعظم العقاب.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ﴾

وكل عبادة لغير الله تعالى فهي عبادة للشيطان لأنها طاعة له في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله وأعظم ما حرم الله تعالى هو الشرك، سواء شعر الإنسان أنه يطيع الشيطان أو لم يشعر.

قال الله تعالى في حكاية قسم الشيطان لربه جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)﴾

فضمن الله تعالى لعباده المخلصين ألا يتسلط عليهم الشيطان، وبين أن الشيطان لا يتسلط إلا على أتباعه الغاوين.

وتسلط الشيطان على الإنسان ومحاولة تسلطه على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التسلط التام، وهذا إنما هو على المشركين والمنافقين، لأن اتباعهم للشيطان اتباع كامل فاستحقوا التسلط التام.

قال الله تعالى في المنافقين: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ❖ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ❖ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

فهذا السلطان التام إنما هو على أوليائه الذين تولوه ودخلوا في حزبه وأشركوا به؛ فهم خارجون عن دين الإسلام وعن ولاية الله عز وجل وحزبه.

الدرجة الثانية: التسلط الناقص وهو باستزلال الشيطان للإنسان، وهذا لايكون تاماً على المسلمين، بل هو نوع تسلط يقوى ويضعف بحسب درجة اتباع العبد لخطوات الشيطان فكلما كان اتباعه أكثر كان تسلط الشيطان عليه أكبر، وقد يحرم العبد التوفيق لبعض

الطاعات بسبب اتباعه لخطوات الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ❖ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١- ٢٠٢]

فالاستزلال سببه اتباع خطوات الشيطان، ومن اتبع خطوات الشيطان كان على خطر أن يزله الشيطان، وأصحاب هذه الدرجة من المسلمين لا يتمكن الشيطان منهم تمكناً تاماً فيستحوذ عليهم ولا يسلمون منه سلامة تامة بسبب اتباعه لخطواته فهم وإياه في جهاد، ومن تهاون منهم في اتباع خطواته كان على خطر أن يستزله الشيطان حتى يستحوذ عليه والعياذ بالله.

الدرجة الثالثة: النزغ، وهذا ليس تسلطاً وإنما هو محاولة من الشيطان لاستجراء العبد ليتبع خطواته فإن اتبع خطواته استزله، وإن استعاذ العبد بالله عصم منه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

- **والاستعاذة التامة تكون بالقلب والقول والعمل**، ومن كملت استعاذته كملت إعاذته وعصم من كيد الشيطان، ومن كانت استعاذته ناقصة لم يكن له عهد بأن يعصم من كيد الشيطان العصمة التامة التي ينجو بها من آثار نزغه.

فقد يعصمه الله تفضلاً منه وكرماً وإثابة له على حسنات سابقة، وقد يصيبه من الشر بقدر ما نقص من واجب الاستعاذة.

فالاستعاذة بالقلب تكون بصدق الالتجاء إلى الله تعالى من كيد الشيطان واليقين بأنه إن لم يعصمه الله من كيده ضل وخسر.

والاستعاذة بالقول تكون بذكر ما ورد من الاستعاذة من الشيطان الرجيم، ويتأكد ذلك عند قراءة القرآن وعند خشية تسلط الشيطان بسبب غضب أو فزع أو غفلة. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ذلك أن كتاب الله تعالى هو الدليل إلى الفلاح والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، وهو ميسر للذكر والحفظ والفهم والامتثال فإذا قرأه المسلم قاصداً الاهتداء بما فيه من الهدى دله على فلاحه وسبل سعادته في الدنيا والآخرة؛ فيكون الشيطان أحرص ما يكون على حجبه عن معالم الهداية في القرآن العظيم حتى يضل عنها، حتى يظلّ العبد يقرأ صفحات من القرآن وهو لا يدري ما قرأ.

والاستعاذة بالعمل تكون باتباع هدى الله عز وجل فيما وصى به من الأمور التي تعصم من كيد الشيطان، فمن اتبع هدى الله ضمن الله له أن لايضل ولا يشقى، ولا يخاف ولا يحزن، وأن يهديه سبل السلام ويخرجه من الظلمات إلى النور، وأن ينجيه وييسر أمره ويجعل العاقبة له، كل ذلك ببركة اتباع هدى الله عز وجل.

فمن كملت استعاذته بالقلب والقول والعمل فقد تكفل الله له بالإعاذة.

في ختم آيتي الاستعاذة من نزغ الشيطان باسمين من الأسماء الحسنى دليل على إرادة مقتضاهما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فختم الآية باسمين جليلين من الأسماء الحسنى وهما السميع العليم؛ فهو ﴿السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتهم ودعائهم إياه، وهو ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما قلوبهم من صدق الالتجاء إليه، والعليم بأعمالهم في اتباع هديه.

وسأضرب لكم مثلاً لبيان هذا المعنى: لو أن رجلاً يسير في فلاة فسمع صوت سباع وخاف منها، ورأى حصناً قريباً ونادى صاحبَ الحصن أني أخاف من السباع؛ فقال له صاحب الحصن: ادخل الحصن من بابه؛ فإن دخلت فإنك في مأمن.

فلم يستجب هذا المستنجد لصاحب الحصن، ولم يمتثل وصيته؛ فهل تنفعه استعاذته بلسانه؟

وهل يُعَدّ صادقاً في استعاذته؟

إن من كان صادقاً في طلب الالتجاء لا بد له من امتثال الهدى؛ فإن خالف الهدى لم يكن مستعيذاً صادقاً في الاستعاذة.

والمقصود أن العهد الذي بين العبد وربه أعظم العهود وهو معقد الامتحان ومناط الفوز والخسران، والشيطان أحرص ما يكون على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين ربه.

وكل منفعة أو لذة يحصلها العبد بسبب نقضه لهذا العهد فهو ثمن قليل زائل ولو أعطي الدنيا بحذافيرها فإنها لا تساوي شيئاً في جنب ما أعده الله لعباده المؤمنين ولا تدفع عن هذا الخاسر العذاب الأليم المقيم في نار جهنم والعياذ بالله.

فكيف وهو لا يعطى من الدنيا إلا ما قدر له، ومع هذا فمتاع الدنيا كثير النكد سريع الزوال.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾

فضمن الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات أعظم الثواب في الدنيا والآخرة ففي الدنيا لهم الحياة الطيبة التي لا أفضل منها، وفي الآخرة يجزيهم الله أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي الصحيحين من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ رِدْفَ رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم- على حمار يقال له: عُفَير، فقال: «يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟»

قلتُ: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحقُّ العباد على الله: أن لا يعذِّب مَن لا يشرِك به شيئا».

فقلتُ: يا رسول الله: أفلا أبشِّرُ الناس، قال: «لا تبشِّرْهم فيتَّكِلُوا».

وفي رواية: (فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّما).

تأثماً: أي تحرجاً من الإثم بكتمان العلم.

فشأن هذا العهد عظيم، ولذلك شرع أن يجدده العبد في اليوم والليلة مراراً حتى لا ينساه أو يغفل عنه.

وكُرِّرَ في الأذان للصلوات الخمس في جميع الأوقات في الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وكرر في الإقامة عند الحضور للصلاة واجتماع المصلين.

ويكرره العبد في صلواته فلا تصح الصلاة بغير التشهد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه التشهد في الصلاة كما يعلمهم السورة من القرآن.

وهذا العهد تضمنه سيد الاستغفار الذي يستحب للعبد أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ورُتِّبَ على قوله الثواب العظيم، كما في صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم قال: «سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِى، اغْفِرْ لِى، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ».

قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِىَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

ولذلك كان الشيطان حريصاً على أن لا يفيَ العبد بهذا العهد، فهو يوسوس له، ويمنيه، ويثبطه عن الوفاء بهذا العهد العظيم، ويزين له الذنوب والمعاصي التي يقدح فعلها في الوفاء بهذا العهد العظيم، ولا يزال حريصاً على أن ينقض العبد هذا العهد الذي بينه وبين الله نقضاً تاماً، فينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل؛ فيرتكب

ناقضاً من نواقض الإسلام ينقضه به هذا العهد فيموت العبد كافراً والعياذ بالله.

فهذه غاية الشيطان التي أقسم عليها كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

فمن حقق العبودية لله تعالى لم يكن للشيطان عليه سلطان.

ومعنى لأحتنكن: أي لأستولين عليهم ولأقودنهم إلى المعاصي كما يقود الرجل دابته فيلقي على حنكها حبلاً يحتنكها به ويقودها به إلى حيث يشاء.

فإذا علمت ذلك فأكرم نفسك أن تكون دابة لإبليس يلقي عليك حبله ويحتنكك كما تحتنك الدابة، فتسلِّمَ له القياد، يقودك إلى المعاصي والفواحش، ويوردك المهالك، ويخدعك بما يزينه لك من زخرف القول الذي لا يغني عنك من الله شيئاً، حتى إذا جاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت رسل ربك لتقبض روحك تبرَّأ منك، ولا تجد من تلوم إلا نفسك التي ظلمتها ظلماً عظيماً وفرطت في الثواب العظيم الذي جعله الله لمن وفى بعهده، وصدق بوعده.

❑ ٣: درجات تحقيق العبودية لله تعالى

إذا تبين هذا فاعلم أن **تحقيق العبودية لله تعالى على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: الإتيان بأصل العبودية لله تعالى، وهو ما يبقى به المرء مسلماً، فيعبد الله وحده لا شريك له، ويجتنب عبادة غير الله جل وعلا، ويأتي من الفرائض ويجتنب من النواقض ما يبقى به إسلامه. فهذه درجة الإسلام.

الدرجة الثانية: تحقيق الكمال الواجب في العبادة، وهذه مرتبة الإيمان.

الدرجة الثالثة: تحقيق الكمال المستحب في العبادة، وهذه مرتبة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وكل درجة من هذه الدرجات يتفاضل المسلمون فيها تفاضلاً كبيراً لا يحصيهم إلا من خلقهم.

أما من أشرك بالله تعالى شيئاً فليس من أهل عبودية الله، وإنما هو من عباد الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

فأصحاب الدرجة الأولى مسلمون موعودون بدخول الجنة وإن عذبوا قبل ذلك على بعض ما اقترفوه من الذنوب؛ فما معهم من التوحيد والإسلام مانع من الخلود في النار، وفي هذه الطبقة يكون أهل الكبائر من المسلمين.

فهؤلاء لديهم أصل العبودية لله تعالى وأصل تقوى الله ومحبته وخوفه وتعظيمه لأنهم اجتنبوا الشرك الأكبر واجتنبوا ارتكاب ما ينقض الإسلام فهم متقون بهذا الاعتبار، وإن كان إيمانهم ناقصاً بسبب ما ارتكبوه من الذنوب.

قال محمد بن نصر المروزي في أهل هذا الصنف: (قد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقى والورع وذلك أنه يتقي أن يكفر أو يشرك بالله شيئاً، وكذلك يتقي الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة).

الدرجة الثانية: كمال العبادة الواجب، وأصحاب هذه الدرجة هم المتقون الذين يجتنبون المحرمات ويؤدون الفرائض؛ فيؤدون حقوق العبادة الواجبة ويجتنبون الشرك الأصغر من الرياء وتعلق القلب بغير الله تعالى كالتعلق بالمال والرياسة والأشخاص وغيرهم فهذا كله قادح في تحقيق القدر الواجب من العبودية لله تعالى.

ومن تعلق شيئاً دون الله وكل إليه، ومن أحب شيئاً من دون الله حتى يعصي الله بسببه عذب به.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعِسَ عَبدُ الدِّينار وعَبدُ الدرهم وعبد الخميصة إن أُعْطي رضِي وإن لم يُعطَ سخط تعِسَ وانتكَس وإذا شيك فلا انتقش».

وهذا دعاء عليه من النبي صلى الله عليه وسلم بالتعاسة والانتكاسة، فكلما قام من سقطة وقع في أخرى، وإذا أصيب ببلاء لم يهتد للخروج منه، وسبب ذلك عبوديته للدنيا، وغفلته عن الله جل وعلا.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم الضابط في ذلك فقال: «إذا أعطِي منها رضي وإن لم يُعط سَخط».

فإذا كان العبد همته للدنيا إن أعطي منها رضي، وإن لم يعط ظل ساخطاً على قضاء الله وقدره متبرماً منه لم يكن قلبه سليماً لله جل وعلا بل فيه عبودية لغير الله. وهذا من شأن المنافقين كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله. ومن كان هذا حاله فهو لم يحقق العبودية الواجبة لله تعالى.

وهذا أمر تشاهد آثاره فيمن تعلق قلبه بمال أو رئاسة أو شخص يحبه حتى يعصي الله لأجله فيكون في قلبه رق لما أحبه وتعلق به وعصى الله لأجله.

قال ابن تيمية: (كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأمورهم متصرفاً بهم فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيراً لها تَحَكَّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإنّ أَسْرَ القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعبد بدنه واسترق

وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحا من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأما إذا كان القلب الذي هو مَلِكُ الجسم رقيقاً مستعبَدا متيماً لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب).

قال: (وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبَه صورة مباحة؛ فأما من استعبد قلبَه صورةٌ محرمةٌ امرأة أو صبي فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثوابا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى؛ فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه).

قال: (ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه أو خوفا من مكروه فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر. قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾). ا.هـ.

وإذا كان القلب أسيراً لشيء من هذه المحبوبات لم يكن خالصاً لله جل وعلا، ولم يأت صاحبه بالعبودية الواجبة.

بل يكون في قلبه ذلٌّ لها مصحوب بخوف ورجاء وهذا هو معنى العبادة التي يجب إخلاصها لله جل وعلا،

ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً للمال، وإن كانت هذه العبودية ليست تامة بحيث تفضي به إلى الشرك الأكبر إلا من بلغت به عبوديته للدنيا أن يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام والعياذ بالله.

وهذا يختلف عن الذل الذي أمر الله به ومدحه كما في قوله تعالى في شأن الوالدين: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

فهذه ذلة مصحوبة بالرحمة وقصد الإحسان إلى المتذلل له فليس فيها ما يقدح في العبودية لله جل وعلا، بخلاف عبودية الدنيا المحرمة فإنها ذل في القلب مصحوب بخوف ورجاء مع غفلة القلب عن التعلق بالله جل وعلا.

والله تعالى قد جعل من ابتلائه لعباده أن يحوجهم إلى ما تقوم به مصالحهم من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها.

وهذا الأمور التي أحوج الله عباده إليها أمرهم أن يطلبوها منه جل وعلا وأن يرضوا بما يعطيهم منها وأن يتبعوا هداه في ابتغائها بما شرع الله وأذن فيه من الأسباب.

فإن أعطوا منها رضوا وشكروا، وإن لم يعطوا صبروا ورجوا ثواب ربهم وحسن تعويضه لهم.

ومن كان هذا حاله أعطي خيراً مما حرم، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ولا يشقى مع الله أحد اتبع رضوانه، وكثيراً ما تحب النفس شيئاً وهو شر لها، فإذا حرم العبد شيئاً فليحسن ظنه بربه فلعل في هذا المحبوب الذي حرم منه شراً لا يعلمه، والله تعالى لا يرضى لعبده المؤمن المتبع لرضوانه إلا بما هو خير له.

قال الله تعالى على لسان خليله إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص والحصر كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله وقد قال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

والرزق يشمل جميع ما يحتاجه العبد مما تقوم به مصالحه من المطعم والمشرب والملبس والمنكح والأهل والولد والأموال وغيرها.

والإنسان محتاج إلى الرزق ؛ مأمور بطلبه بالأسباب المشروعة ، وأما التعلق القلبي في طلب الرزق فيجب أن يكون بالله تعالى وحده.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المؤمِن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله مِن المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعك ، واستعِن بالله ولا تعجَز وإن أصابك شيء فلا تقُل لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

فهذا الحديث العظيم يبين للمؤمن منهجه في طلب الرزق والأخذ بأسباب القوة

- «المؤمِن القويّ خير وأحبّ إلى الله مِن المؤمِن الضعيف» وصف القوي في الحديث يشمل جميع معاني القوة وأولها قوة الإيمان بالله تعالى وقوة الإخلاص وقوة العزيمة على فعل الخير، وكل مؤمن كان قوياً في أمر من الأمور وشكرَ الله تعالى على هذه القوة فهو خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف في ذلك الأمر.

وهذا يشمل جميع معاني القوة من قوة البدن والعلم والمال والجاه وغيرها.

- «وفي كلٍّ خَير» لأن المؤمن ولو كان فيه ضعف فأصل الخير فيه لإيمانه ، وهذا فيه تنبيه للقوي على ألا يزدري الضعيف.

- «احرِص على ما ينفعك» هذا فيه الحث على الاجتهاد في بذل الأسباب ، و«ما ينفعك» عام في أمور الدين والدنيا ؛ فكل ما ينفع المؤمن فهو مطالب بالحرص عليه ، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع.

فمن زعم أنه متوكل على الله وأن قلبه لا يتعلق بغيره وهو لا يبذل الأسباب المشروعة لطلب الرزق فهو كاذب ، والامتحان يكشف يكذبه ، فإنه إذا احتاج انكشف تعلق قلبه.

- «واستعِن بالله» فإن العبد لا يدرك شيئاً من الخير إلا بعون الله تعالى وتوفيقه ، وهذه الاستعانة تعلق قلبه بالله وتدفع عنه التعلق بالأسباب.

- «ولا تعجَز» العجز هو القعود عن بذل الأسباب مع إمكانها.

- «وإن أصابك شيء فلا تقل لوْ أني فعلتُ كان كذا وكذا ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل» وهذا حال المؤمن حين يصيبه ما يكره من مصيبة بفقد ما يحب أو فوات ما يطلب من

الخير؛ وإذا بذل الأسباب ولم يحصل له مطلوبه فليحسن الظن بالله وليرض بقضائه وليرج ثوابه فيما أصابه.

والمؤمن إذا اجتمع في قلبه حسن الظن بالله والرضى بقضائه علم أن ما تطلبه نفسه لن يفوت عليها فهو إما أن يعجل لها فتهنأ به، وإما أن يؤخر لها أو تعوض خيراً منه وإذا أخر الله لعبده المؤمن تحقيق ما يطلب فليعلم أن هذا التأخير خير له، لأن الله تعالى يختار لعبده فيأتيه حين يأتيه وهو على حال أكمل وأفضل.

من طلب التعطر وثوبه متسخ كان إلى تنظيف ثوبه أحوج منه إلى ما طلب من العطر، فلو أخر عنه العطر حتى ينظف ثوبه ثم أعطي العطر وهو على حال النظافة لكان ذلك أجمل في حقه وأكمل.

فإذا أخر عنك شيء من الخير فاعمد إلى تطهير قلبك.

وأما من ضعف يقينه بالله ولم يتبع هداه فإنه يشقى بمطلوبه وإن تحقق له، ويكون فتنة له.

⇦ والمقصود أن المؤمن المتقي محقق لدرجة العبودية الواجبة لله تعالى فإن أعطاه الله قبل ورضي وشكر، وإن ابتلي بتأخير ما يطلب لم يحمله ذلك على التسخط والجزع والتبرم من قضاء الله وقدره كما يفعل أهل النفاق.

وههنا قاعدة مهمة فيما يبتلى به المؤمن ينبغي أن نتفطن لها ونفقه معناها: **فإن كل بلاء يبتلى به المؤمن يصاحبه أمران:**

الأمر الأول: بيان الهدى فيما يجب على العبد أن يتقيه ويتجنَّبه، وما يحبه الله لعبده وينجيه به مما يخاف منه.

وذلك أن العبد إذا ابتلي كان معرّضاً لفعل الصواب والخطأ؛ فإن أصاب فهو مهتدٍ، وإن أخطأ فقد ضل.

وتختلف درجة الضلال بحسب درجة المخالفة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قال الشافعي رحمه الله: (فليست تنزل في أحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها).

الأمر الثاني: اللطف والتيسير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ولن يغلب عسر يسرين، وأول التيسير أن يعلم أنه لا ينزل بعبد مؤمن بلاء إلا كان بعده فرج فهذا اليقين المعتمد على حسن الظن بالله جل وعلا والتصديق بوعده ورجائه عبادة عظيمة من أجل العبادات وهو في هذا يدافع وساوس الشيطان وما يلقيه في نفسه من الخواطر الرديئة والتيئيس من رحمة الله والتشكيك في صدق وعده؛ فيكون المؤمن في حال ابتلائه مجاهداً صابراً راجياً ربه جل وعلا.

روى الإمام مالك في الموطأ وابن أبي شيبة في مصنفه وابن جرير في تفسيره وغيرهم عن زيد بن أسلم أنه قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب: (أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا وأنه لن يغلب عسر يسرين وأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾).

وقال الشاعر:

وكل شديدة نزلت بحي ... سيأتي بعد شدتها رخاء

ومن تأمل أوجه اللطف فيما يتعرض له من البلاء علم حقيقة هذا الأمر.

وبهذا يعلم المؤمن أن كل قضاء يقضيه الله له فهو خير له، وليس ذلك إلا للمؤمن والله تعالى عليم حكيم في قضائه وقدره وتدبيره.

وفي صحيح مسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ولم يقل (علينا) وفي هذا دليل على أن كل ما يصيب المؤمن فهو له وليس عليه، وذلك إذا اتبع هدى الله.

أما إذا خالف هدى الله فإنه يستحق من العقوبة بقدر ما خالف وضعف إيمانه. وبذلك يعلم المؤمن أن كماله وهدايته وأنسه وأمنه إنما هو في اتباع هدى الله جل وعلا فإنه حينئذ يكون ولياً من أولياء الله فيتولى الله أموره ويرشده إلى ما ينفعه ويوفقه لفضله العظيم كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وإنما أطلت بعض الإطالة في شرح هذا العنصر لأن الحاجة تدعو إلى بيانه، ونحن محتاجون إلى تحقيق العبودية الواجبة لله تعالى، ودعوة الناس إلى ذلك.

وقد رتب على تحقيق هذه العبودية الثواب العظيم.

الدرجة الثالثة: تحقيق الكمال المستحب في العبادة، وهذه مرتبة الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا يحملك على أن يكون حبك لله ولما يحبه الله، وبغضك لما يبغضه الله ولما يبعدك عن الله، وينبني على ذلك تعظيم ما عظمه الله، وتحقير ما حقره الله.

وفي سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن أحبَّ لله و أبغَض لله وأعْطَى لله ومنَعَ لله فقد استْكمَل الإيمان».

والعطاء والمنع في الحديث لا يختص بالمال بل هو عام في كل ما يُعطى ويمنعُ من مال وعلم وجاه وجهد ووقت، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

فمن كان يحب لأجل الله، ويبغض لأجل الله، ويعطي ويمنع لأجل الله فهو مؤمن كامل الإيمان، نسأل الله من فضله.

ومن كان هذا حاله فقد أسلم قصده لله تعالى واستمسك بالعروة الوثقى التي لا أوثق منها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، (الوثقى) صيغة مبالغة، يقال: عروة وثيقة أي شديدة متينة مأمونة، وعروة أوثق من عروة، والعروة الوثقى أي التي لا أوثق منها.

والعروة هي ما يستمسك به للنجاة؛ فإذا كانت العروة وثقى، والاستمساك قوياً نجا العبد مما يخاف.

٤: العبادة الكونية والعبادة الشرعية

ذكرنا أن **العبادة على نوعين** عبادة متعلقة بالربوبية وعبادة متعلقة بالألوهية

فأما العبادة المتعلقة بالربوبية فهي عامة لجميع الخلق لا يخرج منهم أحد عنها كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

فهذه هي العبادة الكونية لا يخرج منها برٌّ ولا فاجر.

وأما العبادة الشرعية فهي الفارقة بين المسلمين والكفار وأهل الجنة وأهل النار، وهي إخلاص العبادة لله جل وعلا وامتثال أمره واجتناب نهيه.

فالعبادة المتعلقة بالربوبية من الإقرار بخلق الله تعالى وملكه وتدبيره وشهود الفقر إلى الله تعالى، لا تفرق بين المؤمن والكافر وأهل الجنة والنار، لأن العبد قد يعرف ذلك ويعصي الله ويعبد غير الله كما فعل المشركون.

فشهود مشهد الربوبية لا يدخل العبد في الإسلام ولا يقتضي الإخلاص في العبادة، وإن كان حجة في وجوبه لكن لا يقتضي أن يقوم العبد به كما قال الله تعالى في المشركين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

فهم كانوا يقرون بوجود الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر لأمورهم ومع هذا لم يدخلوا في دين الإسلام لأنهم لم يتقوا الله تعالى ولم يفردوه بالعبادة، والتوحيد هو أصل التقوى.

فالمعرفة التي لا يترتب عليها امتثال الأمر حجة على صاحبها وعذاب عليه، وهي من شأن أهل الجحود والاستكبار والإعراض

كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

والمخالفون في العبودية الشرعية على درجتين:

الدرجة الأولى: المشركون الذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، فلم يمتثلوا أمره في أعظم ما أمر به، فهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام.

الدرجة الثانية: المبتدعة الضلال الذين غلَّبوا جانب التعبد لله بالتفكر في أفعاله وخلقه حتى ضيعوا بعض الفرائض وارتكبوا بعض المحرمات، وهذا يقع من بعض المتصوفة، بل بعض غلاة المتصوفة قد يصل به الأمر إلى تضييع الأوامر جملة حتى يخرج من دين الإسلام والعياذ بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار. فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشر أهل الكفر والإلحاد).

فهؤلاء الذين زعموا أنهم وصلوا إلى درجة اليقين وأن التكاليف قد سقطت عنهم كفار مرتدون خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

فالمقصود من خلق الناس أن يقوموا بواجب العبودية لله تعالى ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه ويرجوا رحمته ويخافوا عذابه فمن فعل ذلك فهو من المتقين.

وإن من مداخل الشيطان على الإنسان أن يصرف همته عن امتثال أمر الله جل وعلا والقيام بالفرائض واجتناب الحرمات إلى التفكر فيما يتثبت به وحدانية الله تعالى وأنه هو الخالق الرازق المدبر للأمر ويظن أنه إذا أتى بهذا الأمر فقد أبلى بلاء حسنا يعفى به عن تقصيره وتفريطه في أداء الفرائض.

ولذلك تجد بعض من خدع بهذه الخديعة من المسلمين يعظم بحوث علماء الدنيا من الكفار فيما يثبتون به شيئاً من آثار ربوبية الله تعالى وسعة علمه وحكمته وتدبيره ويظل يتتبعها ويفني وقته وجهده في التنقيب عنها بل ربما زاد بعضهم عليها بعض الأكاذيب والتهويلات

والتلفيقات ليخرجوا للناس بشيء يزعمون أنه جديد لم يسبقوا إليه في دلائل إثبات وحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره، **وهذا خطأ ينبغي التنبيه عليه.**

لا خلاف في أن المؤمن مأمور بالتفكر في آيات الله ومخلوقاته بما يحمله على التقوى وامتثال الأمر واجتناب النهي أما إذا كان تفكره للتعجب والتأمل المجرد الذي لا ينبني عليه عمل فلا يمتثل الأمر ولا يجتنب النهي فتفكره حجّة عليه وعذاب عليه - والعياذ بالله - وإنْ صاحَبه إقرار بوحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وتدبيره.

❑ ٥: بيان وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

❑ قوله: **(وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ:**

الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، والاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، والاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا: كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]).

ذكر الشيخ رحمه الله أصول العبادات وأهم أنواعها، وبَيَّن أن هذه العبادات يجب إفراد الله تعالى بها، وأن مَن صرَف شيئاً منها لغير الله تعالى فهو مشرك كافر والعياذ بالله. واستدل لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾

وقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

هذه الآية فيها وصف من دعا غير الله بأنه كافر.

وقوله ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ هذا وصف كاشف للعلة اللازمة لكل ما يعبد من دون الله تعالى وهو أنه لا برهان لأحد بأن الله تعالى قد أذن بعبادة إله من دونه.

❑ قوله: **(وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بهَا مِثْلُ الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ).**

هذه مراتب الدين، وقد بينها أن درجات تحقيق العبودية لله تعالى هي مرتبة على مراتب الدين من الإسلام والإيمان والإحسان.

❑ قوله: **(وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا:كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالى).**

هذه العبادات يتفاضل المسلمون في تحقيقها على درجات العبودية لله تعالى فمسلم ومؤمن ومحسن.

فمن أداها مخلصاً لله تعالى ولم يشرك مع الله فيها أحداً فهو مسلم.

ومن أداها مخلصاً لله تعالى مكملاً فروضها الواجبة مجتنباً الشرك الأصغر فيها فهو مؤمن.
ومن أداها على الكمال المستحب فهو محسن، نسأل الله من فضله.

ومعرفة كون عمل من الأعمال عبادة تكون بأمور:

الأمر الأول: أن يرد في النص تسميته عبادة

الأمر الثاني: أن يدل الدليل على أن الله تعالى يحب عملاً من الأعمال، فالأعمال التي يحبها الله ويرضاها هي عبادة.

الأمر الثالث: أن يدل الدليل على أن الله أمر به؛ فَأَمْرُ الله به دليل على أن الله يحبه فيكون عبادة.

فالعبادة هي اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

❐ قوله: **(من الأعمال والأقوال)** هذا قيد يخرج الأشخاص والأمكنة والأزمنة التي يحبها الله فلا توصف بأنها عبادة، لأن العبادة تتعلق بما يتعبد به.

والعبادة تكون بالقلب واللسان والجوارح.

فعبادة القلب بالاعتقاد وهو التصديق واليقين، وبعمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والتوكل وغيرها.

وعبادة اللسان هي بقول ما يحبه الله ويأمر به.

وعبادة الجوارح هي ما تقوم به جوارح الإنسان من أعمال التعبد كالصلاة والزكاة والصيام والحج والذبح والنذر وغيرها.

الدرس السابع: بيان معنى العبادة وأنواعها (٣/٢)

عناصر الدرس:

١: الدعاء:

- دعاء المسألة ودعاء العبادة.
- درجات سؤال غير اللّٰه تعالى.

٢: الخوف:

- أقسام الخوف.
- درجات الناس في خوف العبادة.

٣: الرجاء:

- بيان معنى الرجاء.
- أقسام الرجاء.

٤: التوكل:

- معنى التوكل.
- فضل التوكل على اللّٰه وحده لا شريك له.
- أنواع التوكل على اللّٰه تعالى.

٤ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ.

❑ ١: الدعاء.

❑ قوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]).

الدعاء على قسمين: **دعاء مسألة** و**دعاء عبادة**.

وهذا التقسيم هو لغرض التوضيح والتعليم وإلا فكلٌّ من القسمين عبادة، وإنما قصد العلماء بهذا التقسيم بيان شمول اسم الدعاء للقسمين فإن لفظ الدعاء يطلق في النصوص ويراد به المعنى الأول، ويطلق ويراد به المعنى الثاني، ويطلق ويراد به المعنيين جميعاً.

➢ **فأما دعاء المسألة** فهو الذي يكون فيه سؤال رغبة ورهبة لجلب منفعة أو دفع مضرة، فيكون عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا له أمثلة: كدعاء الأموات وسؤالهم قضاء الحاجات والمدد والشفاعة وغير ذلك؛ فهذا من الشرك في العبادة، وهو ضلال بعيد، وكفر مبين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ❖ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

➢ **وأما دعاء العبادة** فهو: التعبد للمعبود بأفعال أو أقوال يتقرب بها إليه رغبة ورهبة فهذا صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر، ومن ذلك ما يتنسك به عباد الأوثان من أنواع الأعمال التي يعملونها على جهة التعبد والتقرب هي شرك أكبر والعياذ بالله.

فهذا بيان الشرك في الدعاء بنوعيه.

➢ وأما من طلب من مخلوق ما يقدر عليه كأن يقولَ فقيرٌ لغني: أعطني من مال الله الذي أعطاك، أو يقول رجل لغيره: أعنِّي بكذا وكذا.

فهذا ليس بشرك بإجماع العلماء، لأنه ليس فيه معاني العبادة.

واعتبار معنى العبادة مهم في الحكم على العمل بأنه شرك أو ليس بشرك.

فإذا كان في القلب نوع تذلل للمسؤول وخوف ورجاء فهذا شرك أصغر، وهو من أنواع عبودية الدنيا، والعياذ بالله.

فإذن صار **سؤال غير الله تعالى على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: الدعاء الذي يكون فيه معاني التعبد من الرغب والرهب والخوف والرجاء واعتقاد النفع والضر في المدعو فهذا شرك أكبر والعياذ بالله.

الدرجة الثانية: سؤال المخلوقين مما يقدرون عليه مع اعتقاد أن الله تعالى هو النافع الضار لكن يغلب على قلبه التعلق بهم ويكون في قلب السائل نوع تذلل لهم وخضوع فهذا شرك أصغر لأنه مناف لتحقيق كمال العبودية الواجبة لله تعالى.

الدرجة الثالثة: أن يطلب من المخلوقين ما يقدرون عليه مما يحتاج إليه من غير أن يكون في قلبه تعلق بهم ولا تذلل لهم ولا خضوع ؛ فهذا ليس بشرك.

فالمؤمن يطلب الرزق ويبذل الأسباب ويجتهد فيها لكن لا يتذلل قلبه لغير الله تعالى ؛ لأن تذلل القلب لغير الله تعالى قادح في التوحيد، بل يجب على العبد أن يسلم قلبه لله، ويطهره من الشرك والتعلق بغير الله جل وعلا.

ومن كان حاله كذلك بورك له في رزقه، وكفاه الله ما أهمه.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن من الناس من تحمله إرادة التعبير عن البراءة من التذلل لغير الله إلى الإساءة إلى مَن حَقُّه أن يتأدب معه كأبيه أو وليه أو رئيسه، فهذا خطأ ينبغي التنبه له.

فالله تعالى يحب العدل والإحسان ويحب الرفق ويثيب عليه، ويبغض الفحش والتفحش والتعالي على الناس، وندب إلى التذلل للمؤمنين فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

وهذا التذلل بلين الجانب وخفض الجناح وحسن القول مبناه على الرحمة وقصد الإحسان إلى المؤمنين والتواضع لهم والرأفة بهم طاعة لله عز وجل واتباعاً لرضوانه وابتغاء لفضله وإحسانه، وأما القلب فهو سليم لله عز وجل غير خاضع للمخلوقين.

والله تعالى يحب الشكور من عباده الذي أُحْسِنَ إليه شَكَر، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهدي في معاملة من أحسن إلينا؛ فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن صُنِعَ إليهِ معروفٌ فليجْزِهْ؛ فإن لم يجدْ ما يجزِيهِ فليُثْنِ عليهِ؛ فإنَّهُ إذا أثنى عليهِ فقد شَكَرَه، وإنْ كَتَمَهُ فقد كَفَرَه، وَمَن تَحَلَّى بما لم يُعْطَ فكَأَنَّما لَبِسَ ثوبَيْ زور». رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داوود في سننه والترمذي في جامعه وصححه الألباني.

وقال الشاعر:

ارفع ضعيفك لا يَحِرْ بكَ ضعفُه ... يوما فتدركك العواقب قد نما

يجزيك أو يثني عليك و إنَّ مَن ... أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقد روى البيهقي في شعب الإيمان بإسناد فيه ضعف أن النبي صلى الله عليه وسلم استحسن هذين البيتين.

فمن جزى الإحسان بالإحسان أو أثنى على صاحب الإحسان فقد أدى شكره، وبقي قلبه سليماً لله جل وعلا.

وهو في ذلك يعتقد أنهم سبب أجرى الله الإحسان على أيديهم وله في ذلك حكم بالغة.

ومبنى الدعاء على اعتقاد النفع والضر في المدعو، ومن أيقن بأنه لا ينفع ولا يضر على الحقيقة إلا الله تعالى استراح قلبه من التعلق بالخلق وهذه قضية تكرر التأكيد عليها في القرآن العظيم.

كما قال الله تعالى موبخاً المشركين: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)﴾.

وقال حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فهذه المسألة مبينة في القرآن الكريم بياناً كافياً شافياً يقطع جميع علائق التعلق بغير الله جل وعلا ؛ فإن مدار العبودية على عمل القلب فإذا كان القلب سليماً لله عز وجل خالصاً صلح بإذن الله وصلح سائر الجسد.

قال ابن القيم رحمه الله: (الضرر والنفع بيد الله عز و جل فإن شاء أن يضر عبده ضره، وإن شاء أن يصرف عنه الضر صرفه، بل إن شاء أن ينفعه بما هو من أسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل، ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع، وأن أسباب الضر والنفع بيديه، وهو الذي جعلها أسباباً، وإن شاء خلع منها سببيتها، وإن شاء جعل ما تقتضيه بخلاف المعهود منها، ليُعلم أنه الفاعل المختار، وأنه لا يضر شيء ولا ينفع إلا بإذنه، وأن التوكل عليه والثقة به تحيل الأسباب المكروهة إلى خلاف موجباتها، وتبيين مرتبتها، وأنها محالّ لمجاري مشيئة الله وحكمته، وأنه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع، ليس إليها ولا لها من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، وأنها إنما ينال ضررها من علّق قلبَه بها ووقف عندها).

❑ قوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»).

الحديث بهذا اللفظ رواه الترمذي من حديث أنس، وفي إسناده ابن لهيعة، وقد ضعف الحديث جماعة من أهل العلم.

لكن صح في السنن الأربعة من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الدُّعاء هو العِبادَة».

❑ قوله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]).

﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

هذا أمر من الله عز وجل بدعائه وهو يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، والاستجابة لدعاء المسألة تكون بإعطاء المسؤول سؤله.

والاستجابة لدعاء العبادة بقبولها والإثابة عليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين وهو في دعاء العبادة أظهر؛ ولهذا أعقبه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ الآية. ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا).

وقال ابن القيم رحمه الله: (والدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داعٍ، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قيل: أطيعوني أثِبكم، وقيل: سلوني أعطِكم، وفُسِّرَ بهما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾).

روى البخاري في الأدب المفرد والترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن لم يسأل الله غضب الله عليه».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما مِن داعٍ يدعو الله بدعوة ليس فيها ظلم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدّخِر له من الخير مثلها وإما أن يصرف عنه مِن الشر مثلها».

فالدعوة التي ليس فيها اعتداء يحصل بها المطلوب بها أو مثله وهذا غاية الإجابة؛ فإن المطلوب بعينه قد يكون ممتنعا أو مفسدا للداعي أو لغيره، والداعي جاهل لا يعلم ما فيه

المفسدة عليه، والرب قريب مجيب، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والكريم الرحيم إذا سئل شيئا بعينه وعلم أنه لا يصلح للعبد إعطاؤه أعطاه نظيره، كما يصنع الوالد بولده إذا طلب منه ما ليس له فإنه يعطيه من ماله نظيره، ولله المثل الأعلى).

❑ ٢: الخوف.

قوله: (**وَدَلِيلُ الخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥])

الخوف على قسمين:

القسم الأول: خوف العبادة: وهو الذي يحمل معنى العبادة من التذلل والرهبة والخشية من إيقاع الضرر ممن يملك إيقاعه، فيقوم بالقلب عبادات عظيمة من الرهبة والخشية والإنابة والتوكل وتعلق القلب فهذا الخوف لا شك أن صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر مخرج عن الملة، قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ وهذا الخوف هو من عمل المشركين، ولذلك إذا أردت أن تعرف معنى الخوف الشركي فاعرف حال المشركين الذي يخافون هذا الخوف، وقد ذكر الله لنا من أخبارهم، قال الله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لقومه: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وقال عن عاد قوم هود في مجادلتهم لنبيهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: ويخوّفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها، وعيبك لها، والله كافيك ذلك).

وقال قتادة: (بعث رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم خالد بن الوليد إلى شعب بسُقام ليكسر العزّى، فقال سادنها - وهو قيمها - : يا خالد أنا أحذّركها، إن لها شدّة لا يقوم إليها شيء، فمشى إليها خالد بالفأس فهشّم أنفها).

وقال مجاهد: (﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: «يخوفونك بالأوثان التي يعبدون من دون الله عز وجل»).

ومن عباد الأوثان والقبور اليوم من يخوِّف الناس من هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله بأن لهم قدرة وتصرفاً وإذا غضبوا على شخص أرسلوا له من يعذبه ويصيبه بالأمراض وربما يشل جسده أو يقتله ونحو ذلك من التخويف الذي لا يجوز لمؤمن أن يخافه.

🗎 يذكر بعض العلماء عبارة (خوف السر) ويقصدون به خوف التعبد، كما صرَّحوا بالتمثيل له بخوف عباد القبور والأوليا، وهؤلاء في الحقيقة جمعوا أنواعاً من الشرك منها اعتقادهم أن أولئك الأموات يطلعون على ما يعملون، واعتقادهم قدرتهم على المؤاخذة وإحلال العقوبة والسخط، وخوفهم أن يقطعوا عنهم المدد أو يتخلوا عن الشفاعة لهم ونحو ذلك؛ فلذلك تجد بعضهم إذا سمع أحداً يذكر أحد أولئك الأموات بسوء أو ينهى عن الغلو فيهم يُرى عليه أثر الخوف من غضب ذلك الولي بزعمهم.

وخوف السر هذا فيه معاني التعبد من الرهبة والخشية وتعلق القلب بالمعبود والالتجاء إليه، وهذه عبادات عظيمة من صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك، والعياذ بالله تعالى من

الشرك.

فالخوف التعبدي عبادة من أجَلّ العبادات صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

ولتوضيح المسألة: **الناس في خوف العبادة على درجات:**

الدرجة الأولى: السَّابِقون المقرَّبون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على المسارعة في الخيرات والتقرُّب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل والورع واجتناب المحرمات والشبهات؛ فهؤلاء بخير المنازل

وهم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾

وقوله: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الدرجة الثانية: المقتصدون وهم الذين حملهم الخوف من الله تعالى على اجتناب المحرمات وفعل الواجبات فهؤلاء هم المتقون المقتصدون.

الدرجة الثالثة: المفرِّطون الظالمون لأنفسهم من المسلمين، وهؤلاء معهم أصل الخوف من الله تعالى بحيث يمنعهم من الشرك الأكبر وارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، لكنهم لضعف خوفهم من الله تعالى يرتكبون الكبائر ويتركون بعض الفرائض الواجبة والعياذ بالله، فهؤلاء مذنبون مستحقون للعذاب بقدر ما وقعوا فيه من المخالفة، وهم باقون في دائرة الإسلام.

الدرجة الرابعة: الغلاة المُفْرِطُون وهم الذين حملهم الخوف الشديد على نوع من اليأس من رحمة الله والقنوط من رحمته؛ فهؤلاء مذنبون غلاة، ولا يجوز للمؤمن أن ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته.

الدرجة الخامسة: المشركون وهم الذين صرفوا هذه العبادة العظيمة لغير الله جل وعلا ؛ فهؤلاء مشركون كفار خارجون عن دين الإسلام والعياذ بالله.

فهذه درجات الناس في خوف التعبد وهم في كل درجة تتفاوت منازلهم.

القسم الثاني من الخوف: الخوف الطبيعي، وهو ما خلا من معاني التعبد، وهذا حكمه بحسب ما يحمل عليه:

مثاله: خوف العبد من السباع والهوام والظلمة الطغاة فهذا لا يلام عليه العبد بل قد يعذر بسببه في أحوال؛ فقد يسقط عن الرجل وجوب صلاة الجماعة للخوف، وقد يجوز له جمع ما يجمع الصلوات بسبب الخوف، ونحو ذلك.

- أما إن حمل هذا الخوف صاحبَه على ترك بعض الواجبات التي لا يعذر بتركها أو ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه فهو محرم لا يجوز.

مثاله: جماعة من المسلمين ظاهرون في بلد من البدان حملهم الخوف من العدو على ترك الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ وترك إعداد العدة لذلك؛ فهؤلاء مذمومون مفرطون مذنبون بتركهم فريضة الجهاد في سبيل الله عز وجل، وسنة الله تعالى جارية بأن يسلط الله عليهم أعداءهم وينزع مهابتهم من صدور الكافرين بسبب مخالفتهم لاتباع هدى الله جل وعلا، وتقديمهم خوف العدو على الخوف من الله جل وعلا، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يعظمهم في نفوسكم حتى تخافوهم.

فهذا الخوف من أولياء الشيطان محرم لا يجوز.

بل قد يصل الخوف من غير الله تعالى بالعبد إلى الكفر والعياذ بالله؛ كمن يحمله الخوف على الرضا بالكفر واختياره خوفاً وجبناً كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

وهذا هو أصل خوف الأتباع من المتبوعين من أئمة الكفر كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) ﴾

فهؤلاء حملهم خوفهم الطبيعي على الكفر والعياذ بالله.

❑ ٣: الرجاء.

❑ قوله: (**وَدَلِيلُ الرّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبهِ فَلْيَعمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبهِ أَحَداً﴾).

الرجاء نقيض اليأس، وهو طمع القلب في حصول منفعة.

قال الله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾

وقال عن أوليائه المتقين: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾

والرجاء على قسمين:

القسم الأول: رجاء العبادة.

القسم الثاني: رجاء نفع الأسباب.

- **فرجاء العبادة** لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا، ومن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك لأنه يحمل معاني العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والانقياد واعتقاد النفع والضر وتفويض الأمر وتعلق القلب والتقرب إلى المعبود، وهذه كلها عبادات عظيمة تقتضيها عبادة الرجاء فمن صرفها لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر.

وهذا كرجاء المشركين في آلهتهم التي يعبدونها من دون الله أنها تشفع لهم عند الله أو أنها تقربهم إلى الله زلفى، وكرجاء بعض عباد الأولياء والقبور بأنهم ينجونهم من الكربات ويدفعون عنهم البلاء ويجلبون لهم النفع ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

- **القسم الثاني: رجاء نفع الأسباب** مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا.

وهذا على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رجاء جائز، وهو رجاء نفع الأسباب المشروعة مع عدم تعلق القلب بها، فهذا جائز، وليس بشرك، وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من يُرجى خيره ويُؤمَنُ شرُّه، وشرُّكم من لا يُرجَى خيره ولا يُؤمن شره». وإسناده صحيح.

فهذا الرجاء ليس هو رجاء العبادة، وإنما هو رجاء نفع السبب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا.

الدرجة الثانية: رجاء محرم، وهو الرجاء في الأسباب المحرمة ليستعين بها على معصية الله جل وعلا.

الدرجة الثالث: شرك أصغر، وهو تعلق القلب بالأسباب؛ كتعلق بعض المرضى بالرقاة والأطباء تعلقاً قلبياً يغفلون معه عن أن الشفاء بيد الله عز وجل؛ فهذا من شرك الأسباب كما تقدم شرحه.

وهذه العبادات قاعدتها واحدة من فقهها سهل عليه معرفة هذه التقسيمات وتيسر له ضبط مسائلها إن شاء الله تعالى.

وهو أن هذه الألفاظ: المحبة والخوف والرجاء والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والرغبة والرهبة والخشية ونحوها تطلق في النصوص على معنيين:

المعنى الأول: ما كان يحمل معنى العبادة من التذلل والخضوع والمحبة والتعظيم والانقياد واعتقاد النفع والضر فتكون حينئذ عبادة من صرفها لغير الله عز وجل فقد أشرك الشرك الأكبر والعياذ بالله، ويكون بذلك كافراً خارجاً عن الملة.

وإذا أردت أن تعرف هذا المعنى فانظر إلى ما يفعله مَن أثنى الله عليهم من الموحدين في هذه العبادات، وما يفعله مَن ذمهم الله من المشركين بهذه العبادات.

وبذلك تعرف المعنى التعبدي فيها الذي لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا.

المعنى الثاني: ما ليس فيه معنى العبادة، وإنما هو سبب من الأسباب فهذا حكمه بحسب ما يترتب عليه فإن استعين به على طاعة الله فهو طاعة وقربة، وإن استعين به على محرم فهو حرام، وإن حمل على فعل محرم أو ترك واجب لا يعذر بتركه فهو محرم؛ فأما إن تعلق القلب بالسبب وصار فيه نوع تذلل له مصحوب بخوف ورجاء فيكون حينئذ شركاً أصغر، وهو من شرك الأسباب كما سبق بيانه في الدرس السابق.

لم يذكر المؤلف رحمه الله (المحبة) وهي عبادة من أجل العبادات، بل هي أصل هذه العبادات، وأعلاها شأناً وقد قال الله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ والمحبة العظيمة التي تحمل معنى العبادة من التذلل والخضوع والتعظيم والانقياد لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل.

وسبق بيان القاعدة في هذا الباب.

واعلم أن هذه العبادات الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء هي أصول العبادات وعليها مدارها.

قال ابن القيم رحمه الله: (القلب في سيره إلى الله عز و جل بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان؛ فهو عرضة لكل صائد وكاسر).

وبيان ذلك أن ما يدفع القلب للعمل ثلاثة أمور: المحبة، والخوف، والرجاء فمن أحب الله أطاعه، ومن خاف الله أطاعه، ومن رجا ثواب الله أطاعه فمن المؤمنين من يغلب عليه دافع المحبة فيطيع الله عز وجل محبة له، مع خوفه من الله ورجائه له، لكن الذي يغلب على قلبه المحبة وصدق التقرب إلى الله عز وجل.

ومن المؤمنين من يغلب عليه الخوف من الله فيطيع الله خوفاً منه، سواء خاف عقابه الدنيوي أو عقابه الأخروي؛ فالذي يحمله غالبا على فعل الطاعات واجتناب المحرمات خوفه من الله.

ومن المؤمنين من يغلب عليه رجاء ثواب الله فتجد أن أكثر ما يحمله على فعل الطاعات واجتناب المحرمات هو رجاء ثواب الله وفضله.

والكمال أن يجمع العبد بين هذه الثلاثة، فيطيع الله محبة له، وخوفاً منه، ورجاء لثوابه وفضله.

المحبة أعلى مرتبة من مرتبة الخوف والرجاء إذا أردنا المفاضلة بينها، لأن المحبة تبقى في الدنيا والآخرة، وأما الخوف فإنه يزول في الآخرة.

والجمع بين هذه الثلاثة هو منهج السلف الصالح وهو الذي عليه هدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقال بعض ضلال الصوفية بالتفريق بينها وزعموا أن من يعبد الله محبة له فقط أعلى وأكمل ممن يعبد الله رجاء لثوابه أو خوفاً من عقابه، حتى كان بعضهم يدعو: (اللهم إن كنت تعلم أني أطيعك رغبة في جنتك فاحرمني منها!!) وهذا ضلال مبين وخسران عظيم - إن لم يرحمه الله لجهله وقلة عقله –

فإن الله أمر بسؤاله من فضله ورغَّب في ثوابه فمن ترك رجاء الله فقد عصى الله. وحذر الله من عقابه وعذابه فمن لم يخف الله فقد عصى الله.

والمقصود أن هدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه الجمع بين هذه العبادات العظيمة

فيعبدون الله محبة له كما وصفهم الله بقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾

ويعبدون الله خوفاً من عقابه كما أمرهم الله بقوله: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾

وجعل صفة الرجاء فرقاناً بين المؤمنين والكافرين فقال: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾

ورغَّبهم في ثوابه وأمرهم بسؤاله من فضله فقال تعالى: ﴿واسألوا الله من فضله﴾.

فاللهم إنا نسألك من فضلك يا ذا الفضل العظيم.

ولتوضيح منازل هذه العبادات العظيمة والتلازم الشرعي بينها، وحاجة المؤمن إليها جميعاً في سلوكه الصراط المستقيم يقال: إن من أحب الله سار إليه وتقرب إليه، والسير إليه يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فهو سير معنوي على الصراط المستقيم الذي هو الطريق إلى المحبوب الأعظم.

فمحبة الله تدفع العبد إلى التقرب إليه، وعلى حسب قوة المحبة وضعفها تكون مسارعة العبد في الطاعات ومسارعته في الكف عن المحرمات.

وخوفه من الله يمنعه من الانحراف عن الصراط المستقيم فلا يتعدى حدود الله وهو يخاف عقاب الله.

ورجاؤه لفضل الله يحفزه لفعل الطاعات ويؤمله لقاء الله تعالى والفوز بقربه والتنعم بعظيم ثوابه.

نسأل الله تعالى من فضله وبركاته.

❐ ٤: التوكل.

❐ قوله: (**وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]).

التَّوكُّل طلب الوكالة من الوكيل، والوكيل والمتوكل بالأمر هو الذي يضمن القيام به.

فالوَكيل هو الذي يُسند إليه الأمر ويُفوَّضُ إليه ويعتمد عليه فيه.

والمتوكِّل هو المعتمِد والمفوِّض.

فالتوكُّل على الله تعالى حقيقته: الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه ثقة في حسن تدبيره واعتقاداً بأن النفع والضر بيده وحده سبحانه.

- فالتوكل عبادة من أجل العبادات، وهو يجمع عبادات عظيمة من التذلل لله، والخضوع إليه، وتفويض الأمر إليه، ورجاؤه سبحانه، والاستعانة به، والالتجاء إليه، وحسن الظن به جل وعلا، واعتقاد أن النفع والضر بيده وحده.

- والتوكل يستلزم الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فيؤمن بسعة علم الله تعالى وقدرته، وعظيم ملكه وسعة رحمته، وكمال غناه وجميل حمده، وحسن ولايته وربوبيته، وبديع حُكْمِهِ وحِكمته، وغيرها من الصفات العليا الجليلة التي هي من آثار أسمائه الحسنى؛ فما يقوم في قلب المتوكل عند توكله من هذه العبادات وغيرها أمر لا تحيط به العبارة ولا يوفيه الشرحُ حقَّه.

- والمتوكلون يتفاضلون فيه تفاضلاً كبيراً، ويجمع ذلك أن التوكل عبادة عظيمة من أجل العبادات فمن صرفه لغير الله تعالى فلا شك في كفره وشركه وظلمه وضلاله.

وقد قال الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ فقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا من دوني وكيلا﴾.

- وقال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾.

- وقال: ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾

- وقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾

- وقال الله تعالى: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾

قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب).

ثواب التوكل على الله عظيم جليل جزيل إذ جعل الله ثواب المتوكل أن الله هو حسبه وكافيه وفي ذلك غَناء له عن كل ما تتطلبه النفس، فليس وراء الله مذهب، ولا بعده مطلب.

قال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ فجعل هذا من ثواب التقوى وهو تفريج الشدة وحصول الرزق أيا كان نوعه، أما التوكل فثوابه أعظم: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

وقد أثنى الله تعالى على نفسه بأنه ﴿نعم الوكيل﴾ وهذا الثناء يفتح لأولي الألباب أبواباً من المعاني الجليلة التي يستلزمها هذا الثناء الجميل فيثمر التفكر فيها من اليقين والإيمان ما يحمل العبد على الثقة بالله جل وعلا.

فكونه ﴿نعم الوكيل﴾ يستلزم علمه جل وعلا بحاجة من اتخذه وكيلاً، وعلمه بما يرجوه ويخافه كما قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا﴾ ويستلزم قدرته على تحقيق ما ينفع عبده ودفع ما يضره، ويستلزم نصره لعبده، ولطفه به ورحمته وإحسانه إلى غير ذلك من المعاني الجليلة التي يكفي فيها وصف ﴿نعم الوكيل﴾ ليحصل للنفس المؤمنة من اليقين والسكينة، والأمن والطمأنينة، والثقة العظيمة بالله جل وعلا ما لا تقوم له هموم الدنيا لو اجتمعت.

ولذلك تجد هذه العبارة ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ يقولها أناس فتبلغ بهم من رضوان الله جل وعلا والقرب منه والزلفى لديه منزلاً عالياً جداً، ويقولها أقوام لا تجاوز حناجرهم.

وسر ذلك ما وقر في القلب من أنواع العبودية لله جل وعلا.

يقولها أقوام وهمهم النكاية بآخرين لأمر من أمور الدنيا غضبوا لأجله، وقد يكون هذا الأمر محرماً في أصله أو في التعلق به، وقد يكونون هم الظالمين المسيئين، ويقولها أقوام

وهمهم إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وتحقيق العبودية له جل وعلا وطلب كفايته والاستغناء به جل وعلا والأنس به وعبادته على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن يكفيهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا.

فالتوكل على الله تعالى لا يختص بالأمور الدنيوية كما يتوهمه بعض الجهال، بل التوكل على الله في الأمور الدينية من أداء واجبات العبودية لله تعالى والجهاد في سبيله في جميع مراتب الجهاد والتوكل عليه في طلب الهداية في جميع الأمور كبيرها وصغيرها أولى وأعظم.

وإن كان التوكل على الله في المصالح الدنيوية مطلوباً ومثاباً عليه بل قد يجب أحياناً، لكن التوكل على الله في أمور الدين أعظم وأنفع.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (**التوكل على الله نوعان:**

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وَبَيْنَ النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله؛ فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه.

- فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم) ا.هـ.

- وقد بدأ الله تعالى بالحث على التوكل عليه في أمور الدين قبل أمور الدنيا كما في الحديث القدسي العظيم: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا

عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أَكْسِكُم).

وهذا الحديث يتضمن وجوب التوكل على الله جل وعلا فإنه لا تحصل منفعة في دين ولا دنيا إلا بإذن الله تعالى وعلمه وقدرته، وقد بين الله تعالى أن جميع أبواب النفع مغلقة إلا من طريقه جل وعلا، فما أذن الله في نفعه نفع، وما لم يأذن به فلن ينفع. ذلك أن الله له ما في السماوات وما في الأرض، وبيده ملكوت كل شيء، وهو الغني الذي لا أغنى منه، والملك الذي لا يخرج شيء عن ملكه، وهو الحميد الذي لا يخذل من توكل عليه ولجأ إليه وطلب النفع منه جل وعلا واتبع رضوانه.

تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾

تأملوا التأكيد على أن لله ما في السماوات وما في الأرض ثلاث مرات في هذه الآيات، والتأكيد على غناه جل وعلا بأكثر من وجه، وترغيبه عباده أن يسألوه من خير الدنيا والآخرة، وما في ضمن ذلك من وعده الكريم بتحقيق ما يأملون إن هم استجابوا له واتبعوا هديه، وأنه لن يضيع شيئاً من دعائهم ولا يفوته شيء من ذلك فهو السميع البصير.

كل هذه المعاني إذا تأملها المؤمن أورثته يقيناً وإيماناً وإخباتاً وإنابة لله جل وعلا. وعلم أن الله تعالى هو ﴿نعم الوكيل﴾ ﴿وكفى بالله وكيلا﴾

وقوله تعالى في الحديث القدسي: (فاستهدوني أهدكم) (فاستطعموني أطعمكم) (فاستكسوني أكسكم) يتضمن إرشاداً ووعداً لا يخلفه الله أبداً، ومن أوفى بوعده من الله؟!!.

ويصدّق هذا ويبينه ما في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجة وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أنّكم تتوكلون على الله حقّ توكلهِ: لرزقكم كما يرزق الطير، تَغْدو خماصاً وتَرُوحُ بِطانا».

- **وتحقيق التوكل يكون بأمرين:**

الأمر الأول: صدق الالتجاء إلى الله وتفويض الأمر إليه وإحسان الظن به جل وعلا وتعظيم الرغبة في فضله وإحسانه

وإفراده جل وعلا بما تقتضيه عبودية التوكل من العبادات العظيمة.

الأمر الثاني: اتباع رضوان الله جل وعلا بفعل ما هدى إليه امتثال الأمر واجتناب النهي والحرص على بذل الأسباب التي أذن الله بها في جلب النفع ودفع الضر.

وهذا أمر دل عليه الحديث الآنف الذكر فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الطير تغدو، وغُدُوُّها هو بذلها السبب في التماس الرزق.

فمن جمع الأمرين العبادة القلبية بالتوكل وبذل السبب الذي هو مقتضى هداية الله تعالى وبيانه فقد حقق التوكل واتبع رضوان الله.

ولما اجتمع هذان الأمران للمؤمنين عقب غزوة أحد كفاهم الله ما أهمهم، فكفاهم شر القتال، وأحل عليهم رضوانه، وحفظهم من كل سوء، وأعقب لهم ذكراً حسناً في كتابه الكريم لا يزال يتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ فهؤلاء حققوا الأمرين فازداد إيمانهم بالله وتوكلوا عليه جل وعلا وقام في قلوبهم من أنواع العبودية لله جل وعلا ما يحبه الله ويرضاه ﴿والله يحب المتوكلين﴾، واستجابوا لله والرسول واتبعوا رضوان الله فأحل الله عليهم رضوانه وحفظهم من كل سوء وأثابهم من الثواب العظيم ما لا يبلغه وصف واصف.

وهذان الأمران حققهما مؤمن آل فرعون فأبقى الله له الذكر الحسن والثناء الكريم فإنه اتبع رضوان الله، وبذل الأسباب التي أمر الله بها؛ فأنكر على قومه الكفر، وقام بواجب نصرة موسى عليه السلام، واجتهد في النصيحة، وفوض أمره إلى الله؛ فحفظه الله ووقاه، وأعلى ذكره وكفاه ما أهمه، وانتقم له ممن أراد المكر به، قال الله تعالى حكاية عنه بعد أن نصح قومه بما نصحهم به: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ قال الإمام الشنقيطي: (وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء).

فالتوكل على الله في تحقيق عبوديته جل وعلا - وهو أعظم أنواع التوكل- أمرَ الله مَعَه ببذل الأسباب والقيام بأعمال العبادة كما أرشد الله عباده وهداهم، قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وقال: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده﴾، وقال:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

وكذلك من توكل على الله في جلب منفعة أو دفع مضرة وجب عليه أن يبذل ما يستطيع من الأسباب التي أذن الله بها وهدى إليها.

وأما من قال بلسانه توكلت على الله وقلبه غافل لاه أو غير عازم على الصدق في التوكل فهو لم يحقق التوكل، وكذلك من لم يتبع هدى الله ولم يبذل الأسباب التي أمر الله بها فهو جاهل ظالم لنفسه، ضال في فهمه، مقدوح في عقله.

في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: (نحن المتوكلون)؛ فإذا قدموا مكة سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾).

وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

فجمع بين التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وبَذْلَ السبب لحمايتهم من العين وذلك بأمره لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة.

ومن فقه هذا المعنى حق الفقه كان حريصاً على بذل الأسباب لأنها من هدى الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولم يتعلق قلبه إلا بربه جل وعلا، لأنه هو وحده الذي بيده النفع والضر.

قال ابن القيم رحمه الله: (سرُّ التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده؛ فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه

قوله: (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به؛ فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: (توكلت على الله) مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: (تبت إلى الله) وهو مصر على معصيته مرتكب لها!!).

⇦ وخلاصة القول أنَّ مَن عَقَلَ معنى التوكل على الله وفقهه حق الفقه سعد في الدنيا والآخرة.

إذا تبين ذلك علمنا أن التوكل عبادة من أجل العبادات فمن صرفه لغير الله تعالى فهو مشرك كافر خارج من دين الإسلام.

- أما الاعتماد على الأسباب من الأشخاص والأعمال وغيرها فإن كان في القلب نوع تعلق بالسبب وتذلل فهو شرك أصغر من شرك الأسباب كما سبق بيانه في نظائره.
- وأما من اعتمد على السبب بلا تعلق قلبي فهذا ليس بشرك، ويكون حكمه على حسب ما يترتب عليه فالاعتماد على الأسباب في أمر مباح حُكْمُه الإباحة.
- والاعتماد عليها في أمر محرم حُكْمُه التحريم.

الدرس الثامن: بيان معنى العبادة وأنواعها (٣/٣)

عناصر الدرس:

١، ٢: الرغبة والرهبة.

٣: الخشوع.

٤: الخشية.

٥: الإنابة.

٦، ٧، ٨: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة.

٩: الذبح.

١٠: النذر.

❖❖❖

❐ ١، ٢: الرغبة والرهبة

❐ قوله: (وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾).

الرَّغْبَة والرَّغَب: الرجاء والطمع.

والرَّهْبَةُ والرَّهَب: الخوف والخشية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على أنبيائه بأنهم يدعونه رغباً ورهباً وحث على الاتساء بهم.

والدعاء في الآية يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة

والرغب والرهب من صفات العبادة الملازمة لها، فكل عابد راغب راهب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكل داع فهو راغب راهب طامع خائف.

وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول، وكل عابد له فهو أيضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه؛ فكل عابد سائل، وكل سائل [أي بهذا المعنى] عابد؛ فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن في ذلك صيغ سؤال.

والعابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه هو أيضا راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب ومن الخوف والطمع).

فالرغبة والرهبة بهذا المعنى عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى قال تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ تقديم الجار والمجرور يدل على الحصر، أي لا ترغب إلا إلى الله.

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمنِ ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به».

فهذه الرغبة والرهبة عبادة لما تحمله من المعاني التعبدية من التذلل والخضوع والمحبة والتعظيم والرجاء والخوف، وهذه عبادات يجب إخلاصها لله جل وعلا.

فمن صرفها لغير الله فقد أشرك بالله شركاً أكبر مخرجاً عن الملة والعياذ بالله.

وهذا أمر تُشَاهَدُ آثارُه فيمن يعبد غير الله عز وجل من عباد القبور والأولياء والجن والأشجار والأحجار وغيرها، يكون في قلب العابد لها رغبة ورهبة تعبدية مشتملة على التذلل والخضوع والمحبة والرجاء والخوف.

ويجب على العبد أن يخلص الرغبة والرهبة لله تعالى ولا يشرك به شيئاً فيها ؛

فمن لم يخلص الرغبة والرهبة فهو مشرك كافر، ومن أخلصها لله تعالى فهو مسلم موحد، والمسلمون يتفاضلون في درجة أداء هذه العبادات كما تقدم بيانه ؛ وكلما كان العبد أعظم رغبة في فضل الله تعالى ورحمته كان أكثر تعبداً من هذا الوجه.

ومما يزيد تعظيم الرغبة في نفس المؤمن تفكره في أسماء الرحمة والإحسان والبر لله جل وعلا فيتفكر في أسماء الرحمن الرحيم، والغني الكريم، والمنعم الوهاب، والبر اللطيف، والحميد الودود ونحوها من الأسماء الحسنى التي إذا فقه معانيها وتأمل آثارها في الخلق والأمر ازداد علماً ويقيناً ورغبة في فضل الله عز وجل واشتياقاً إلى لقائه والنظر إلى وجهه الكريم الذي هو أقصى غاية النعيم، نسأل الله من فضله.

وإذا تأمل ثواب الله وفضله العظيم في الدنيا والآخرة ازدادت رغبته في فضل الله ورحمته.

وسر إخلاص الرغبة هو اعتقاد العبد الكفاية في ربه جل وعلا والثقة به واليقين بأن فضله كافيه ومغنيه ؛ فإذا كان العبد على يقين من كفاية الله جل وعلا له كانت رغبته خالصة لله تعالى.

والرغبة الصادقة هي التي يتبعها العمل واتباع الهدى.

أما من كان يتمنى الأماني ويقعد عن العمل فهو غير صادق في رغبته بل هو عاجز مثَّبط كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ

انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ فهؤلاء منافقون لم يريدوا الخروج ولم يعدوا له العدة ويتظاهرون بالصلاح والإصلاح وقلوبهم غير منطوية على الرغبة الصادقة في فضل الله عز وجل، وإنما يريدون التظاهر أمام المسلمين بأنهم مجاهدون في سبيل الله؛ فَكَرِهَ انبعاثهم على هذا الوجه فثبطهم.

في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» حسنه الترمذي واستدل به جماعة من أهل العلم، ومن أهل العلم من يضعف إسناده، ومعناه صحيح.

فإن العاجز هو الذي يقعد عن بذل الأسباب مع إمكانها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل، فقرن بينهما.

والعاجز محروم مخذول مذموم ومن زعم أنه راغب في فضل الله ولم يتبع هدى الله فهو كاذب في دعواه.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود والنسائي من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قَضَى بين رجلين؛ فقال المقضي عليه لما أدبر: (حسبي الله ونعم الوكيل)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ».

فقال: «ما قلتَ؟».

قال: قلتُ: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وهذا الحديث وإن كان في إسناده مقال، لكن معناه حق، فإن العاجز الذي لا يبذل الأسباب مع إمكانها ملوم على عجزه، فإن فاته شيء من الخير أو حصل له ما يكره بسبب تفريطه فيما يمكنه من الأسباب لم يكن له حجة.

⇇أما الذي صدق في رغبته وبذل الأسباب التي هدى الله إليها فهو المؤمن المهتدي الموفق المتبع لرضوان الله جل وعلا.

وهو لا يطالب من الأسباب إلا بما يستطيع كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾

فإذا بذل العبد ما يستطيع من الأسباب وتوكل على الله فقد حقق التوكل وصدق في الرغبة وكان موعوداً وعداً لا يتخلف بتحقيق مطلوبه أو أفضل منه.

فإن غلبه أمر بعد ذلك أو حصل له ما يكره من المصائب التي يقدرها الله عز وجل عليه ابتلاء واختباراً فهو غير ملوم، بل هو موعود بأن يعوضه الله خيراً مما فاته، وأن يثيبه على ما أصابه ثواباً عظيماً.

فالرغبة الصادقة تحمل على الجد في العمل من غير تعلق بالأسباب بل يتعلق القلب بالله جل وعلا وحده، وهذا هو تخليص العبادة لله جل وعلا.

ومن تخليص العبادة أن يحذر المؤمن من الآفات التي تضعف الرغب إلى الله جل وعلا من الغفلة عن ذكر الله، وتعظيم الدنيا، والتعلق بالأسباب، وضعف الصبر واليقين.

وكل ما تقدم من الكلام في الرغبة قل نظيره في عبادة الرهبة فهي عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل.

فمن تفكر في أسماء الجلال لله تعالى كأسماء العظيم القهار الكبير الجبار والقوي المتعال المحيط المتكبر ونحوها من الأسماء الجليلة العظيمة وتأمل آثارها في الخلق والأمر عظمت رهبة الله تعالى في نفسه ذلت نفسه لله وخضعت، وأطاعت له وأذعنت، وسلمت له وطلبت مرضاته، وتطهرت النفس من كل خلق لئيم، فذاب الكبر والعجب والغرور، واضمحل الرياء والنفاق، ونأت المطامع الدنيوية الصارفة عن المقامات العلية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فهذا كله في بيان الرغبة والرهبة التي تحمل معاني تعبدية.

⇇ أما الرغبة التي لا تحمل معنى العبادة وكذلك الرهبة التي لا تحمل معنى العبادة وهي الرغبة في نفع أسباب الخير، والرهبة من أسباب الشر؛ فليست عبادة، بل هي رغبة ورهبة يقتضيهما الطبع وحب حصول المنفعة والسلامة من المضرة.

وفي الصحيحين من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (قَدِمَت عليَّ أمي وهي مشركةٌ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: (قدمت علي أمي وهي راغبةٌ أَفَأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم، صلي أُمَّكِ»).

وكذلك الرهب الذي لا يحمل معنى العبادة هو رهب طبيعي ويكون حكمه بحسب ما يفضي إليه.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

وفي أمثال العرب: رهبوت خير من رحموت. أي أن تُرهب خير من أن تُرحم.

وقال الله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

وقال: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ❖ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ❖ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾

فهذه الخيفة والرهبة خيفة ورهبة طبيعية لا يلام عليها الإنسان في الأصل، وهو كما يرهب من الأعداء والسباع ونحوها.

وكذلك الرغبة في أسباب الخير مما أحوج الله بعض الناس به إلى بعض ما يرجى نفعه لا لوم على الإنسان فيه إذا كان متبعاً لهدى الله عز وجل في ذلك، متقياً ربه جل وعلا، ولم يتعلق قلبه بهذه الأسباب.

والمقصود أن **الرغبة والرهبة تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: رغبة العبادة ورهبة العبادة وهي الرغبة والرهبة التي تحمل معاني التعبد من الذل والمحبة والتعظيم فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا.

القسم الثاني: الرغبة والرهبة الطبيعيتان وهما اللتان يحمل عليهما مقتضى الطبع ولا يكون فيهما معاني التعبد.

فهذه على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: لا لوم فيها على العبد، وذلك إذا لم تحمل هذه الرغبة الرهبة العبد على ارتكاب محظور لا يعذر فيه، أو ترك مأمور لا يعذر بتركه، ولم يتعلق قلبه بالأسباب.

الدرجة الثانية: محرمة وهي التي تحمل العبد على ترك مأمور لا يعذر بتركه أوفعل محظور لا يعذر بفعله، وتختلف درجة التحريم بحسب درجة المخالفة؛ فإن خالف في صغيرة كان إثمها بحسبها، وإن ارتكب كبيرة من الكبائر بسبب هذه الرغبة والرهبة كان إثمه أعظم، فإن

أدى به ذلك إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام فهو كافر والعياذ بالله كما تقدم بيانه في مسألة الخوف.

الدرجة الثالثة: الرغبة والرهبة التي هي شرك أصغر من شرك الأسباب، وهي أن يتعلق قلب العبد بالأسباب.

❑ ٣: الخشوع

الخشوع في اللغة أصله السكون، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾

ويفسَّر في كل موضع بحسبه؛ فخشوع الأصوات: سكونها وصمتها قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

وخشوع الأبصار: خضوعها وذلتها وانخفاضها قال الله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ❖ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

وخشوع القلب: ذلُّه وخضوعه وإخباته.

وخشوع الجوارح: سكونها عن الحركة المنافية للخشوع.

ومن ذلك الخشوع في الصلاة فإنه يشمل معنيين:

- خشوع القلب بالتذلل والخضوع لله جل وعلا.
- وخشوع الجوارح بأداء الصلاة بطمأنينة وترك العبث والحركة المنافية للخشوع.

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾

فإنه يشمل خشوع القلب الذي هو الأصل وخشوع الجوارح وخشوع البصر في الصلاة.

والبكاء أثر من آثار الخشوع، فقد يخشع العبد في صلاته ولا يبكي، وقد يبكي فيكون بكاؤه من أثر خشوعه.

والناس يتفاضلون في الخشوع كما قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [سورة الإسراء]

والمقصود أن الخشوع عبادة لله تعالى لا يجوز صرفها لغيره عز وجل، ومن تأمل أحوال عُبَّاد القبور والأشجار والأضرِحَة ورأى تمسّحهم وطوافهم وخوفهم ورجاءهم وخشوعهم وخضوعهم عرف المعنى المراد من الخشوع الشركي.

وأما الخشوع الذي لا يحمل معنى التعبد وإنما يقتضيه الإطلاق اللغوي فليس بشرك، وهذا له شواهد في كلام العرب، واستعمال الناس له في بعض الإطلاقات ولا يراد به المعنى التعبدي، والعرب تطلقه وصفاً للجبان تعييراً له، وكذلك قليل الصبر ومن استكان لعدوه، ويحذرون من هذه الصفة ويتبرؤون منها.

قال ابن خفاف يوصي ابنه:

وإِذا افْتَقَـرْتَ فـلاَ تَكُـنْ مُتَخشِّـعاً ... تَرْجُو الفَواضِلَ عندَ غيرِ المُفْضِـلِ

ومن اعترف به منهم فهو كمن اعترف بالذل والمهانة والاستكانة إما لِكِبَرِه أو غلبة الحوادث عليه وقلة حيلته ومنه قول الشاعر:

فأَصبَحْتُ مِمَّا أَحدثَ الدهرُ خاشعاً ... وكنـتُ لِرَيـبِ الـدهرِ لا أَتَخَشَّـعُ

والمسكين سمي مسكيناً لما فيه من التخشع والاستكانة.

فإن كان في القلب خشوع لأمر من أمور الدنيا وخضوع لها بمعنى التعلق وعبودية الدنيا فهذا شرك أصغر والعياذ بالله كما سبق بيانه، وهذا يكون لدى بعض العشاق ونحوهم، ومن ذلك قول الأحوص:

ألا فارحَمِي مَن قد ذَهَبتِ بعَقْلِهِ   فأمسى إليكم خاشعاً يتضرَّعُ

نسأل الله العافية.

فهذا شرك أصغر قادح في كمال التوحيد الواجب؛ فإن أدى بصاحبه إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام القولية أو الفعلية أو الاعتقادية فهو كافر والعياذ بالله.

❒ قوله: (**وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِي﴾ [البقرة: ١٥٠]).

الخشية: شدة الخوف وهي مبنية على العلم، وبذلك فُرق بينها وبين الخوف وإن كان بينهما تقارب في المعنى.

فالخشية فيها معنى الخوف الشديد المبني على العلم بعظمة المخشي منه، قال الله تعالى: ﴿إِنّما يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَماءُ﴾

وإفراد الله بالخشية من سمات الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلّا اللّهَ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً﴾.

وأمر الله تعالى بإفراده بالخشية ﴿أتخشونهم فَاللّهُ أَحَقّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾

فالخشية تحمل معاني تعبدية من التذلل والمحبة والتعظيم والانقياد، وهي من أعظم ما يحمل العبد على التقوى فهو يخشى من غضب معبوده عليه وحرمانه من رضاه وفضله، ويخشى أن يحل عليه سخطه وعقوبته، ويخشى أن يخذله ويتخلى عنه.

فهذه المعاني التعبدية من أخلصها لله جل وعلا فهو موحد مؤمن قد أعد الله له الثواب العظيم، وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين بأنهم يخشونه بالغيب، ووعدهم على هذه الخشية الثواب العظيم والنعيم المقيم كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنّةُ لِلْمُتّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلّ أَوّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣٥)﴾

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ نكر المزيد للتشويق إليه، وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين أن المزيد هو رؤية المؤمنين لربهم جل وعلا، وهذا المزيد أفضل مما في الجنة من النعيم، نسأل الله تعالى من فضله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾

وإخلاص عبادة الخشية لله تعالى باب عظيم لبركات كثيرة عظيمة لا يقدر قدرها إلا الله جل وعلا.

فهي مفتاح لفهم القرآن وتدبره والاعتبار بما فيه والتذكر النافع الذي يزداد به اليقين ويرتفع به الإيمان وتزكو به النفس، ويتيسّر به اتباع الهدى، بل إن الله - تعالى ذكره- بيّن أن مقصوده الأعظم من إنزال كتابه هو تذكير أهل خشيته ومخاطبتهم به؛ فهم أحق الناس بهذا الكتاب وأسعد الناس به، والرسالة لهم فيه خاصة وهي للناس عامة، فلهم فيه امتياز لا يشاركه غيرهم فيه من التوفيق للفهم والاعتبار وحسن التذكر والتبصر والدلالة على اتباع رضوانه جل وعلا وسبل الفوز بفضله ورحمته فهو دليلهم الخاص إلى خير الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

(٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴾

وقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخشون ربهم﴾

وقال تعالى: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى﴾ وهذا وعد من الله لأهل خشيته أنهم سيذكرون وينتفعون من كتابه أعظم انتفاع.

والتذكر المراد هنا يشمل ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التذكر الذي يحمل على محبة الله جل وعلا، ومحبة لقائه والتقرب إليه من تذكر صفات الله عز وجل وكرمه وفضله وإحسانه فإن العبد إذا عظمت محبة الله تعالى في قلبه أحب ما يذكره به ومن أحب ذكر الله أحبّ الله له أن يتذكر، ومن كره ذكر الله كان جزاؤه من جنس عمله إلا أن يعفو الله عنه ويتوب عليه.

وصدق المحبة يحمل على الخشية من الانقطاع عن الله جل وعلا والحرمان من رضوانه، ولذلك إذا بلغهم من نصوص الكتاب والسنة أن من عقوبة بعض الذنوب أن صاحبها لا يكلمه الله ولا ينظر إليه أورثهم ذلك خشية خاصة يجدونها في قلوبهم لما وقر فيها من معرفة الله جل وعلا، واليقين بأن الحرمان من تكليمه والنظر إليه عقوبة عظيمة لا يحتملها من صدقت محبته لله جل وعلا.

الأمر الثاني: التذكر الذي يحمل على الرجاء في فضل الله عز وجل وحسن ثوابه؛ فإنه إذا تذكر ما أعده الله لعباده من الثواب والفضل العظيم دعاه ذلك إلى الازدياد من الأعمال الصالحة لما يرجو من حسن ثوابها.

وصدق الرجاء يحمل على الخشية من فوات ثواب الله عز وجل وفضله.

الأمر الثالث: التذكر الذي يحمل على الخوف من الله تعالى والخوف من سخطه وعقابه، وهذا ما يزجره عن ارتكاب المحرمات والتفريط في أداء الفرائض.

والخوف الصادق يحمل على خشية التعرض لسخط الله وعقابه.

وهذه الأمور الثلاثة (المحبة والرجاء والخوف) هي أركان العبادة، وعليها مدراها، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخشية كما سبق بيانه، وبهذا تعلم شيئاً من الفرق بين الخشية والخوف، وأن خشية العبادة لها لوازم تعبدية من المحبة والخوف والرجاء.

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾. أي: سَيَتّعِظُ بما تُبَلِّغُه يا محمدُ، مَن قَلْبُه يَخْشَى اللّهَ ويَعْلَمُ أنّه مُلاقيهِ).

فالذي تقوم في قلبه خشية العبادة لله تعالى من محبته والتذلل له والتعظيم والانقياد والرغبة والرهبة ورجاء لقائه وفضله العظيم والخوف من سخطه وعقابه والخوف من أن يتخلى عنه ربه ووليه إذا هو ارتكب ما يسخطه، من قام في قلبه هذا المعنى كان من أكثر الناس حظاً وانتفاعاً بالقرآن العظيم، لأنه يقرأ القرآن ويسمعه وقلبه متطلع إلى مزيد من الهدى ليتعرف به على أسباب التقرب إلى الله تعالى والفوز برضوانه وفضله العظيم والسلامة من سخطه وعقابه.

ومن كان هذا حاله فهو موعود بما يسره ويرضيه، من الهداية لما يقربه إلى الله تعالى ويدنيه، ويسعده في الدنيا والآخرة ولا يشقيه، وتأمل وصف الله تعالى لحال أهل خشيته عند تلاوتهم وسماعهم لآيات الله تتلى عليهم ومعرفتهم بأنهم هم المعنيون أولاً بما فيه من العبر والبينات، قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾

ومن تأمل العبر والآيات البينات التي جمعها الله لأهل خشيته وبيّنها لهم وأرشدهم إلى التأمل فيها والاعتبار بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾..

علِم أن أهل الخشية هم أهل الخطاب الخاص في القرآن الكريم، وهم أهل التذكر والتفكر، وهم أهل الاعتبار والتبصر، وهم أحرص الناس على الهداية وأعظمهم فرحاً بما يقربهم من الله تعالى ويدنيهم منه، وأشدهم حرصاً على التحرز مما يسخطه جل وعلا، لأنهم على يقين تام بأن فوزهم وفلاحهم ونجاتهم مداره على رضوان الله تعالى عنهم، وأنه ليس بينهم وبين الله سبب يتمسكون به إلا ما يرشدهم إليه من العمل الصالح واتباع هداه جل وعلا، فهم العلماء على الحقيقة، كما قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾

فجمع الله لهم مواضع الاعتبار والتفكر ووعدهم أن يوفيهم أجورهم ويزيدهم زيادة من عنده تليق بفضله وكرمه سبحانه لم يبينها لهم بل أخفاها لهم ليتشوقوا إليها، وأخبرهم أنه غفور شكور، فيغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم ويفتح لهم أبواب الرجاء في مغفرته وعفوه

وتجاوزه، وهو تعالى شكور لا يضيع لهم أي عمل صالح يعملونه ولو كان مثقال ذرة، بل يقبله منهم وينميه لهم ويضاعف لهم مثوبته.

وأرشدهم الله تعالى إلى التفكر في آياته الكونية المخلوقة وآياته المتلوة، فهذا الماء الذي ينزل من السماء هو ماء واحد وتخرج به ثمرات مختلف ألوانها؛ فكذلك وحي الله تعالى المنزل هو وحي واحد ولكن انظر إلى اختلاف آثاره في قلوب الناس وأعمالهم؛ فمنتفع ومحروم، ومستقل ومستكثر، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ(١٨)﴾

وقد وعد الله عباده الذين يخشونه بالغيب بأن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا يدلك على أنه ليس من شرط الذين يخشون ربهم أنهم معصومون من الذنوب والخطايا، بل قد يقعون في بعضها، وهم على ذلك يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ويستغفرون ربهم ويتبعون السيئة الحسنة ويتوبون إلى الله ويستغفرونه وبذلك مدحهم الله وأثنى عليهم ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

- وأهل خشية الله يتفاضلون في الخشية تفاضلاً عظيماً فهم على درجات لا يحصيهم إلا من خلقهم، فمن كان معه أصل الإسلام فمعه أصل الخشية، وكلما ازداد العبد من الخشية ازداد نصيبه من تكميل منازل العبودية لله تعالى والفوز بفضله ورحمته وما يفتح الله له به من الفضل العظيم بتذكر آياته والانتفاع بعظاته واتباع هدى الله الذي أرشده إليه.

وأعلاهم درجة السابقون المقربون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾

هذا كله في خشية العبادة، أما ما يطلق عليه لفظ الخشية وهو لا يحمل معاني تعبديه؛ فهذا حكمه حكم الخوف الطبيعي يكون بحسب ما يحمل عليه فإن لم يحمل صاحبه على ارتكاب محظور أو ترك مأمور فهي خشية طبيعية لا يلام عليها كأن يخشى السباع والهوام والطغاة.

أما إن حملته تلك الخشية على ارتكاب محظور لا يعذر بارتكابه أو ترك مأمور به لا يعذر بتركه فهو مذنب آثم وإثمه على حسب جرمه

فإن أدَّت به هذه الخشية إلى فعل صغيرة من الصغائر فإثمه بحسبه.

وإن أدّت إلى فعل كبيرة كان إثمه أعظم، وهو ملوم مذموم على الحالين كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾

ولهذا تكثر هذه الخشية عند المنافقين حتى إنها ربما أخرجتهم من دائرة الإسلام والعياذ بالله وذلك إذا حملتهم على موالاة الكفار على المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

⇇ وأما من حملته خشيته من فوات بعض حظوظ الدنيا على التعلق بالدنيا تعلقاً يكون فيه تذلل وخوف ورجاء فهذا قد وقع في الشرك الأصغر وعبودية الدنيا والعياذ بالله.

فإن حملته عبوديته للدنيا على ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كفر والعياذ بالله.

❏ ٥: الإنابة

❏ قوله: (**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ الآية [الزمر: ٥٤]).

الإنابة: هي الرجوع والإقبال إلى الله تعالى.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾: أي أقبلوا إلى ربكم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: (الإنابة: الرجوع إلى الطاعة، والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ).

والإنابة هي من آثار خشية الله وعلامة عليها؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)﴾

فمن أحب الله تعالى أناب إليه، ومن رجا فضله تعالى أناب إليه، ومن خاف عذابه أناب إليه.

فمصدر الخشية: المحبة والخوف والرجاء، وثمرة الخشية الإنابة إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

وقد بين الله تعالى أن المنتفعين بآياته والمتذكرين والمتبصرين هم أهل الخشية، وأهل الإنابة.

فإذا أطلقت الخشية فلأنها سبب الإنابة والحامل عليها، وإذا أطلقت الإنابة فلأنها هي الثمرة المقصودة من الخشية.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾

فالعبد المنيب هو الذي جمع الخشية وأسبابها من المحبة والخوف والرجاء، ولذلك جعلها الله من أوصاف أنبيائه ومدحهم بها فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

وقال عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

وأوحى الله تعالى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في استفتاح تهجده «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ» كما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وتقديم الجار والمجرور يفيد الحصر.

وقد أمر الله تعالى عباده بالإنابة إليه فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

فجمع الله تعالى في هاتين الآيتين الأسباب الثلاثة الحاملة على الإنابة وهي:

السبب الأول: تحبيبهم إليه تعالى، وتذكيرهم بصفاته المقتضية لمحبته فهو ربهم وهم عباده، وهو الرحيم الذي لا يؤيس عباده من رحمته، الغفور الذي يغفر الذنوب جميعاً مهما بلغت فلا يستعظمه ذنب أن يغفره، وهو الودود الذي تودد إلى عباده بحسن مخاطبتهم رحمة بهم وإحساناً إليهم وهو الغني عنهم جل وعلا، ورفع من شأنهم إذ أضافهم إليه في خطابه لهم ﴿يَا عِبَادِيَ﴾.

فمن تأمل هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا وآثارها أحبّ الله تعالى وأناب إليه.

السبب الثاني: الرجاء في رحمته ومغفرته وفضله العظيم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾

السبب الثالث: التخويف من عذابه جل وعلا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾

فمن تدبر هاتين الآيتين عرف أسباب الإنابة، وأنها ترجع إلى المحبة والخوف والرجاء التي هي أصول العبادة.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

وقد بيّن الله تعالى أن الإنابة إليه من أسباب الهداية التي هي أعظم المطالب وهي سبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾

ومن حقق التوكل والإنابة فقد حقق العبودية لله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: (التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة؛ فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة).

وفي الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وبهما اكتمال دين العبد.

ومما ينبغي التفطن له ما نبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة.

ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه؛ بل هو مقبلٌ على هواه في غفلةٍ عن ذكر ربه.

وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينًا وطمأنينةً وشفاءً.

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾).

فهذا كله في الإنابة التي تحمل معاني العبادة فإخلاصها لله تعالى واجب، ومن صرفها لغير الله تعالى فلا شك في كفره.

وقد يطلق لفظ الإنابة في اللغة ولا يراد به هذه المعاني التعبدية وإنما يراد به المعنى اللغوي العام وهو الرجوع والإقبال؛ فيقال: أنابت المرأة إلى زوجها إذا رجعت إليه بعد نشوز.

وقال الشاعر:

ولقد رأيت سبيئة من أرضها   تسبى القلوب وما تنيب إلى هوى

وقال النابغة الشيباني:

كأنّ ظهورَها حزَمٌ أنابَتْ   بِها أُصُلاً إلى الحيِّ الإماءُ

(حزم) جمع حزمة، وهي حزم الحطب.

(أُصُل) جمع أصيل وهو العصر، وهو وقت رجوع الإماء من أعمالهن حاملاتٍ حزم الحطب على رؤوسهن مقبلات إلى منازل الحي؛ فسمَّى هذا الرجوع والإقبال إنابة.

فهذا الإطلاق إنما يراد به أصل المعنى اللغوي، وهو عارٍ من المعنى التعبدي.

وسبب التنبيه على ذلك أنه ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن هذه الألفاظ قد تطلق ويراد بها المعنى التعبدي، وقد تطلق ويراد بها المعنى اللغوي المجرد عن اللوازم التعبدية، وهو استعمال صحيح جائز في مواضعه لا حرج فيه.

ومن غفل عن هذا الأمر ربما تشدد في منع إطلاق هذه الألفاظ جهلاً منه بأنها تطلق إطلاقاً سائغاً على معانٍ لا محذور فيها.

❏ ٦، ٧، ٨: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة

❏ قوله: (**وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **وَفِي الْحَدِيثِ:** «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿قلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، **وَقَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ﴾.

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية).

الاستعانة هي طلب الإعانة على تحصيل نفع يرجى وقوعه.

والاستعاذة هي طلب الإعاذة من ضرّ يخشى وقوعه.

والاستغاثة هي طلب الإغاثة لتفريج كربة، فالاستغاثة أخص منهما لأنها تكون عند الشدة.

وهذا الطلب يكون بالقلب والقول والعمل.

والاستعانة أوسع هذه المعاني الثلاثة وهي عند الإطلاق تشملها جميعاً، فتكون الاستعاذة هي طلب الإعانة على دفع مكروه، والاستغاثة هي طلب الإعانة على تفريج كربة.

فالاستعانة بابها واسع وهي من أعظم العبادات وأجلها حتى إنها جعلت قسيمة العبادة في سورة الفاتحة وهي من العبادة لأهميتها فقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

فالاستعانة بمعناها العام تشمل الدعاء والتوكل والاستعاذة والاستغاثة والاستهداء والاستنصار والاستكفاء وغيرها.

وبيان ذلك أن كل ما يقوم به العبد من قول أو عمل يرجو به تحصيل منفعة أو دفع مفسدة فهو استعانة.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته.

فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها، ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه وغير ذلك من الحاجات التي لا تنفك عنها لحظة من لحظات حياته، وغيرها كثير مما يكثر احتياجه إليه وافتقاره إلى الإعانة عليه.

والعبد حارث همام يجد في قلبه في كل وقت مطلوباً من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه.

والله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.

وهذا أمر تكرر تأكيده في القرآن العظيم في مواضع كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وقوله: ﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

فالرزق هو جلب النفع، والنصر هو دفع الضر.

وقوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾

وقوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ وتقديم الظرف للحصر.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾

قال ابن القيم رحمه الله: (﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كلّ شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يُرَد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها؛ فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه؛ فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يحب لأجله؛ فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله؛ فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه؛ فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئنُّ ولا يسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد؛ فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين؛ فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد)ا.هـ.

⇦والمقصود أنه لا يحصل لعبد نفع في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله جل وعلا، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد ولا بد معه أيضاً من انتفاء المانع، ولا يكون كل ذلك إلا بإذن الله جل وعلا.

فمن أبصر هذا حقيقةً أسلم قلبه لله جل وعلا، وعلم أنه لا يكون إلا ما يشاء الله، وأن ما يطلبه من خير الدنيا والآخرة لا يناله إلا بإذن الله وهدايته ومشيئته، وأن لنيل ذلك أسباباً هدى الله إليها وبيّنها.

فيقوم في قلبه أنواع من العبودية لله جل وعلا من المحبة والرجاء والخوف والرغب والرهب والتوكل وإسلام القلب له جل وعلا والثقة به وإحسان الظن فيه؛ ويحصل في قلب المؤمن

بسبب ذلك من السكينة والطمأنينة والبصيرة ما تطيب به حياته وتندفع به عنه شرور كثيرة وآفات مستطيرة.

والناس في العبادة والاستعانة على أقسام ؛ فأفضلهم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى فحققوا ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهؤلاء بأفضل المنازل ؛ فإنهم استعانوا بالله تعالى على عبادة الله كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة : «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»

وقد فقه معاذ بن جبل هذا الحديث أحسن الفقه ؛ ففي الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذاً إلى اليمن فقال : «ادعوا الناس ، وبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا».

قال : فكان لكل واحدٍ منا قبةٌ نزلها على حِدَةٍ.

فأتى معاذٌ أبا موسى وكانا يتزاوران..

ثم جلسا يتحدثان فقال معاذ : يا أبا موسى كيف تقرأ القرآن؟

قال : أتفوّقه تفوقاً على فراشي وفي صلاتي وعلى راحلتي.

ثم قال لمعاذ : كيف تقرأ أنت؟

قال : سأنبئك بذلك ؛ أما أنا فأنام ثم أقوم فأقرأ فأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي).

وهذا أمر قد يغفل عنه كثير من الناس ؛ فإن من أخلص قلبه لله جل وعلا جعل ما يفعله من المباحات سبباً للتقوي على طاعة الله جل وعلا وحسن عبادته حتى تكون حياته كلها لله كما قال الله تعالى لنبيه : ﴿قُلْ إِنّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

والمسلمون يتفاضلون في هاتين الصفتين تفاضلاً عظيماً فهم على درجات فيهما لا يحصيهم إلا من خلقهم، فمن حقق إخلاص العبادة والاستعانة فهو سابق بالخيرات بإذن ربه.

ويكون لدى بعض الناس ضعف في إخلاص العبادة، وضعف في إخلاص الاستعانة.

والتقصير في إخلاص العبادة تحصل بسببه آفات عظيمة تحبط العمل أو تنقص ثوابه كالرياء والتسميع وابتغاء الدنيا بعمل الآخرة، وأخف من هؤلاء من يؤدي هذه العبادات لله لكن لا يؤديها كما يجب؛ فيسيء فيها ويخلّ بواجباتها لضعف إخلاصه وقلة إيمانه.

والتقصير في الاستعانة تحصل بسببه آفات عظيمة من الضعف والعجز والوهن فإن أصابه ما يحِبُّ فقد يحصل منه عجب واغترار بما يملك من الأسباب، وإن أصابه ما يكره فقد يبتلى بالجزع وقلة الصبر.

وكلا التقصيرين لا يحصل لصاحبه طمأنينة قلب ولا سكينة نفس ولا تطيب حياته حتى يحقق هذين الأمرين.

وتحقيق الاستعانة يكون بأمرين:

أحدهما: التجاء القلب إلى الله تعالى والإيمان بأن النفع والضر بيده جل وعلا وأنه مالك الملك ومدبر الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع عليم وقريب مجيب، فيستعين به راجياً إعانته.

والآخر: بذل الأسباب التي هدى الله إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

وهذان الأمران أرشد إليهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»

فالحرص على ما ينفع عام في أمور الدين والدنيا.

- والاستعانة بالله تكون بطلب عونه وتأييده وتحقيق ما ينفع.
- والعجز هو: ترك بذل السبب مع إمكانه؛ فنُهي عنه.

وقد رتَّب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات الثلاث ترتيباً بديعاً لتوافق الحال؛ فإن معرفة المطلوب ومعرفة نفعه والحرص عليه سابقة للاستعانة على تحقيقه، ثم تكون الاستعانة مرتبة بعدها؛ فيطلب العبد العون من ربه جل وعلا على تحقيق ما ينفعه وأن يهديه لتحصيله من الوجه الذي يحبه ويرضاه، ثم يبذل الأسباب التي أذن الله بها.

- فإذا قام العبد بهذه الأمور فقد حقق الاستعانة.

فإن تحقق له ما يطلب كان من الشاكرين، وإن أصابه ما يكره من فوات مطلوبه قال: «قدر الله وما شاء فعل» فصبر لذلك وأحسن الظن بالله، ورجا أن يعوضه ربه خيراً فيما فاته، والله تعالى كريم لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب رجاء من صدق الرجاء فيه.

➢ وأما ترك الأخذ بالأسباب فهو عجز مذموم، كما أن تعلق القلب بها شرك مذموم.

- وأفضل أنواع الاستعانة وأكملها وأحبها إلى الله الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حباً لله ورجاء في فضله وخوفاً من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه حتى في شسع نعله فإنه إذا لم ييسره الله لم يتسير، وقد روي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مختلف في صحته، ومعناه صحيح، وقد أمر الله تعالى بالسؤال من فضله فقال: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ وهو يشمل فضله في الدنيا والآخرة.

لكن من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به ، وإن حُرمه ابتلاء واختباراً جزع وسخط ؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا ، وقد تُعجّل لهم مطالبهم فتنة لهم ثم تكون عاقبتهم سيئة ؛ فإنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به ؛ فقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) ﴾

وقال : ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾

وقال : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾

وأصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة كما قال تعالى : ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى﴾ وقال : ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾. وقال : ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾

- والناس في إرادة الدنيا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثاراً مطلقاً فهي همهم ولأجلها عملهم ؛ فهؤلاء هم الكفار الذين عناهم الله تعالى في الآيات السابقة ، ويلتحق بهم كل من ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام بسبب إيثاره للحياة الدنيا ، والعياذ بالله.

القسم الثاني: الذين لديهم نوع إيثار للحياة الدنيا حملهم على ترك بعض الواجبات واقتراف بعض المحرمات فهؤلاء هم أهل الفسق من المسلمين.

القسم الثالث: الذين استعانوا بأمور الدنيا على ما ينفعهم في الآخرة، فأخذوا منها ما يستعينون به على إعفاف أنفسهم والتقوي على طاعة الله ؛ فهؤلاء هم الناجون السعداء.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

نعود إلى بيان قاعدة هذا الباب وهي أن **الاستعانة على قسمين**:

القسم الأول: استعانة العبادة، وهي التي يصاحبها معان تعبدية تقوم في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغيره فهو مشرك كافر، وقد قال الله تعالى فيما علمه عباده المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله جل وعلا وحده، ولا يستعان بغيره، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وكذلك استعاذة العبادة واستغاثة العبادة فإنه لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل؛ فمن صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك شركاً أكبر مخرج عن الملة والعياذ بالله كما يفعله عباد القبور والأولياء فإنه يقوم في قلوبهم من العبوديات لمن يدعونهم ويستعينون بهم ويستعيذون بهم ويستغيثون بهم ما هو من أعظم الشرك والكفر بالله جل وعلا.

والاستعانة ملازمة للعبادة فكل عابد مستعين؛ فإنه لم يعبده إلا ليستعين به على تحقيق النفع ودفع الضر.

القسم الثاني: استعانة التسبب، وهو بذل السبب رجاء نفعه في تحصيل المطلوب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فهذه الاستعانة بهذا السبب ليس فيها معان تعبدية، وهي على أقسام في حكمها بحسب حكم السبب والغرض منه

فمنها الاستعانة المشروعة وهي بذل الأسباب المشروعة لتحقيق المطالب المشروعة؛ فهذه قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة بحسب المأمور به، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾

فالاستعانة هنا بالصبر والصلاة هي من باب استعانة التسبب؛ فالصبر والصلاة سببان عظيمان للاستقامة على دين الله جل وعلا والفوز بفضله ورضوانه وهما أصل كل خير، وإيضاح ذلك يستدعي بسطاً ليس هذا موضعه وقد تكلم فيه جماعة من أهل العلم وأفرد شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ ورسالته تحتاج إلى شرح وإيضاح.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فِتَن، القاعِدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي، مَنْ تَشَرّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ، ومَن وَجَدَ مَلْجأ أو مَعاذا فَلْيَعُذْ به».

وفي رواية عند مسلم: «فليستعذ» ومعناهما واحد.

والمقصود الاستعاذة بهذه الأسباب من الوقوع في تلك الفتن؛ فهي استعاذة تسبب، والكلام في الاستعاذة والاستعانة واحد.

وكالاستعانة على إعفاف النفس بالكسب الطيب والزواج، والاستعانة على دفع المرض بالدواء واختيار الطبيب الحاذق ونحو ذلك فهذه استعانة تسبب مشروعة وقد تجب في أحوال.

لكن إن تعلق القلب بالسبب كتعلق المريض بالطبيب فهذا من شرك الأسباب كما سبق إيضاحه.

- وأما الاستعانة على تحقيق غرض محرم فغير جائز كالاستعانة بالحيل المحرمة على الكسب غير المشروع.

والمقصود: أن استعانة التسبب حكمها بحسب حكم السبب وحكم الغرض فإذا كان الغرض مشروعاً والسبب مشروعاً كانت الاستعانة مشروعة.

وإذا كان الغرض محرماً أو كان السبب محرماً لم تجز تلك الاستعانة.

فإن تعلق القلب بالسبب كان ذلك شركاً أصغر من شرك الأسباب.

- والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة من المسائل المهمة التي تتعلق بها حاجة العبد في جميع أحواله، وفيها مسائل مهمة طويت ذكرها اختصاراً لئلا يطول المقام بالشرح، وأسأل الله تعالى أن ييسر بيانها في دورات قادمة إن شاء الله تعالى.

❏ ٩: الذبح

❏ قوله: **(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالى:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ❖ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾، **وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ:** «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»).

الذبح المراد به ذبح القرابين من الأنعام.

والذبح من الشعائر التعبدية الظاهرة فيفعلها الموحدون لله جل وعلا، ويفعلها المشركون تقرباً إلى معبوداتهم الباطلة لجلب النفع أو دفع الضر أو طلب الشفاعة أو الشكر.

والذبح على قسمين:

القسم الأول: ذبح يكون فيه معنى تعبدي فيهلُّ باسم المذبوح له أو يقصد بالذبح التقرب له كذبح الهدي والأضاحي والنذور؛ فهذا الذبح عبادة صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر.

قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾

النحر يكون للإبل، والذبح للبقر والغنم، وحكمهما واحد.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ❖ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾

النُّسُك هو كل ما يُتعبَّد به، وأشهر ما يطلق عليه لفظ النسك: الذبح، وبه فسر هذه الآية جماعة من السلف منهم مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة.

والنَّسيكة: الذبيحة، جمعها نُسُك وَنَسَائِك.

- فالذبح الذين يكون على وجه التقرب أو يذكر عليه اسم فهو عبادة من صرفه لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر سواء أكان المذبوح من بهيمة الأنعام أم غيرها.

والسبب في ذلك أن الذابح إذا أهل باسم غير الله فقد أشرك به، وإذا قصد تقديم هذه الذبيحة قرباناً لغير الله جل وعلا فهو مشرك كافر بهذا التقرب.

- والذبح من الشعائر التعبدية الظاهرة؛ وكان من مظاهر الشرك المعروفة لدى المشركين أنهم يذبحون لمعبوداتهم تقرباً بين يدي حوائجهم أو شكراً، ولا يزال هذا في المشركين إلى اليوم.

بل إن منهم من إذا عجز عن تقريب شيء من بهيمة الأنعام قرَّب دجاجة أو حيواناً صغيراً أو شيئاً حقيراً، وكل ما تقرب به إلى غير الله جل وعلا على وجه التعبد فهو شرك أكبر.

ولحرمة هذا الأمر حُرِّمَ أن يذبح المسلم في المكان الذي يُذبح فيه لغير الله جل وعلا؛ ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود وابن ماجه من حديث ثابت بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه وهو ممن بايع تحت الشجرة، قال: نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا ببُوانَةَ؛ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال: (إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعْبَد؟»

قالوا: لا.

قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»

قالوا: لا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم».

وهذا الرجل الناذرُ اسمُه كردم اليساري رضي الله عنه كما في مصنف ابن أبي شيبة ومسند الإمام أحمد عن ابنته ميمونة رضي الله عنها أنها كانت حاضرة سؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم.

بل حرِّم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾

فما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه، والميتة التي تموت ولم تذبح ويسمى الله عليها حرام لا يجوز أكلها.

وأما من نسي التسمية من المسلمين فذبح ولم يسمِّ نسياناً فقد اختلف أهل العلم في حل ذكاته على ثلاثة أقوال أصحها وهو قول جمهور الأئمة جواز أكلها لأنه لم يتركها عمداً وإنما نسي التسمية ولو ذكرها لم يتركها، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

وقد حكى ابن جرير الإجماع على جواز أكلها واعتبر ما روي عن ابن سيرين من المنع شاذاً.

➢ وأما من ترك التسمية عامداً فجمهور أهل العلم على أن ذبيحته لا تؤكل.

والمقصود: أن كل ذبح ذكر عليه اسم عند الذبح فهو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا.

والقسم الثاني: الذبح الذي لا يكون فيه معنى التعبد، وإنما يذبح للَّحم أو لغرض آخر لا يكون فيه معنى التقرب ولا يكون معه تسمية.

فهذا النوع من الذبح ليس بعبادة، ولا يحل أكله لأجل أنه لم يذكر اسم الله عليه.

ومن هذا النوع ذبائح الكفار التي يذبحونها للَّحم ولا يسمون عليها.

ومن هذا النوع أيضاً: العقر الجاهلي، وهو ذبح البهيمة عند قبر الميت، وهذا من أعمال الجاهلية، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عقر في الإسلام» رواه أبو داوود وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأهل الجاهلية الأولى ومن شابههم لهم في ذلك اعتقادات باطلة فيعقرون على الميت إما جزعاً، أو لاعتقاد أن الميت يبعث عليها، أو لأنه جواد كريم فيكرَّم بهذه العقيرة بعد موته كما كان يكرم أضيافه، وكل هذه الاعتبارات باطلة والذبح بسببها محرم، وهو من إتلاف المال المحرم.

ومن فعله من أهل الإسلام فقد شابه أهل الجاهلية في هذا الفعل وذبيحته محرمة ولا نقول إنها شرك لأنه لم يذبح باسم غير الله ولم يتقرب بذلك إلى غير الله، كما روى الوالبي عن مجنون ليلي وهو قيس بن الملوح أنه لما أتاه خبر موت أبيه عقر ناقته على قبره، وقال في ذلك:

عقرت على قبر الملوّح ناقتي بذي الرمث لما أن جفاه أقاربه
فقلت لها كوني عقيراً فإنني غداة غدٍ ماش وبالأمس راكبه

ومن العرب من يَعْقِلُ الناقة عند قبر الميت فيتركها لا تُعلف ولا تسقى حتى تموت، ويسمونها البليّة، كما قال لبيد:

تأوي إلى الأطناب كل رذيَّة مثل البليَّة قالص أهدامها

يقول: إنه من كرمه أن بيته مأوى لكل رَذيَّة وهي المرأة الهزيلة التي قلصت ملابسها عنها من المجاعة حتى أشبهت البليَّة لما أصابها من الجَهْد والمشقة.

وقال الحارث بن حلزة اليشكرى يصف معالجته للهمّ بركوب ناقته:

أتلهّى بها الهواجرَ إذ كلّ ابنِ همٍّ بليَّةٌ عمياء

أي إذا كان صاحب الهمّ مكباً على نفسه منهمكا في همّه كالبلية العمياء حتى يقضي عليه همُّه؛ فإني أمضي الهمّ بركوب ناقتي في هاجرة الظهيرة وألهو بها حتى يذهب همي.

والمقصود أن الذبح إذا لم يحمل معاني تعبدية بحيث لا يذكر عليه اسم ولا يتقرب به إلى أحد فليس من ذبح العبادة، ولا يحل أكله.

❑ ١٠: النذر

النذر في لسان العرب: الإيجاب، فمن نذر شيئاً على نفسه فقد أوجبه عليها وألزمها به.

قال عنترة:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر | للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمَي عرضي ولم أشتمهما | والناذِرَين إذا لم ألقهما دمي

أي: أنهما أوجبا على أنفسهما قتله، وكان بعض العرب يفعلون ذلك فينذرون دماء من يريدون قتلهم ثأراً، ويعلنون ذلك؛ فمن وَفَّى بنذره افتخر بذلك، ومن حار نذره كان ذلك عاراً عليه.

كما قال بشر بن أبي خازم الأسدي:

..... حار نذرك يابن سعدى | وحق لنذر مثلك أن يحورا

وقال مزرّد الغطفاني يصف شدة جري حصانه:

يرى الشدَّ والتقريب نذراً إذا عدا | وقد لحقت بالصلب منه الشواكل

الشدّ: هو إحضار الجهد عند الجري، ولذلك يسمَّى إحضاراً أيضاً.

والتقريب: مقاربة الشدّ والإحضار، فهو دونه.

قال النابغة يصف جري ثور وحشي:

فانقض كالكوكب الدريّ منصلتاً | يهوي ويخلط تقريباً بإحضار

والصلب: الظهر.

والشواكل: جمع شاكلة وهي ما رقَّ من لحم البطن مما يلي الخاصرتين.

ومعنى بيت مزرّد: أن حصانه من أصالته وقوة شكيمته إذا جرى يرى أن شدة العدو أو مقاربة الشد فرض واجب عليه لا يرضى لنفسه بأقل منه، بمنزلة النذر الذي قطعه على نفسه ولزمه الوفاء به.

ومعنى النذر في الشرع هو معناه في اللغة: فما أوجبه العبد على نفسه لله جل وعلا سمي نذراً، ولذلك فهو عبادة، فمن تعبد بهذا النذر لغير الله جل وعلا فقد أشرك الشرك الأكبر والعياذ بالله.

فيدخل في ذلك كل عبادة يوجبها العبد على نفسه من العبادات المشروعة في الأصل كالصلاة والصدقة والصيام والتلاوة وغيرها.

وأكثر ما يكون تقديم النذور في الصدقات، وتسمى تلك الصدقة المنذورة: نذيرة وجمعها نذور ونذائر.

والنذر من شعائر التعبد الظاهرة، ولذلك يفعله الموحدون لله جل وعلا، ويفعله المشركون تقرباً لما يعبدونه من دون الله جل وعلا، تعالى الله عما يشركون.

والمشركون يقدمون تلك النذور بين يدي حوائجهم عند طلب الشفاعة وسؤال الحاجات أو شكراً بعد حصول نعمة أو ارتفاع بلاء؛ فمن نذر لغير الله جل وعلا فقد أشرك سواء أكان النذر بين يدي طلب الحاجة أم شكراً، لما في ذلك من معنى التعبد.

وقد يطلق لفظ النذر على مطلق إيجاب الفعل دون إرادة معنى التعبد كأن يَنذُرَ ألا يكلّم فلاناً، أو لا يأكل نوعاً من الأكل، فهذا يطلق عليه لفظ النذر لكنه ليس فيه معنى التعبد، ولذلك قد يكون هذا النذر في معصية كأن ينذر أخذ مال رجل بغير وجه حق أو ينذر سفك دمه أو ينذر التفريق بين زوجين ونحو ذلك فهذا كله محرم ولا يجوز الوفاء به، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها.

والنذر له تقسيمات باعتبارات مختلفة، فيقسم باعتبار حقيقته إلى **نذر عبادة ونذر إلزام** مجرد من معنى العبادة، وهذا هو موضوعنا:

فالقسم الأول: نذر العبادة وهو الذي يحمل معاني التعبد فيكون بقصد التقرب بين يدي الحاجة أو الشكر فهذا عبادة من صرفه لغير الله جل وعلا فهو مشرك شركاً أكبر مخرجاً عن الملة والعياذ بالله، كما يفعله المشركون من تقديم القرابين والنذور فيأتي أحدهم بشيء ولو حقير ينذره لقبر الولي عند طلب الحاجة أو شكراً فهذا شرك أكبر والعياذ بالله، وإن لم يكن فيه لفظ النذر، فالعبرة بحقيقة الحال.

القسم الثاني: النذر الذي يراد به الإلزام المجرد عن معاني التعبد كأن ينذر ألا يكلم فلاناً وإن لم يكن فيه لفظ النذر، كأن يقول رجل لابنه لئن لم تأتني فكلامك علي حرام، أو لا أكلمك أبداً، أو لأضربنك مائة سوط، ونحو ذلك، فهذا يسمى نذراً لأنه ألزم نفسه به، ولا يحل الوفاء به، وليس فيه معنى التعبد.

لكن لو قال: لِلْوَلِيِّ الفلاني علي نذر أن لا أكلمك، فهذه عبادة لأنه قصد بهذا النذر التقرب لذلك الولي؛ فيكون بذلك مشركاً والعياذ بالله.

ويقسم النذر باعتبار تعليقه بشرط إلى **نذر مشروط ونذر غير مشروط**.

- **فالنذر المشروط** هو الذي علّقه الناذر على شرط إن تحقق هذا الشرط ألزم نفسه بالنذر، وإن لم يتحقق لم يلزم نفسه به، كأن يقول: لله علي إن برئت من مرضي أن أصوم شهراً.

فإذا برئ لزمه الوفاء بنذره، وحرم عليه النكث، ما لم يكن في الوفاء بالنذر مشقة ظاهرة فحينئذ يتحلل منه بكفارة يمين لما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (من نذر نذراً لم يسمّه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر

نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين). رواه أبو داوود مرفوعا، وقال ابن حجر: وإسناده صحيح إلا أن الحفاظ رجحوا وقفه.

وفي هذا الباب أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ومسائل محل بحثها ودراستها كتب الفقه.

لكن أنبه إلى أن الوفاء بالنذر شأنه عظيم، وإخلافه كبيرة من الكبائر؛ فقد مدح الله عباده الذين يوفون بالنذر فقال: فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾

فجعل من أول صفاتهم أنهم يوفون بالنذر؛ والوفاء بالنذر في هذه الآية يشمل أداء الفرائض التي أوجبها الله عليهم، وما أوجبوه على أنفسهم تقرباً لله جل وعلا.

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر).

وقال تعالى في الحجاج: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩)﴾

قال مجاهد: (﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحجّ والهَدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحجّ).

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ واللام هنا للأمر.

فالوفاء بالنذر من صفات الأبرار الذين مدحهم الله عز وجل وشكر سعيهم وذكر ثوابهم العظيم.

وعدم الوفاء بالنذر من خصال المنافقين المذمومة، بل هو من أسباب النفاق والعياذ بالله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ❖ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ❖ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران: لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة - ثم يجيء قوم ينذرون ولا يَفُون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السِّمَن»

فجعل من أول صفاتهم أنهم ينذرون ولا يوفون.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النذر وبيَّن أنه لا يأتي بخير ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»).

وفي رواية في صحيح مسلم: «النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل».

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدَر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل».

وفي مصنف ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والنذر؛ فإنّ الله لا ينعم نعمة على الرُّشا، وإنما هو شيء يستخرج به من البخيل».

فمن نذر نذراً معلقا بشرط حصول نعمة أو اندفاع نقمة؛ فإنّ النذرَ لا يغيّر من القَدَر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل على نفسه بالتقرب إلى الله تعالى، لأنه إذا حصلت هذه النعمة وجب عليه الوفاء وإلا ارتكب كبيرة من الكبائر بإخلاف وعدِه لله.

- **والنذر غير المشروط**، هو الذي يقصد به التقرب دون تحقق شرط، كأن يقول: لله عليَّ أن أعتكف ليلة، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر: أن عمر قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: «أوف بنذرك».

والنذر يجب الوفاء به سواء أكان مشروطاً أم غير مشروط، إذا كان طاعة لله جل وعلا.

وفي باب النذر مسائل مهمة محل بحثها كتب الفقه، لكن ملخصها:

١ : أن نذر الطاعة يجب الوفاء به ما لم يكن فيه مشقة فإن وجدت المشقة تحلل منه بكفارة يمين.

٢ : نذر المعصية حرام، ولا يجوز الوفاء به، واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة فيه على قولين مشهورين، والأرجح لزومها لأثر ابن عباس المتقدم.

٣ : نذر المباح الذي ليس بقربة ولا محرم، كمن نذر ألا يأكل نوعاً من الأكل، أو نذر أن يشتري شيئاً مباحاً؛ فهذا يخير فيه الناذر بين الوفاء بنذره والتكفير عنه.

٤ : من نذر نذراً فيما لا يملك فنذره باطل، لما في صحيح مسلم من حديث عمران بن الحصين أن امرأة نذرت أن تذبح العضباء لما نجت عليها من العدو؛ فقال النبي صلى الله

عليه وسلم: «سبحان الله! بئسما جزتها، نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها، لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد».

٥: النذر غير المسمى كأن يقول: إن نجحت فعلي نذر، ولا يسمي هذا النذر؛ فكفارته كفارة يمين؛ إلا إذا نوى تسمية النذر في نفسه نية جازمة ولم يتكلم به؛ ففيه خلاف بين أهل العلم وأفتى بعض التابعين أن عليه الوفاء بما نوى.

٦: النذر الذي خرج مخرج اليمين كأن يقصد به التوكيد أو التصديق أو التكذيب فحكمه حكم اليمين فإن كان على خلاف ما ذكر فكفارته كفارة يمين.

٧: النذر لا يشترط أن يكون بلفظ النذر، بل كل ما أدَّى معنى النذر فله حكمه.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة

س١ : ما رأيك في من يقول : خلق الإنسان لعمارة الأرض؟

س٢ : مفكر إسلامي بحث في كتب التراث الإسلامي عن معنى (لا إله إلا الله) فوجد هذه التفسيرات :

أ) أي : لا معبود بحق إلا الله.

ب) أي لا رب إلا الله.

ج) أي : هو واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في صفاته لا شبيه له، واحد في أفعاله لا شريك له.

د) معنى (لا إله إلا الله) للعوام لا معبود إلا الله، ومعناها للخواص لا محبوب ولا مقصود إلا الله، ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله.

هـ) معنى (لا إله إلا الله) لا نافع إلا الله، ولا ضار إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا مانع إلا الله.

و) معنى (لا إله إلا الله) أي : لا مستغنياً عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله تعالى.

فخلص إلى أن معنى (لا إله إلا الله) مسألة مختلف فيها، واختلاف العلماء رحمة، ولا إنكار في مسائل الخلاف.

فما رأيك في هذه النتيجة التي توصل إليها؟

وناقش هذه التفسيرات تفسيراً تفسيراً.

س٣ : رجل سئل عن معنى (لا إله إلا الله) فلم يعرف معناها، أو أجاب إجابة خاطئة؛ فهل يعدّ من المسلمين؟

الدرس التاسع : الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة (٣/١)

عناصر الدرس :

١ : شرح قوله: (الأَصْلُ الثاّنِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ).

- بيان معنى المعرفة.
- بيان معنى الدين.
- بيان معنى الإسلام.

٢ : شرح قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلاَمُ، وَالايمَانُ، وَالإِحْسَانُ).

٣: شرح قوله: (وكل مرتبة لها أركان)

- بيان معنى الركن.
- بيان معنى المرتبة.

❐ ١ : شرح قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ).

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ؛ فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً أما بعد :

فقد سبق الحديث في الدروس السابقة عن الأصل الأول وهو معرفة العبد ربه جل وعلا.

ونستهل في هذا الدرس الحديث عن الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

❐ قوله : (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ).

سبق بيان معنى الأصل وأنه ما يبنى عليه ، وسبق بيان التناسب بين هذه الأصول الثلاثة وأنها مأخوذة من الشهادتين ، وأن هذه الثلاثة هي أصول الدين ، وعليها مدار مسائله.

قوله: (مَعْرِفَةُ) المعرفة المحمودة هي التي يترتب عليها أثرها؛ فيتبعها الانقياد والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأما المعرفة التي يقصد بها الفهم والإدراك المجرد فهي حجة على صاحبها إن لم يقم بحقها كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال قتادة: (يعرفون أن الإسلام دين الله، وأن محمداً رسول الله يجدون ذلك مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾

فهؤلاء معرفتهم حجة عليهم لا تنفعهم عند الله، بل تزيدهم بعداً ورجساً إلى رجسهم.

وأما المعرفة المحمودة فهي التي يترتب عليها العمل والاستجابة.

فإذا أطلق لفظ المعرفة في النصوص في موضع مدح أو حثّ فالمراد به المعرفة المحمودة، وإذا أطلق في موضع ذم أو احتجاج على صاحبها فالمراد بها معرفة الإدراك وفهم الخطاب.

❑ قوله: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بالأَدِلَّةِ).

يطلق لفظ (الدّين) في لسان العرب على معانٍ لها أصول جامعة منها العادة والانقياد والذل والحكم والجزاء.

فالدين هو ما ينقاد له العبد بتذلل وخضوع واعتياد؛ فيخضع لأحكامه، وينقاد لأوامره على وجه الاستدامة.

فمن إطلاق لفظ الدين على معنى العادة قول المثقب العبدي في ناقته:

إذا ما قمتُ أرحلُها بلَيل ... تأوَّهُ آهة الرجل الحزينِ

تقول إذا دَرَأْتُ لها وضيني ... أهذا دينه أبداً وديني

أكلّ الدهرِ حلّ وارتحال ... أما يُبقِي عليَّ وما يَقِيني

قال أبو منصور الأزهري: (دَرَأْتُ الوضِينَ إذا بَسَطْتَه على الأَرض ثم أَنَخْتَه عليه لتَشُدَّ عليه الرَّحْلَ).

ومن إطلاقه على الذل والانقياد والدخول في الطاعة قول الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا الديـ ... ـن دراكاً بغزوة وصيال

ثم دانت بعد الرباب وكانت ... كعذاب عقوبة الأقوال

دان الرباب: أي أذلها، ثم دانت بعد الرباب أي ذلت وانقادت.

ويطلق لفظ الدين على الحكم والسلطان كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾

ويطلق على الحساب والجزاء كما في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي الحساب والجزاء الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، ويظهر فيه ذل الخلق كلهم لله عز وجل، وأن الحكم لله العلي الكبير.

فهذه أشهر المعاني التي يطلق عليها لفظ الدين في اللغة.

ومعرفة المعنى اللغوي للألفاظ المهمة في العقيدة تعين على فهم المعنى الشرعي؛ فبين الإطلاقين اللغوي والشرعي تناسب، وغالباً ما يكون المعنى الشرعي مخصصاً لإطلاق المعنى اللغوي.

فإذا انتفى المعنى اللغوي انتفى المعنى الشرعي.

فالذي لا ينقاد لحكم الله عز وجل الشرعي ولا يخضع لأوامر شريعة الإسلام لا يكون داخلاً في دين الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال: دنته فدان أي أذللته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له).

فمعنى الدخول في دين الإسلام هو الانقياد لأحكام الشريعة الإسلامية والتزام أوامرها ونواهيها على وجه التعبد.

❑ قوله: **(دِينِ الإِسْلَامِ)** هو شريعة الإسلام التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم، ونسخ الله بها جميع الأديان السابقة؛ فقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

❑ قوله: **(بالأَدِلَّةِ)** هذا فيه بيان وجوب معرفة الحق بدليله فيكون متبعاً صاحب حجة، لا مقلداً لا حجة له.

فالذي يعرف الحق بدليله في مسألة من المسائل فهو عالم بها، فإن كان هذا دأبه في مسائل العلم أن يعرفها بدليلها وكثر ذلك منه؛ فهو من العلماء.

قال ابن القيم رحمه الله:

والعلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد يستويان

❑ قوله: **(وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، والانقيادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ)**.

هذا تعريفٌ للإسلام بمعناه الشرعي.

➢ وأما التعريف اللغوي للإسلام فبيانه أن **الإسلام لا يسمى إسلاماً في اللغة حتى يتحقق فيه وصفان:**

أحدهما: الإخلاص والبراءة من المشاركة والعلّة وغيرها مما يقدح في التسليم.

والآخر: تمكين المسَلِّم للمسلَّم له وانقياده له في كل موضع بحسبه.

يقال: سلَّمت لفلان حقَّه إذا مكَّنته منه وأخلصته له؛ فبرئ من المشاركة والمنازعة فيه، وسَلِمَ له وتمكَّن منه، وأصبح قياده له.

ويقال: أَسْلَم الرجلُ أخاه إذا خذله ومكَّن عدوه منه، وتركه لهم ولم ينازعهم فيه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه» متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والسلامة من المرض هي من هذا الباب لأنها تعني البراءة من العلة والخلاص منها، والانقياد لحال الصحة والعافية.

والأصل فيه أن المريض لا يجاري الأصحاء كما لا تجاري الشاة المريضة القطيع فإذا سلمت من المرض انقادت مع سائر الرعية.

ومما يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

متشاكسون أي: مختلفون متنازعون غير متفقين، بل يسيئ بعضهم إلى بعض.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي خالصاً له منقاداً إليه، ليس لأحد فيه شراكة، بل قد برئ من الشراكة فيه، وانقاد له هذا المولى انقياداً تاماً لا يشاركه فيه أحد. وهذا مثل ضربه الله لتقبيح الشرك، وتحسين الإسلام.

والمقصود: أن المسلم هو الذي أسلم دينه لله لم يجعل لله شريكاً فيه، وانقاد لأوامر الله جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بالعمل الصالح المشروع المأمور به.

وهذان الأصلان جماع الدين: أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع).

فإسلام الوجه هو: إسلام القصد والنية وتخليصها من قصد الشرك مع الله جل وعلا.

وإطلاق لفظ الوجه على القصد معروف في لسان العرب، وفي الحديث المتفق على صحته: «ووجهت وجهي إليك».

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي:

إِلَيكَ الوَجهُ إِذ كانَت مُلوكي ثِمادَ الحَزنِ أَخطَأَها الرَبيعُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً: (الوَجْهُ يتناول المتوجِّه والمتوجَّه إليه، كما يقال: أي وجه تريد؟ أيْ: أيَّ وجهة وناحية تقصد، وذلك أنهما متلازمان، فحيث توجَّه الإنسان توجَّه وجْهُه، ووجهُهُ مستلزمٌ لتوجُّهِهِ، وهذا في باطنه وظاهره جميعاً، فهذه أربعة أمور، والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار.

فإذا توجَّه قلبُه إلى شيء تَبِعَه وجْهُه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسناً فقد اجتمع أن يكون عمله صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، وهو قول عمر رضي الله عنه: (اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً).

والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسناً في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب).

⇦ والخلاصة أن **الإسلام لا بد فيه من جمع أمرين:**

الأمر الأول: الاستسلام والانقياد لأمر الله جل وعلا.

الأمر الثاني: الإخلاص والبراءة من الشرك في ذلك.

فالمسلم هو الذي أخلص دينه لله جل وعلا، وانقاد لأمره.

وبذلك تعرف أن المشرك غير مسلم لأن دينه ليس بخالص لله جل وعلا.

والمستكبر غير مسلم لأنه ممتنع غير منقاد لأمر الله جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾

قال ابن تيمية: (الإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده؛ فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته.

والمشرك به، والمستكبر عن عبادته: كافرٌ.

والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده؛ فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره).

وبهذا تعلم أن المسلمين يتفاضلون في إسلامهم بتفاضل الإخلاص وكمال الانقياد، فكلما كان العبد أحسن إخلاصاً وانقياداً كان أحسن إسلاماً.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أَحْسَنَ أحدكم إسلامه؛ فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها».

فالإسلام يتضمن معنى الإخلاص، إخلاص العبادة من الشرك في الاعتقاد والقول والعمل، وإخلاص الانقياد لله تعالى بطاعته، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيه.

- فكما أن الله تعالى هو مالكه وخالقه ورازق ومدبر أمره وحده لا شريك له في ذلك؛ فكذلك يجب أن يخلص العبد عبوديته لله تعالى ويسلمها له جل وعلا، فيخلصها من الشرك بعبادة غير، ويخلّصها من العصيان المنافي للانقياد.

❏ قوله: (وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلاَمُ، وَالايمَانُ، وَالإحْسَانُ).

أي إن دين الإسلام على ثلاث مراتب دلَّ عليها حديث جبريل عليه السلام؛ فإنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، وسأله عن الإيمان، وسأله عن الإحسان، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: «هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم».

وهذه المراتب متفاضلة بعضها أفضل من بعض فأفضلها مرتبة الإحسان وتليها مرتبة الإيمان وتليها مرتبة الإسلام؛ فهي على هذه المراتب الثلاث، وأوسعها مرتبة الإسلام، وأخص منها مرتبة الإيمان، وأخص منهما مرتبة الإحسان.

فكل محسن مؤمن مسلم، ولا ينعكس.

وهذه المعاني الثلاثة لها وصف أصل ووصف كمال.

فالمسلم لا بد له من قدر من الإيمان يصح به إسلامه.

والمسلم معه أيضاً أصل الإحسان وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والتوحيد أعظم الحسنات.

لكن لا يسمى محسناً حتى يأتي بالإحسان كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وكذلك لا يسمى مؤمناً حتى يأتي بالقدر الواجب من الإيمان؛ فأما ضعيف الإيمان وناقص الإيمان فيسمى مسلماً أو مؤمناً ناقص الإيمان؛ كما أن من عنده قدر من العلم لا يسمى به عالماً حتى يجمع من أبواب العلم ما يستحق به هذا الوصف، وكما أن من فعل شيئاً من أفعال الوضوء كالمضمضة وغيرها لا يسمى متوضئاً حتى يكمل فروض الوضوء الواجبة، فإذا كمل فروض الوضوء وآدابه المستحبة مع ذلك كان محسناً في وضوئه.

وسيأتي لهذه المسألة مزيد بيان في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

❏ قوله: (وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ).

- لفظ الأركان لم يرد في النص النبوي؛ لكن فهم أهل العلم من حديث «بني الإسلام على خمس» أن هذه الخمس هي أصول الإسلام التي بني عليها، وما يبنى عليه الشيء

فهو ركن له، لأن **الركن:** هو الأصل الذي يبنى عليه، ولا يكون ركناً حتى يكون فيه معنى القوة والدعامة ليحتمل ما يبنى عليه، وإذا انهدَّ الركن انهدَّ ما بني عليه.

وركن الجبل جانبه وأصله الذي يعتمد عليه فرعه، قال متمم بن نويرة:

فلـو أَنَّ مـا أَلْقَـى يُصِـيبُ مُتالِعـاً   أَوِ الرُّكْنَ من سلْمَى إِذاً لَتَضَعْضَعَا

متالع وسلمى جبلان.

و(تضعضع): سقط وانهد ولم يثبت.

والمرتبة والرتبة: هي المنزلة، ومراتب السُّلَّم درجاته، واحدتها مرتبة، قال الفرزدق:

كَـأَنَّ يَـدَيها في مَراتِـبِ سُـلَّمٍ   إذا غاوَلَت أَوبَ الذِراعَينِ بالرِجلِ

وأصل إطلاق هذا اللفظ كما قال الخليل بن أحمد: (المراتب في الجبال والصحاري، وهي الأعلامُ التي تُرَتَّبُ فيها العيونُ والرُقباءُ).

وقال الأصمعي: (المرتَبَةُ: المَرْقَبَةُ، وهي أعلى الجبلِ).

وقال ابن سيده في المحكم: (كل مقام شديد: مرتبة، قال الشماخ:

ومـرتبة لا يستـقال بهـا الـردى   تلافى بها حلمي عن الجهل حاجز)

والأمر الثابت الدائم يسمى راتباً.

وهذه الأوصاف التي تشعر بالعلو والشدة والإحكام والثبات والتنظيم تطلق على الأمور المعنوية كما تطلق على الأمور الحسية.

فيقال: (رجل له مرتبة في قومه) إذا كان ذا منزلة عالية ومقام ثابت محكم يجعله في منعة ورفعة لديهم، فإذا فَقَدَ هذه المعاني وَهَت مرتبته، كما قال ذو الرمة:

أَلا رُبَّ مَن يَهوَى وَفاتي وَلو دَنَت   وَفـاتي لَـذَلَّت لِلعَـدُوِّ مَراتِبُـه

والمقصود: أن مراتب الدين يترتب بعضها على بعض ترتباً تصدق عليه الأوصاف المذكورة؛ فهي كبناء أصله واسع هو المرتبة الأولى وهي مرتبة الإسلام ثم تترتب عليه مرتبة أصغر دائرة منه هي مرتبة الإيمان، ثم تترتب عليهما مرتبة ثالثة أقل دائرة منهما وأعلى منهما، وهي مرتبة الإحسان، نسأل الله تعالى بلوغها والثبات عليها حتى الممات.

ومَثَلُها أيضاً كمثل شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

❐ قوله: **(فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ، وَالدّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ:** «بُنِي الإِسْلاَمُ عَلى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ»).

هذه الخمسة هي أركان الإسلام وأصوله التي يقوم عليها إسلام العبد، وقد تضمنت هذه الخمسة قواعد الإسلام وشعائره العظام، وهي أصول العبادات وينبني على كل أصل أنواع من العبادات.

وهذه الأصول على مراتب؛ فأصل هذه الأركان الشهادتان فلا يدخل العبد في الإسلام حتى يشهد الشهادتين، ولا تصح منه سائر الفرائض قبل أن يشهد الشهادتين.

وعمود الإسلام الصلاة كما في حديث معاذ بن جبل مرفوعاً في المسند والسنن.

فإذا استقر الأصل وقام عمود الإسلام ثبت وصف الإسلام للعبد، فإن لم يقم بهذا الأصل أو انتقض بارتكاب ما ينقض الشهادتين فليس من المسلمين.

وإذا سقط عمود إسلام المرء فلا إسلام له؛ كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة».

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي وابن ماجة من حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند موته: (لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة). رواه مالك في الموطأ.

وأما الأركان الثلاثة الأخرى فقد أجمع أهل العلم على أن من تركها جاحداً لوجوبها فهو كافر لأنه مكذب لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا التكذيب ينقض الشهادتين.

- وكذلك من تركها إباء وامتناعاً عن الانقياد لشريعة الإسلام فهو كافر لأن هذا الإباء والامتناع ينقض الشهادتين.
- وأما من تركها تهاوناً وكسلاً من غير جحد لوجوبها ولا امتناع عن الانقياد لأحكام الشريعة فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه مرتكب لكبيرة من الكبائر وأن إسلامه ناقص ولا يكفر بذلك لبقاء أصل الإسلام وعموده، لكنه متوعّد بالعذاب الشديد على تركه لهذه الفرائض العظيمة كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة.

وهذه الأركان الخمسة من الشعائر التعبدية الظاهرة فيعملها الموحدون لله جل وعلا، ويعمل المشركون نظائرها تقرباً لآلهتهم.

فشهادتهم ما يهلّون به من ألفاظ الشرك التي تتضمن الشهادة لآلهتهم بأنها تنفع وتضر وتستحق أن تعبد، وما يشهدون به لمتبوعيهم بأنهم أحق من يتبع.

ولهم صلوات يؤدونها لآلهتهم وإن اختلفت في كيفيتها عن صلاة المسلمين، كما قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالأقوال والأفعال المنتظمة التي تؤدى على وجه التعبد هي صلاة وإن اختلفت كيفيتها عن صلاة المسلمين.

وتقديمهم للأموال والقرابين هو نظير أداء الزكاة عند المسلمين، وإن لم يسموها زكاة، ذلك أن منهم من يجعل على نفسه قدراً معلوماً من المال يتقرب به، ومنهم من يُفرض عليه هذا المال بأسماء مختلفة.

وكذلك الصيام منهم من يصوم تقرباً وطمعاً في أشياء يرجوها من تلك الآلهة التي يتقرب إليها وإن اختلف صيامه عن صيام المسلمين فمنهم من يصوم عن الكلام، ومنهم من

يصوم عن بعض الأطعمة ومنهم من يواصل الصيام أياماً عن كل شيء فيجوع نفسه ويشق عليها طمعاً أن تتنزل عليه الشياطين ويظن أنهم خدام مرسلون من تلك الآلهة.

وكل إمساك تُقُرِّبَ به إلى غير الله جل وعلا فهو صيام.

وكذلك الحج يفعله المشركون وهو من الشعائر الظاهرة لديهم فمنهم من يقطع المسافات البعيدة لزيارة قبر يُعبَد من دون الله جل وعلا ؛ فيحج إليه ويطوف حوله ويذبح له ويفعل ما يضاهي به حج المسلمين، فهذا حج وإن لم يسمّوه حجاً فالعبرة بحقائق الأشياء.

فعلم بذلك أن هذه الخمسة هي أصول العبادات الظاهرة ويجب إخلاصها لله جل وعلا.

كما أن أصول العبادات الباطنة المحبة والخوف والرجاء ويجب إخلاصها لله جل وعلا.

❐ قوله : **(وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ).**

الدليل هو الذي يدلّ على الهدى ويرشد إليه، ودليل القوم هاديهم الذي يرشدهم إلى الطريق الصحيح.

وكان العرب إذا سافروا في طريق لا يعرفونه يتخذون دليلاً يرشدهم لئلا يهلكوا في المفاوز ويضلوا عن قصدهم ؛ ويكون ذلك الدليل بصيراً بالطرق والأعلام وموارد الماء فيدلهم على الطريق ويدلهم على ما يتزودون به من الماء لئلا يهلكوا عطشاً، فمن امتثل دلالة الدليل نجا وبلغ المقصد ومن خالفه كان على خطر من الهلاك والضلال عن مقصده.

وكان من العرب من إذا خافوا صولة عدو لا يقدرون عليه تخفوا في أماكن وعرة مشتبهة لا يتفطن لها إلا الدليل البصير والهادي الخريت وصاحب الخبرة والمعرفة الحسنة بالطرق.

كما قال عامر بن الطفيل :

فـإنَّ الحَـيَّ خَـثْعَمَ أحـرَزَتْهُمْ ... رمــاحُهمُ وتُنــذِرُهمْ سَــلولُ
بمخرَجنـا فـلا نَخفـى علـيهمْ ... ويــأتيهمْ بعَوْرَتِنــا الــدّليلُ

فإذا كان الدليل صاحب معرفة وأحسن الإرشاد تبيَّن لهم الطريق الصحيح.

وكذلك في الأمور المعنوية في الاستدلال إذا صح الدليل، وكان وجه الاستدلال صحيحاً صحت الدلالة وتبيَّن بذلك الهدى والصواب.

وسميت الآيات والأحاديث أدلة، وواحدها دليل لأنها تدل على الهدى وترشد إليه، ومن خالف دلالة الدليل الصحيح كان على خطر من الهلاك والضلال.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]).

❑ قوله: (**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**) أي الذي هداني وأرشدني إلى ما قلت وبينت هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾

الإسلام في هذه الآية المراد به الإسلام الشرعي العام الذي هو دين الأنبياء جميعاً وهو التوحيد، وعلى هذا تفاسير السلف لمعنى الإسلام في هذه الآية.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾: (الإسلام: شهادة أنّ لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيرَه ولا يجزى إلا به). رواه ابن جرير.

وفيه دلالة على وجوب التوحيد وأنه الدين الذي يقبله الله تعالى، والإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أصله التوحيد لله جل وعلا.

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد دل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه.

- قال أول الرسل نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
- وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾
- ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

- وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾ إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾
- وقال موسى لقومه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾
- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
- وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

فالإسلام دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه).

وقال ابن كثير رحمه الله: (قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله بعد بعثته محمداً صلى الله عليه وسلم بدِين على غير شريعته، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾).ا.هـ.

❑ قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾).

وللسلف في المراد بالإسلام في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنه دين الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله الشهادتان، وعليهما مدار التوحيد، وأن هذه الآية نسخت جميع الأديان السابقة من اليهودية والنصرانية والصابئية وبقايا الحنيفية.

القول الثاني: أن المراد به الإسلام العام الذي هو دين جميع الأنبياء، وهو توحيد الله جل وعلا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً﴾ الآية عام في الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عبادة المؤمنون كما ذكر الله ذلك في كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين).

وأجمعوا على أن المراد بالإسلام في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هو دين الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم.

❏ قوله: (**وَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلاَّ اللهُ.

﴿لاَ إِلهَ﴾ نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿إِلَّا اللهُ﴾ مُثْبِتاً العِبَادَةَ للَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ).

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾

لفظ الشهادة وما تصرف منه يطلق على معنيين مشهورين:

المعنى الأول: الحضور والمعَاينَة والإبصَار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المعنى الثاني: الإخبار البيّن الجازم عن أمرٍ ذي شأن، وهو المراد هنا كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد اجتمع المعنيان في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾

﴿أَشَهِدُوا﴾ استفهام إنكاري، أي: هل حضروا خلقهم وعاينوه؟

و﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ أي إخبارهم الجازم في هذا الأمر العظيم.

والمقصود أن الشهادة بالمعنى الثاني تتضمن معاني الإخبار والبيان والجزم عن أمر ذي شأن.

فإذا تحققت هذه الأوصاف سمي شهادة وإن لم يكن فيه لفظ الشهادة، ولذلك سمى الله تعالى هذا الزعم منهم شهادة.

والشهادة إذا لم تكن بحق فهي شهادة زور.

- وسمي قول (لا إله إلا الله) شهادة لأنه إخبار بيّن جازم عن أمر ذي شأن.
- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾

أي أن الله تعالى وملائكته وأولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا الله.

قال ابن القيم رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ القسط هو العدل؛ فشهد الله سبحانه أنه

قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله.

والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال؛ فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه.

والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة).

❑ قوله: **(وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.**

﴿لاَ إِلهَ﴾ نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿إِلَّا اللهُ﴾ مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ).

معرفة معنى (لا إله إلا الله) واجبة لأنها مفتاح الدخول في الإسلام فيجب معرفة معناها مع القدرة.

فإذا لم يستطع معرفة معناها كفاه القيام بمقتضاها، فإذا كان لا يعبد إلا الله، ويعتقد بطلان ما يعبد من دون الله؛ فقد أتى بالمراد من هذه الكلمة.

وذلك كما لو دعي أعجمي للإسلام فأسلم وقال هذه الكلمة وهو لا يفقه معناها لكنه يعتقد مقتضاها فإنها تنفعه بإذن الله.

وكذلك لو سألت مسلماً عن معنى (لا إله إلا الله) فأخطأ تفسيرها فإن كان لا يعبد إلا الله ويشهد بالبراءة مما يعبد من دون الله ؛ فهو مسلم موحّد وإن أخطأ في التفسير.

أما إذا كان لا يعتقد مقتضاها فإنها لا تنفعه ولو كان يعرف معناها ؛ فإذا كان يقول : (لا إله إلا الله) وهو يرى جواز اتخاذ وسائط بينه وبين الله يدعوهم ويتقرب إليهم فهو مشرك كافر ، وإن قال : (لا إله إلا الله).

- **ومعنى (لا إله إلا الله):** أي لا معبود بحق إلا الله جل وعلا.

فإن (لا) حرف لنفي الجنس ، إذا دخل على النكرة المباشرة غير المكررة نصبها وجوباً اسماً له ورفع الخبر.

إله : اسم (لا) منصوب تحققت فيه شروط وجوب النصب ، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

والإله هو المألوه أي المعبود الذي تألهه أي تتعبد له الخلائق محبة وتذللاً وتعظيماً.

وخبر (لا) محذوف لظهور العلم به وتقديره (حق) ، وحذف خبر (لا) إذا ظهر المراد به شائع عند العرب ، قال ابن مالك :

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع إسقاطه ظهر

- (إلا الله) استثناء يتضمن إثبات وصف الإله لله وحده جل وعلا دون ما سواه ؛ فهو الإله الحق ، وكل ما اتُّخذ إلهاً من دونه فهو باطل كما قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

وقد قدر بعض النحاة خبر لا بـ (موجود) وهو خطأ باعتبار وصحيح باعتبار آخر ، والصحيح الذي لا خطأ فيه وتدل عليه الأدلة الصحيحة تقديره بـ(حق)

فالذين قدروه بـ(موجود) إن كان مرادهم مطلق وجود ما يعبد من دون الله فهذا خطأ ؛ فإن الآلهة التي اتخذت من دون الله كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وكم حطم النبي صلى الله عليه وسلم من صنم اتخذ إلها من دون الله!

وإن كان مرادهم بالوجود: الوجود المعتبر شرعاً فهذا حق ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ فهي آلهة باطلة ليست بشيء.

ولكن الله أرشدنا في التعبير أن نأخذ بالقول الذي لا يتذرع متذرع بتفسيره بالباطل على منهج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾

فتقديره بـ(حق) هو الصواب حينئذ، وهو مرادف للوجود الشرعي.

وخبر (لا) يحذف كثيراً في كلام العرب ويقدر في كل مقام بحسبه، كما لو سئلت: من عندك؟ فقلت: لا أحد.

فإنك تريد: لا أحد عندي، فلو ذكرت خبر (لا) خالفت البلاغة في القول.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»

فشهر صفَر موجود، ولكنّ المنفي هو الاعتبار الشرعي لاعتقادهم فيه.

وكذلك الطيرة موجودة، ولكن المنفي هو الاعتبار الشرعي لها.

وهكذا يقدر الخبر في كل مقام بحسبه.

وتقدير الخبر المحذوف مبنيٌّ على فهم المعنى المراد ؛ ففي كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) ليس المنفي الوجود الكوني للآلهة التي تعبد من دون الله بالباطل، وإنما المنفي هو الاعتبار الشرعي لها وأنها تستحق شيئاً من العبادة.

ولذلك كثرت الأدلة من الكتاب والسنة على إبطال استحقاق غير الله للعبادة، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾

وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وقال : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

والمقصود من الإعراب بيان المعنى المراد، وكل إعراب أدى إلى معنى باطل فهو خطأ مردود.

وإنما تكلمت في إعرابها ؛ لأن من المشركين من يكون صاحب علوم وحجج كما يكون ذلك لدى بعض القبوريين فإن منهم من يكون عارفاً بشيء من العلوم اللغوية والشرعية لكنه على ضلال مبين بتقريره الشرك ومحاولة الاحتجاج له ؛ فينبغي لطالب العلم أن يعرف من الحجج اللغوية ما يدفع به شبهات المبطلين، ويفند مزاعمهم.

وقد يطلع بعض طلاب العلم على بعض ما يكتب في إعراب هذه الكلمة لعلماء معروفين من النحاة واللغويين ويطلع على خطأ في ذلك، فلا يغره صدور هذا الخطأ من بعض النحاة فإن الإعراب تبع لفهم المعنى، ولذلك لا يجوز أن يتكلم في إعراب القرآن من لا يحسن معرفة التفسير وأصوله ولو بلغ في علم النحو ما بلغ.

وقد أكثر ابن هشام النحوي في رسالة له مستقلة في إعراب (لا إله إلا الله) من الأوجه الإعرابية حتى أوصلها إلى عشرة أوجه، وكلامه فيها غير محرر وإنما كتبها خواطر من ذهنه وتعرض فيها لأقوال عدد من النحاة منهم المعتزلة ومنهم الأشاعرة ومنهم من أهل السنة.

⇦ إذا تبين هذا ؛ فاعلم أن العرب - وهم أهل الفصاحة- لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم قولوا: (لا إله إلا الله) استنكفوا واستكبروا، وحاربوا الرسول وآذوه وأخرجوه من بلده وشاقوه وشاقوا أصحابه وقطعوا أرحامهم وآذوهم إيذاء شديداً، وقذفوهم بالزور والبهتان والأوصاف الشنيعة انتصاراً لآلهتهم، كما بين الله تعالى حالهم بقوله جل وعلا : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

فإنهم عرفوا أن قول هذه الكلمة يعني الشهادة ببطلان عبادة ما يعبد من دون الله جل وعلا، والدخول في دين الإسلام.

ولو كان معناها ما فسره به من أخطأ في تفسير كلمة التوحيد لما كان لهذه العداوة موجب.

وينبغي لطالب العلم أن يعرف ما اشتهر من التفسيرات الخاطئة لكلمة التوحيد ويعرف وجه بطلانها.

وقد يجد طالب العلم لدى بعض الفرق اضطراب في تفسير كلمة التوحيد؛ فمنهم من يفسرها تفسيراً صحيحاً، ومنهم من يخطئ في تفسيرها كما نقل عن الأشاعرة نحو أربعة أقوال في تفسيرها:

❖ **فسر بعضهم** الإله بأنه المعبود بحق وأن لا إله إلا الله معناها لا معبود بحق إلا الله، وهذا تفسير صحيح يوافق تفسير أهل السنة والجماعة.

❖ **وفسر بعضهم** الإله بأنه القادر على الاختراع، وأن معنى (لا إله إلا الله) أي لا قادر على الاختراع إلا الله، وهذا قصر لمعنى كلمة التوحيد على نوع من أنواع توحيد الربوبية.

❖ **وفسر بعضهم** الإله بأنه المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كل ما عداه.

❖ **وفسر بعضهم** لا إله إلا الله بأن معناها: (أنه واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له)

والتفسيران الأخيران قاصران أيضاً مخالفان لدلالة الأدلة الصحيحة، ولا تقتضيهما اللغة.

وتفسير كلمة التوحيد ببعض معاني الربوبية خطأ كبير شاع لدى بعض الفرق الضالة، وقد علمتم من الأدلة أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر للأمر ومع هذا لم يدخلوا في دين الإسلام.

فلو كان معنى (لا إله إلا الله) هو ما شهدوا به من معاني الربوبية لم يكن لمعارضتهم وامتناعهم عن قول (لا إله إلا الله) وجه.

- روى الإمام أحمد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أن مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل.

قال: فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول؛ فلو بعثت إليه فنهيته؛ فبعث إليه أو قال جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب مجلس رجل.

قال: فخشي أبو جهل إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه؛ فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد النبي صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمّه؛ فجلس عند الباب.

قال أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك؟! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل، قال: فأكثروا عليه من اللَّحْوِ.

قال: فتكلم النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «يا عمّ إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»

قال: ففزعوا لكلمته ولقوله.

قال: فقال القوم" كلمة واحدة؟!! نعم وأبيك وعشرا، وما هي؟

قال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

قال: «لا إله إلا الله»

قال: فقاموا فَزِعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

قال: وقرأ من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾).

والحديث رواه الترمذي أيضاً والنسائي، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه.

فتأمل كيف أنهم كانوا أعرف بمعنى (لا إله إلا الله) من بعض أصحاب هذه الفرق الضالة؛ فإنهم فهموا من هذه الكلمة أنها تقتضي بطلان عبادة ما يعبد من دون الله جل وعلا.

- وبعض المتصوفة يقولون: إن معنى (لا إله الا الله) للعوام لا معبود إلا الله، ومعناها للخواص لا محبوب إلا الله، ومعناها لأخص الخواص لا موجود إلا الله.
وهذا التفسير كفر مبين شاهد على صاحبه بعقيدة الحلول والاتحاد التي هي من أكفر الكفر.

وهذه المسائل سيأتي لها زيادة تفصيل بإذن الله في الأسئلة والتطبيقات وفي بعض الرسائل التي أختارها لكم بإذن الله.
والمقصود التفطن للتفسيرات الخاطئة لكلمة التوحيد، وأنها قد تصدر من أناس لهم مكانة علمية فلا يغتر بذلك طالب العلم.

❐ قوله: **(وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآيَة [الزخرف: ٢٦- ٢٧].
وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).
أي إن هاتين الآيتين تفسران معنى كلمة التوحيد.
➢ فأما الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ❖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فتضمنت البراءة مما يعبد من دون الله جل وعلا، وإثبات العبادة لله وحده، وهذا هو معنى التوحيد، لا بد فيه من نفي وإثبات، نفي استحقاق غير الله للعبادة والبراءة مما يعبد من دون الله، وإثبات العبادة لله وحده.
فلا يكون موحّداً إلا من جمع بين النفي والإثبات.
وهذا أمر يدل عليه المعنى اللغوي للتوحيد، فجعل الشيء واحداً يستلزم إثباتاً ونفياً إثبات الوحدانية له، ونفي مشاركة غيره له.

➢ وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

السَّوَاء في لسان العرب: النَّصَف والعدْل، وأصل ذلك أن العرب إذا تنازعوا وحصل بينهم من القتل والجراحات ما يحصل وأرادوا الصلح تداعوا إلى السَّواء فيصطلحون على أمرٍ يكون فيه إنصاف للمتنازعين يسوَّى فيه بينهم في الدماء والحقوق.

قال زهير ابن أبي سلمى:

أرونـا سُنَّـةً لا ضيـم فيهـا ... يُسَـوَّى بَيْنَنـا فيهـا السَّـواءُ

فَإِن تَـدَعُوا السَّواءَ فَلَيسَ بَيني ... وَبَيـنَكُمُ بَنـي حِصـنٍ بَقـاءُ

ومن العرب من تأخذه العزة بالإثم، والبَطَر بالقوة فيأبى الدعوة إلى السَّواءِ، كما قال عنترة:

أبينـا فمـا نُعطـي السَّـواءَ عـدوَّنا ... قيامـاً بأعضـادِ السـراء المعطّـفِ

والعرب يمتدحون من يعطي السَّواء ويرضى به لأنه أرضى للنفوس وأقرب لمكارم الأخلاق والشيم.

وقد خاطبهم الله تعالى بما يعرفون فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

قال ابن جرير: (﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ يعني: إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل، هي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، فلا نشرك به شيئًا).

والكلمة تطلق في اللغة على الجملة المفيدة، وأما اصطلاح النحويين على أن الكلمة اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فيجعلون الاسم كلمة، والفعل كلمة والحرف الذي جاء لمعنى كلمة؛ فهذا اصطلاح حادث، ولا مشاحة في الاصطلاح، لكن ليتفطَّن إلى أن معنى الكلمة في لسان العرب ليس هو المعنى الاصطلاحي عند النحاة.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ فسمّى هذه الجملة المفيدة كلمة، والأدلة والشواهد على هذا الإطلاق كثيرة جداً.

فكلمة التوحيد: هي كلمة (لا إله إلا الله).

والكلمة السواء التي دعا الله تعالى إليها هي: ﴿أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

وهذه الآية بيّنت معنى التوحيد، وأن تفسيره الصحيح الذي لا يصح غيره أنه عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من كل ما يعبد من دون الله جل وعلا. ﴿أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

قال ابن عطية: (**واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب:**

- **أعلاها** اعتقادهم فيهم الألوهية وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسّر عكرمة.

- **وأدنى ذلك** طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسّر ابن جريج.

فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله).

ودلّ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ على أن من قام بذلك فهو من المسلمين، ومن أبى وتولّى فليس بمسلم.

❐ قوله: (**وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لاَ يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ).

هذا فيه بيان دليل شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان معناها، وسيأتي شرح ذلك بالتفصيل المناسب إن شاء الله تعالى عند بيان الأصل الثالث.

❐ قوله: (**وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]).

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]).

وَدَلِيلُ الحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].).

هذا فيه بيان أدلة إضافية على أن الصلاة والزكاة والصيام والحج عبادات عظيمة، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وقد أجمع العلماء على أن هذه العبادات من العبادات العظيمة.

فمن أداها لغير الله تعالى فهو مشرك كافر.

وقد سبق بيان أن هذه العبادات العظيمة هي من الشعائر التعبدية الظاهرة وأن المسلمين يؤدونها لله تعالى، وأن المشركين يؤدون نظائرها لآلهتهم التي يدعونها من دون الله جل وعلا.

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس العاشر : الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة (٢/٣)

عناصر الدرس:

١: المرتبة الثانية من مراتب دين الإسلام وهي مرتبة الإيمان.

٢: بيان شعب الإيمان.

٢: بيان أركان الإيمان.

٣: الركن الأول: الإيمان بالله جل وعلا.

٤: الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.

٥: الركن الثالث:الإيمان بالكتب

٦: الركن الرابع:الإيمان بالرسل.

٧: الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.

٨: الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

❑ قوله: (الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ

وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]).

❑ قوله: **(الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ).**

المرتبة الثانية من مراتب دين الإسلام هي مرتبة الإيمان، وهذه المرتبة أخص من سابقتها، فإيمان أصحابها أعظم من إيمان أصحاب المرتبة السابقة، فهم مسلمون مؤمنون.

ولذلك يقال: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن.

كما سيوضح قريباً بإذن الله تعالى.

لكن يحسن بنا أن نعرف أولاً معنى الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

فالإيمان: اعتقاد بالجَنان وقول باللسان وعمل بالأركان.

الجَنان: هو القلب.

والأركان هي: الجوارح كالحواس والأطراف وغيرها.

ومن أهل العلم من يختصر العبارة فيقول: **الإيمان قول وعمل.**

ويقصد بالقول:

١- قول القلب، أي تصديقه.

٢- وقول اللسان.

ويقصد بالعمل:

١- عمل القلب وهو العبادات القلبية من المحبة والخوف والرجاء والخشية والرغبة والرهبة والإنابة وغيرها.

٢- وعمل الجوارح يشمل البصر والسمع والمشي والتناول والنكاح وغيرها.

- والمؤمنون يتفاضلون في الأقوال والأعمال، ولذلك يتفاضلون في الإيمان، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بفعل المعصية وبترك الطاعات، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

فيزيد الإيمان بالطاعة وهي امتثال الأمر واجتناب النهي؛ فكلما امتثل أمر وجوب أو استحباب زاد إيمانه، وكلما اجتنب محرماً أو مكروها احتساباً زاد إيمانه.

- والمسلم هو الذي أتى بأصل الإيمان، وقد يأتي بالقدر الواجب منه، وقد يأتي بالكمال المستحب، وقد يقع في الذنوب والمعاصي والكبائر فينقص إيمانه بسبب ذلك.

فالإيمان على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: درجة أصل الإيمان، ويسمى مطلق الإيمان، وهو ما يصح به إسلام العبد. فهذا يسمى به مسلماً، وإن كان معه أصل الإيمان، لكن لا يقال هو مؤمن لأن هذا فيه تزكية له.

فلا ينفى عنه أصل الإيمان ولا يثبت له وصف حقيقة الإيمان.

قال ابن القيم: (كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمى به عالما فقيها).

وبيان ذلك أنه لا يصح إسلام العبد حتى يشهد الشهادتين، وهذا يستلزم الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم والإتيان بأركان الإسلام الظاهرة، ولا يُتصور أن يشهد أن لا إله إلا الله وهو لم يؤمن بالله.

ولا يكون مسلماً حتى يجتنب نواقض الإسلام، ومن ذلك أنه يصدّق بخبر الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا قدر من الإيمان لا يصح الإسلام إلا به.

ومن هذه الطبقة أصحاب الكبائر من المسلمين، فإن معهم أصل الإيمان وهم قد حققوا الدرجة الأولى من درجات العبودية لله تعالى فاجتنبوا الشرك الأكبر واجتنبوا نواقض الإسلام.

⇇ فأصحاب هذه الدرجة لا نكفرهم كما تفعل الخوارج، ولا نقول إنهم بمنزلة بين المنزلتين أي بين الإسلام والكفر كما تقول المعتزلة.

بل هم مسلمون ومعهم أصل الإيمان، لكنهم لم يحققوا الإيمان الواجب، ففيهم إيمان وفيهم فسق بسبب عصيانهم.

ولذلك يُسمى صاحب هذه المرتبة عند بعض أهل العلم **بالفاسق الملّي**، أي أنه فاسق، وهو على ملة الإسلام.

وهؤلاء نحبهم لإسلامهم ونبغضهم لعصيانهم؛ فيجتمع في حقهم الحب والبغض، كما جمعوا بين الإيمان والعصيان.

والتعامل معهم يكون على ما تقتضيه أحكام الشريعة؛ فيهجر بعضهم في مواضع الهجر، ويتألَّف بعضهم، ويناصحون ويدعى لهم بالهداية، ونحب لهم الخير ونكره لهم البقاء على العصيان.

الدرجة الثانية: درجة كمال الإيمان الواجب؛ فمن حقق الإيمان الواجب بأداء الواجبات واجتناب المحرمات إيماناً واحتساباً فهو مؤمن.

الدرجة الثالثة: درجة كمال الإيمان المستحب، وتشمل الإيمان الواجب والمستحب، وأصحاب هذه الدرجة هم المحسنون؛ فإنهم تقربوا إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل واجتنبوا المحرمات والمكروهات، وحققوا الإيمان بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ فكان سعيهم لله، وهذا السعي يشمل الحب والبغض والعطاء والمنع، وهذه جوامع خصال الإيمان؛ كما في سنن أبي داوود وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب لله و أبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»

قال ابن القيم رحمه في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث: (فإن الإيمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان: عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلا وتركا وهما العطاء والمنع؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان صاحبُها مستكملَ الإيمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه).

والحب لله أعم من الحب في الله، فهو يشمل محبة كل ما يحبّ لله جل وعلا من الأشخاص والأعمال والأقوال والأحوال والمقاصد والأخلاق والأمكنة والأزمنة وغيرها.

وكذلك العطاء لله أعمّ من أن يكون المراد به عطاء المال، بل هو شامل لكل ما يُعطى من مال وجاه وعلم وجهد ووقت، وكذلك المنع.

فمن كان حبه لله، وبغضه لله، وعطاؤه لله، ومنعه لله، فهو مؤمن مستكمل الإيمان؛ نسأل الله تعالى من فضله.

والمقصود: أن **الإيمان على ثلاث درجات:** درجة أصل الإيمان، ودرجة الإيمان الواجب، ودرجة كمال الإيمان.

فالدرجة الأولى هي: مرتبة الإسلام.

والدرجة الثانية: مرتبة الإيمان.

والدرجة الثالثة: مرتبة الإحسان.

فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً؛ وكان بعض السلف يوضح هذا الأمر برسم بياني كما روي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أنه رسم دائرة واسعة وقال: هذا الإسلام، ثم رسم دائرة في وسطها أصغر منها وقال: وهذا الإيمان.

ثم قال: (فإذا زنا وسرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلا الكفر بالله عز وجل). رواه عبد الله بن الإمام أحمد وابن منده والآجري واللالكائي.

قال ابن منده: (وهذا مذهب جماعة من أئمة الآثار واحتجوا بخبر عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة رضي الله عنهم).

وقال ابن تيمية في رسالته قاعدة في المحبة: (قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» على بابه، لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تامّا لما فعلها؛ فإذْ فعلها فإمّا أن يكون تصديقه بأن اللهَ يبغضها فيه ضعف، أو نَفْسُ بغضِهِ لما يبغضه الله فيه ضعف، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب)

⇦ وهذا التفريق بين الإسلام والإيمان استُدِل له بآيات من القرآن الكريم:
منها قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

وهذه الآية للسلف في تفسيرها قولان مشهوران:

القول الأول: أن الإسلام المثبَت لهم هو مرتبة الإسلام، وأنهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان.

القول الثاني: أن الإسلام المثبَت لهم هو الإسلام الظاهر الذي لا يقتضي أن يكون صاحبه مسلماً حقاً في الباطن، وذلك كما يحكم لأهل النفاق بالإسلام الظاهر، وإن كانوا كفاراً في الباطن؛ لأن التعامل مع الناس هو على ما يظهر منهم؛ فمن أظهر الإسلام قبلنا منه ظاهره ووكلنا سريرته إلى الله، فيعامل معاملة المسلمين ما لم يتبين لنا بحجة قاطعة ارتداده عن دين الإسلام.

القول الأول: هو قول الزهري وإبراهيم النخعي وأحمد بن حنبل واختاره ابن جرير وابن تيمية وابن كثير وابن رجب.

والقول الثاني: هو قول مجاهد والشافعي والبخاري ومحمد بن نصر المروزي وأبي المظفر السمعاني والبغوي والشنقيطي واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾

قالوا: فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم بنص القرآن، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فليس بمسلم على الحقيقة، وإنما إسلامه بلسانه دون قلبه.

وأصحاب القول الأول يقولون إن الإيمان المنفي عنهم هو ما تقتضيه مرتبة الإيمان، فهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان وإنما أسلموا على جهل فيثبت لهم حكم الإسلام.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي لم تباشر حقيقة الإيمان قلوبكم.

وابن القيم رحمه الله قال بالقول الأول في بدائع الفوائد، وقال بالقول الثاني في إعلام الموقعين.

= والتحقيق أن دلالة الآية تَسَعُ القولين، فإذا أريد بنفي الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ نفي أصل الإيمان الذي يَثبت به حكم الإسلام؛ فهؤلاء كفار في الباطن،

مسلمون في الظاهر، فيكون حكمهم حكم المنافقين، وقد يتوب الله على من يشاء منهم ويهديه للإيمان.

وإذا أريد بنفي الإيمان نفي القدر الواجب من الإيمان الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به مؤمنين؛ فهذا لا يستلزم نفي أصل الإيمان والخروج من دين الإسلام، فيثبت لهم حكم الإسلام، وينفى عنهم وصف الإيمان الذي يطلق على من أتى بالقدر الواجب منه.

وهذا كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!»

قيل: من يا رسول الله؟

قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

فهذا نفى عنه حقيقة الإيمان والقدر الواجب منه الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به، ولا يقتضي أن من فعل ذلك فهو خارج عن دين الإسلام.

والذي يوضح هذا الأمر أن قول ﴿أَسْلَمْنَا﴾ قد يقوله الصادق والكاذب؛ فإذا قاله الكاذب فهو منافق مدّعٍ للإسلام مخادع للذين آمنوا، يُظهر الإسلام ويبطن الكفر.

وإذا قاله الصادق فهو مسلم ظاهراً وباطناً، ومعه أصل الإيمان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فعلق وصف الإيمان بالصدق؛ فمن صدق منهم فهو من أهل الصنف الأول، ومن لم يصدق منهم فهو من أهل الصنف الثاني، وهذا يبيّن جواز أن يكون فيمن نزلت فيهم هذه الآيات من هو من أصحاب الصنف والأول، ومنهم من هو من أصحاب الصنف الثاني، وشملت هذه الآيات الصنفين كليهما.

وهذا مثال بديع لحسن بيان القرآن الكريم، ودلالته على المعاني العظيمة بألفاظ وجيزة.

والمقصود أن الآية على القول الأول في تفسيرها فيها دلالة على التفريق بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

قال محمد بن نصر المروزي: (نقول إن **الرجل قد يسمى مسلماً على وجهين:**

أحدهما: أن يخضع لله بالإيمان والطاعة تدينا بذلك يريد الله بإخلاص نية.

والجهة الأخرى: أن يخضع ويستسلم للرسول وللمؤمنين خوفا من القتل والسبي؛ فيقال قد أسلم أي خضع خوفا وتقية، ولم يسلم لله، وليس هذا بالإسلام الذي اصطفاه الله وارتضاه الذي هو الإيمان الذي دعا الله العباد إليه).

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥- ٣٦]

امرأة لوط كانت مسلمة في الظاهر، لكنها لم تكن مؤمنة، وهذه الآية فيها لطيفة وهي أن المؤمنين موعودون بالنجاة، والمسلم غير المؤمن ليس له عهد بالسلامة من العذاب والنجاة منه؛ فقد يعذب بمعاصيه في الدنيا وقد يعذب في قبره وقد يعذب في النار، لكنه لا يخلد فيها.

وهذا نظيره ما ورد في قصة أصحاب السبت فإن الله تعالى أنجى المؤمنين الذين ينهون عن السوء وسكت عن الساكتين عن إنكار المنكر، وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس، فتبين أن أصحاب الكبائر من المسلمين ليس لهم عهد أمان من العذاب كما جعل الله ذلك لأهل الإيمان؛ فقد يُعذّبون، وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه، وهذا يبين لك الفرق العظيم بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

فالمؤمن له عهد أمان بأن لا يعذبه الله ولا يخذله، وأنه لا يخاف ولا يحزن، ولا يضل ولا يشقى، وقد تكفل الله له بالهداية والنجاة والنصر والرفعة.

وهو في أمان من نقمة الله تعالى وسخطه، وفي أمان من عذاب الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وفي هذا القدر كفاية في بيان الفرق بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

ومما ينبغي أن يعلم أن لفظ الإسلام والإيمان إذا أفردا؛ فقد يراد بالإسلام ما يتضمن معنى الإسلام والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

فإسلام الوجه هنا يشمل معنى الإيمان بلا شك.

وإذا أطلق لفظ الإيمان شمل معنى الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يخاطب به جميع المسلمين بلا خلاف بين العلماء.

وإذا جمع لفظ الإسلام ولفظ الإيمان أريد بالإسلام المعاني الظاهرة من الاستسلام والانقياد والشعائر الظاهرة التي تقتضيها مرتبة الإسلام، وبالإيمان المعاني الباطنة من التصديق والإخلاص والعبادات القلبية التي تقتضيها مرتبة الإيمان.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقول تعالى ذكره: يا عبادي الذين آمنوا وهم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم، ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يقول: وكانوا أهل خضوع لله بقلوبهم، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم على دين إبراهيم خليل الرحمن صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، حنفاء لا يهود ولا نصارى، ولا أهل أوثان).

- ولذلك يقال في تلخيص الجواب: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

❖ وههنا مسألة مهمة نوجز التنبيه عليها: وهي أن من عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفرون أحداً من المسلمين بكبيرة من الكبائر إلا أن تكون تلك الكبيرة ناقضاً من نواقض الإسلام.

❐ قوله: **(وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنَ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).**

البِضْع ما بين الثلاثة إلى التسعة على أشهر أقوال اللغويين، ويجوز فتح الباء وكسرها، والكسر أشهر قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

والشُّعبة تطلق في اللغة على معانٍ، ومنها الفرع الذي يتجزأ من أصله مع اتصاله به كما في قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾.

ويقال: عصا لها شعبتان، إذا انقسم طرفها إلى قسمين كالغصنين.

والأغصان المتشعبة من أغصان كبار تسمى شُعَباً ومنه قول طرفة بن العبد:

كَـأَنَّ السِـلاحَ فَـوقَ شُـعبَةِ بانَـةٍ   تَـرى نَفَخـاً وَردَ الأَسِـرَّةِ أَسـحَما

(بانة) نوع من الشجر، وهو واحد شجر البان.

والمقصود أن الإيمان له أصول وأجزاء، وهذه الأجزاء هي شُعَبُه وخصاله، وكلما كثرت هذه الشعب كان نصيب المؤمن من الإيمان أكثر.

في صحيح البخاري: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»

وفي صحيح مسلم: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»

ولفظ "أعلاها" عند محمد بن نصر المروزي وابن حبان والبغوي في شرح السنة وغيرهم.

وقد يجتمع في المرء بعض شعب الإيمان وبعض شعب النفاق كما في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا ائتُمِنَ خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهَدَ غدر، وإذا خاصم فجر».

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق»

❑ قوله: **(وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ).**

أركان الإيمان هي أصوله التي ينبي عليها.

وهذه الأركان هي أصول الإيمان، وشعب الإيمان ترجع إلى هذه الأصول، لأن الشعبة لا بد لها من أصل، فالشعبة تتشعّب من أصل.

وهذا يفيد بالتمثيل أن الإيمان كالشجرة لها أصول وشعب هي أغصانه المتفرعة عنه.

وقد ورد تشبيه الإيمان بالشجرة كما قال تعالى مشوقاً عباده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾

قال ابن جرير: (مثّل الله مثَلا وشبّه شبَهًا (كلمة طيبة)، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه).

فالكلمة هنا هي كلمة الإيمان وكلمة التوحيد فهي أصل الإيمان.

فإذا كان الإيمان راسخاً كان أعلى فروع هذه الشعب هو قول (لا إله إلا الله) لأنه حينئذ يعبر عما وقر في القلب وصدقته الجوارح من معاني الإيمان.

لكن إذا كانت هذه الكلمة يقولها من ليس بؤمن لم ينفعه قولها بلسانه وهو غير مؤمن بها لأنها حينئذ لا تكون قائمة على أصل.

والمقصود أن هذه الأركان الستة هي أصول الإيمان ومنها تفرعت شعبه.

وشعب الإيمان هي أنواع الإيمان وخصال الإيمان ومنها **قلبي** و**قولي** و**عملي**.

وقد مثل النبي صلى الله عليه وسلم لكل نوع بمثال: فقول (لا إله إلا الله) قول باللسان، وإماطة الأذى عمل، والحياء عمل قلبي.

❑ قوله: (**وَالدّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِتّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنّ الْبِرّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنّبِيّينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]).

في هذه الآية ذكر الله تعالى خمسة أصول من أصول الإيمان، وفي حديث جبريل ذكر مع هذه الأصول الخمسة الإيمان بالقدَر.

والإيمان بالقدَر من لازمِ الإيمانِ بالله تعالى، لأنّ القدَرَ هو من فعل الله جل وعلا، وإذا أُفْرِدَ في بعض المواضع فهو لأهميته.

وفي بعض الآيات يذكر الله تعالى أصلين من أصول الإيمان وهما الإيمان بالله واليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴾

وهذا كثير في القرآن الكريم.

وفي بعض المواضع يذكر الإيمان بالله والرسل كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

وفي بعض المواضع يذكر لفظ الإيمان بالله وحده كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾

وفي بعض المواضع يذكر لفظ الإيمان مطلقاً دون ذكر متعلّقِه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

فإذا قيل: الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فإن الإيمان بالله يشمل الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله وقدره، فإن هذه الأصول تضاف إلى الله تعالى إضافة لغوية صحيحة

وأما اليوم الآخر فلا يضاف إليه تعالى؛ فلا يقال: ويومه الآخر.

وإذا ذكر الإيمان بالله وبالرسل دخلت بقية أصول الإيمان فيما أخبرت به الرسل، وكل ما أخبرت به الرسل يجب الإيمان به وتصديقه، وهذا الأصول العظيمة من الإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر من أعظم ما أخبرت به الرسل.

- وإذا أفرد الإيمان بالله وحده دخل في ذلك جميع ما أمر الله تعالى بالإيمان به.

- وإذا أطلق لفظ الإيمان دون متعلقه فالمراد به الإيمان الذي أمر الله تعالى به وأحبه ومن أعظم ذلك الإيمان بهذه الأصول العظيمة.

وهذا يبيّن لك أن هذه الأصول العظيمة يدل بعضها على بعض، ويستلزم بعضها بعضاً، وأن من رام أن يفرّق بينها فيؤمن ببعض ويكفر ببعض فهو كافر بها كلها.

ومن كفر بأصل من هذه الأصول فهو كافر خارج عن دين الإسلام.

لكن قد يقع عند العبد خطأ ومخالفة في بعض لوازم الإيمان بهذه الأصول مع إيمانه بها على وجه الإجمال؛ فهذا يكون حكمه بحسب ما خالف فيه؛ فقد يكون كافراً إذا كان ما خالف فيه يعتبر ناقضاً من نواقض الإسلام، وقد يكون مبتدعاً، وقد يكون عاصياً.

وسندرس ملخّصاً لأهم هذه المسائل في هذا الدرس بإذن الله تعالى.

❑ قوله: (**وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]).

هذه الآية فيها ذكر القَدَر، وأن الله تعالى قد خلق كلّ بشيء بقدر، فمن آمن بأن الله تعالى خلق كل شيء بقدر فقد آمن بالقدر؛ كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

والإيمان بالقدر من أصول الإيمان العظيمة المذكورة في حديث جبريل نصاً.

أركان الإيمان

❑ الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، والقيام بواجب هذا الإيمان اعتقاداً وقولاً وعملاً.

١: فأما الإيمان بوجود الله تعالى فلم يخالف فيه إلا قلّة من الناس، وهم الملاحدة وهم طوائف؛ فمنهم الدهرية الطبائعية الذين ينسبون كل شيء للطبيعة.

ومنهم الشيوعية والداروينية.

ومنهم البهائية والبابية وهاتان الفرقتان من فرق الشيعة.

ومن الملاحدة من يقرّ بوجود الله تعالى لكن يفسر وجوده تفسيراً خاطئاً كالدهرية الإلهية وهم طائفة من الفلاسفة يزعمون أن وجود الرب تعالى وجود مطلق لا صفة له.

وهؤلاء الذين ينكرون وجود الله تعالى من أعظم الناس اضطراباً وتناقضاً، فإن الإيمان بوجود الله تعالى أمر تقتضيه الفطرة فمن أنكره وقع في التناقض والاضطراب ولا بد.

وقد حكى الله تعالى عن فرعون وهو مِن أشهر من أظهر القول بإنكار وجود الله تعالى أنه وقع في هذا الاضطراب والتناقض؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾

فهذا القول قاله استكباراً واتبعه جنوده ضلالاً منهم، ولّما مسّهم عذاب الرجز لم يجدوا بدًّا من الإقرار بوجود الله تعالى فلمّا كشف الله عنهم ذلك العذاب ابتلاء نكثوا وعادوا لكفرهم وطغيانهم كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله فيهم: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)﴾.

والملاحدة أضعف الناس حجة إذا ناظرهم من يحسن المناظرة كما ذكر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ونبأ محاجة الملك له قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٢: وأما الإيمان بربوبية الله تعالى فهو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المالك المدبر المحيي المميت.

وهذا الإقرار لا يدخل العبد في الإسلام بل يلزمه للدخول في الإسلام توحيد الألوهية بأن يعبد الله وحده لا شريك له.

فإن المشركين الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون بوجود الله، ويقرون بربوبيته لكنهم لم يوحدوا الله تعالى في العبادة فلم يدخلوا في دين الإسلام.

٣: وأما الإيمان بألوهية الله تعالى؛ فهو الإقرار بأنه لا يستحق العبادة إلا الله جل وعلا؛ إقراراً جازماً يتبعه العمل.

ولا يكون مؤمناً بألوهية الله تعالى إلا من كفر بما يُعبد من دون الله، وَعَبَدَ الله وحده لا شريك الله.

وهذه المرتبة العظيمة هي التي وقعت فيها الخصومة بين الرسل وأقوامهم، وهي التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يؤمنوا بها وهي مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

٤ : وأما الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا فيكون بالإقرار الجازم بما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تشبيه ولا تعطيل إقراراً جازماً يتبعه العمل بمقتضاه؛ فنؤمن بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبما دلت عليه من المعاني الجليلة وأنه لا شبيه له فيها، وأن الله تعالى له الكمال المطلق فلا يلحقه نقص في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله، قد تنزّه عن الشرور والنقائص والعيوب وسائر ما لا يليق بكماله المقدس.

ونتعبّد لله تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته:

- فإيماننا بأسماء السميع البصير واللطيف الخبير والعليم المحيط ونحوها من الأسماء الحسنى التي تدل على العلم والإحاطة تقتضي منا مراقبة الله تعالى في شؤننا كلها، فنعبده جل وعلا وكأننا نراه، فنأتي الطاعات ونجتنب المعاصي ونحن نعتقد أن الله تعالى يرانا ويعلم سرنا وعلانيتنا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا.
- وإيماننا بصفات الرحمة والكرم والإحسان يقتضي تعظيم محبة الله جل وعلا وتعظيم الرجاء في فضله ورحمته وبركاته.

- وإيماننا بصفات القوة والقدرة والقهر يقتضي تعظيم الخوف من الله جل وعلا فلا نقدم على معصيته ولا نتخلف عن طاعته، ولا نيأس من نصره.

وكل اسم من الأسماء الحسنى وصفة من الصفات العليا لها آثارها العظيمة الجليلة، ولها مقتضياتها من أنواع العبودية لله جل وعلا.

وهذه المرتبة من الإيمان خالف فيها طوائف من الفرق الضالة وهي على صنفين: معطلة ومشبّهة.

- **فأما المعطلة:** فهو وصف جامع لفِرَقٍ نفت أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا أو نفت بعضها وهذا هو معنى التعطيل، ومن أشهر هذه الفرق: الجهمية والمعتزلة والكلابية والماتريدية والأشاعرة.

وهذه الفِرَق على درجات في التعطيل.

- **وأما المشبهة:** فهم الذين شبهوا الله تعالى بخلقه، والتشبيه وقع فيه بعض الأشخاص الذين اشتهر عنهم القول به ومنهم من نص السلف على كفره كداود الجواربي والمغيرة بن سعيد العجلي وهشام بن الحكم الرافضي وهشام الجواليقي.

وكان في بعض قدماء الروافض تشبيه ومن فرقهم المشبهة: السبئية والمغيرية والسحابية الذين يزعمون أن علياً في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه.

وممن وقع في التشبيه من الفرق المشتهرة الكرامية وغلاة الصوفية من الحلولية والاتحادية وهؤلاء من أعظم الفرق تشبيهاً وكفراً والعياذ بالله، ولهم أقوال شنيعة في الكفر والتشبيه.

❑ الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

الملائكة، جمع مَلَك، وأصله: مَألَك، ، والألوكة والمألك والمألكة: الرسالة.

قال عدي بن زيد:

أبلـــغ النعمـــان عـــني مألُكـــاً ... أنـه قـد طـال حبسـي وانتظـاري

(مألك) ثم قدمت اللام ونقلت حركة الهمزة إليها فقيل: (مَلأك)، ثم قلبت الهمزة ألفاً للتسهيل فقيل: ملاك، وعلى الأصل قول الشاعر:

فلسْــتَ لإنســـيٍّ ولكــنْ لِمَــلأَكٍ　　　تَبـاركَ مَن فَوْق السّماواتِ مُرْسِلُهْ

والإيمان بالملائكة أصل عظيم من أصول الإيمان، وله ثمرات عظيمة، وفوائد جليلة منها

قال ابن القيم رحمه الله: (لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحا أو تلويحا أو إشارة وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يذكر).

وهم خَلْق من خلق الله تعالى خلقهم الله من نور كما في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارجٍ من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

المارج هو: لهب النار المختلط بسوادها، وسمي مارجاً لاضطرابه واختلاطه وخفّته.

- وقد وصف الله تعالى الملائكة في كتابه الكريم بأنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ خَلْقاً وَخُلُقاً، قد أكرمهم الله تعالى بمحبته وشرّفهم بطاعته، وعصمهم من معصيته، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

ووصفهم بأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

لا يستحسرون أي لا ينقطعون عن عبادته من إعياء ولا ملل ولا ضعف.

وهم متفاوتون في الخلق فمنهم من هو عظيم الخلقة جداً ومنهم من هو دون ذلك كما وصف الله تعالى تفاضلهم في الخلق في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

وفي سنن أبي داوود من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أذن لي أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حَمَلَةِ العَرْشِ، ما بين شَحْمَةِ أذنه إلى عاتِقِهِ مسيرة سبعمائة سنة».

وهم خلق كثير لا يحصيهم إلا من خلقهم سبحانه وتعالى

- في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة المعراج أن (البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة).

- وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم مع أصحابه رضي الله عنهم إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟»

قالوا: ما نسمع من شيء.

قال نبي الله صلى الله عليه و سلم: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». رواه محمد بن نصر المروزي والطحاوي وابن أبي حاتم وابن أبي عاصم والطبراني وغيرهم كلهم من حديث عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم. وصححه الألباني.

- وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والبيهقي وتفسير البغوي من حديث إبراهيم بن المهاجر عن مجاهدٍ عن مورقٍ عن أبي ذر قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» لوددت أني كنت شجرةً تعضد).

(لوددت أني كنت شجرة تعضد) أي تُقْطَع، وقيل: يُنثر وَرَقُها، وهذا من كلام أبي ذر، كما بيّن ذلك الحفاظ.

وقد وكّلهم الله تعالى بأعمالاً يعملونها، وهم حفيظون لأعمالهم قائمون بها على أتم وجه كما أمرهم الله؛ فمنهم الموكّل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، ومنهم الموكَّل

بالقطر والنبات وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل، ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومنهم ملائكة الرحمة، ومنهم ملائكة العذاب.

ومنهم الموكل بالأرحام.

ومنهم الكتبة الحافظين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ❖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ❖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وقد مكّنهم الله تعالى من معرفة أعمال العبد كلها حتى ما يهمّ به قبل أن يتحدث به أو يعمل به كما دل عموم قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله: إذا هم عبدي بالحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرة أمثالها فإن هم بالسيئة فعملها فاكتبوها واحدة وإن تركها فاكتبوها حسنة» رواه عبد الرزاق وأحمد والبخاري.

وفي رواية عند أحمد ومسلم: (قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به- فقال: ارقبوه؛ فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حَسَنَةً، إنّما تركها من جَرَّاي».

من جراي: أي لأجلي.

ومنهم الملائكة السياحون الذين يتتبّعون مجالس الذكر.

ومنهم ملائكة سياحون موكلون بتبليغ النبي صلى الله عليه وسلم سلام من يسلّم عليه من أمته كما في مصنف ابن أبي شيبة وسنن النسائي وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام».

ومنهم الحفظة الذين يحفظون العبد من الآفات التي قد لا يراها ولا يعلم بها فيصرفونها عنه ما لم يقدّر الله له شيئا من ذلك.

ولو وَكَل الله تعالى الناسَ إلى أنفسهم لم يستطيعوا حفظ أنفسهم.

وللملائكة أعمال كثيرة لا يحصيها إلا من خلقهم، وهم يحبّون ويبغضون؛ يحبون من يحبه الله، ويبغضون من يبغضه الله، ويستغفرون للذين آمنوا ويدعون لهم بخير، وقد ورد في فضائل بعض الأعمال أن الملائكة تدعو لأصحابها.

كما ورد أنهم يدعون على بعض العصاة من أهل الكبائر، ويلعنون بعضهم.

والمؤمنون يؤمنون بالله وملائكته كما أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

- والإيمان بالملائكة يكون بالتصديق بوجودهم وبأعمالهم وبما أخبر الله تعالى عنهم وأخبر به عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ومحبتهم لمحبة الله تعالى لهم بلا مجاوزة للحد؛ فلا يرفعون فوق منزلتهم التي جعلها الله لهم ولا يُدعون من دون الله ولا يستشفع بهم ولا يصرف لهم أي نوع من أنواع العبادة.

وأما المخالفون في الإيمان بالملائكة فهم أصناف ومن أشهرهم:

الصنف الأول: الذين أنكروا وجود الملائكة، وهؤلاء هم الملاحدة، وكذلك بعض الذين لديهم نزعات إلحادية مع إقرارهم بوجود الله، لكنهم لا ينسبون إليه شيئاً، ويفسرون كل ما يحدث بالظواهر الطبيعية، حتى خلق الإنسان والأفلاك ينسبونه للطبيعة، فمن هؤلاء من يفسر الملائكة بقوى الخير والصفات النفسانية الحسنة في الإنسان، ويفسر الشياطينَ بقوى الشر والخصال الشريرة.

الصنف الثاني: الفلاسفة القدماء الذين يعتقدون أن الملائكة هي التي تصرّف الكون وتدبره، وهم لا يسمونهم الملائكة وإنما يسمونهم الأرواح والعقول المدبرة والنفوس الخيرة، ولذلك يجوّزون دعاء الأجرام العلوية من الكواكب السبعة وغيرها، ويزعمون أن من توجّه إليها بالدعاء؛ فإن تلك الأرواح تتنزل عليه وتقضي حوائجه، ولذلك يكون في كلامهم وكلام من يتلقى عنهم "روحانية عطارد" و "روحانية الزهرة" ونحو ذلك يجعلون للكواكب روحانيات ونفوساً مدبرة ومؤثرة ومتصرفة في بعض شؤون العالم.

وهذا كفر بالله جل وعلا.

وهذه العقيدة تلقفها بعض السحرة الذين تعاطوا التنجيم، ولذلك يتقربون إلى الكواكب ويزعمون أنهم يخاطبون الملائكة؛ وهم في الحقيقة إنما يدعون الشياطين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾

وهذا نظير ما يحصل لبعض عباد الأصنام والأوثان فإنهم ربما دعوا بعض تلك المعبودات فخرجت عليهم بعض الشياطين متمثلة لهم على شكل بعض المخلوقات المرئية فتنة لهم.

الصنف الثالث: الذين يبغضون بعض الملائكة ويعادونهم، ومن هؤلاء اليهود المغضوب عليهم الذين أعلنوا بغضهم لجبريل عليه والسلام وعداوتهم له، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾

الصنف الرابع: الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ولديهم اعتقادات أخرى كفريّة باطلة في الملائكة، ومن هؤلاء مشركو العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ

الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾

قال مجاهد وقتادة: قالت كفار قريش الملائكة بنات الله، وأنه تزوج من سروات الجن، والملائكة بناته منهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

الصنف الخامس: الذين يدعون الملائكة من دون الله تعالى ويطلبون منهم الشفاعة وقضاء الحوائج وهذا كله من العبادة التي من صرفها لغير الله عز وجل فهو مشرك كافر

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ❖ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

والمشركون يغرّ بعضهم بعضاً، ويلبسون على أنفسهم، ومنهم من يزعم أنه يدعو الملائكة وهو إنما يدعو الشياطين:

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ❖ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

قال ابن جرير: (وقيل: إن الذين أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيرا والمسيح).

هذا أحد الأقوال في تفسير الآية.

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ❖ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

فالتوجه إلى غير الله تعالى بالدعاء وطلب الشفاعة شرك أكبر مخرج عن الملة والعياذ بالله.

سواء أكان الدعاء لملك أم نبي أم ولي أم غيره.

❑ الركن الثالث: الإيمان بالكتب

والمراد بالكتب الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام، ومنها صحف إبراهيم، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والزبور الذي أنزله على داوود والإنجيل الذي أنزله على عيسى، والقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وعلى أنبياء الله وسلم.

فنؤمن بما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم، ونؤمن بما أنزل على الأنبياء من قبله ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، ونؤمن بأنها حق من عند الله جل وعلا.

وقد أثنى الله تعالى على عباده المتقين بذلك في أول سورة البقرة فقال: ﴿الم ❖ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

وقد أمر الله تعالى نبيّه بالإيمان بكتبه فقال: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ من كتاب عام في جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى.

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: وقل لهم يا محمد: صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلاً أو زبوراً أو صحفَ إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض).

وأمر الله تعالى المؤمنين بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾

فالإيمان بالكتب فرض واجب، وهو من أصول الإيمان العظيمة.

واليهود والنصارى وقعوا في التكذيب ببعض الكتب وإنكار بعض ما جاء فيها، كما ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

قال ابن كثير: (قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه).

والكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام جاءت بالأمر بتوحيد الله جل وعلا، والنهي عن الشرك.

وكلُّ ما أخبر الله تعالى به فيها فهو حق وصدق.

وأما الشعائر التعبدية فقد جعل الله لكل أمة شريعة يتعبدون بها لا تلزم غيرهم، إلا الشريعة التي بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم وهي شريعة الإسلام فهي عامة لجميع المكلفين من الإنس والجنّ إلى قيام الساعة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»

فشريعة الإسلام ناسخة لما قبلها من الشرائع وهي عامة لجميع المكلفين.

وقال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

قال ابن عباس: سبيلاً وسنة.

وقال قتادة: الدين واحد والشريعة مختلفة.

وقال ابن جرير: (للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل).

❑ الركن الرابع: الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل أصل عظيم من أصول الإيمان، فهم الواسطة في تبليغ رسالات الله تعالى؛ وهم الذين بينوا للناس الهدى ودين الحق، أرسلهم الله تعالى رحمة بعباده ليبلغوهم رسالات ربهم، ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم المفضي إلى رضوان الله تعالى وجنات النعيم، ويبشروا بذلك من آمن بهم وأطاعهم واتبع سبيلهم.

وليحذروا من أسباب سخط الله وعذابه.

وليقيموا الحجة على الناس بالبلاغ، فمن بلغته الحجة وجب عليه الإيمان والاتباع، فإن كذّب وتولى استحق العذاب الأليم، ولم تكن له حجة عند ربه.

وقد جمع الله مقاصد إرسال الرسل الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

فإن الله تعالى لا يعذّب أحداً على مخالفة حتى تقوم عليه الحجة الرسالية كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

وقد أوجب الله تعالى على رسله البلاغ المبين وهو البيّن الواضح الذي لا لبس فيه، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾

وشهد الله تعالى لهم بأنهم أدوا ما أوجب الله عليهم فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

فشهد الله لأنبيائه بأنهم بلغوا رسالات ربهم البلاغ المبين.

ولذلك أرسل الله تعالى كل رسول بلسان قومه ليبين لهم وجعل رسولهم منهم فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وأعظم الرسل بياناً وأفصحهم لساناً وأحسنهم هدياً نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أصل عظيم من أصول الدين، وهو اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن البيان الكامل الذي يحبه الله ويرضاه، والذي تقوم به الحجة، وتتضح به المحجة فلا يزيغ عنها إلا هالك.

والبيان الكامل يقتضي ثلاثة أمور متلازمة:

الأمر الأول: العلم التام بكل ما يلزم بيانه.

الأمر الثاني: النصح والأمانة.

الأمر الثالث: الفصاحة في المنطق وحسن تبليغ الرسالة لمن أرسله الله إليهم.

فمن قدح في أمر من هذه الأمور الثلاثة فقد قدح في بيان النبي صلى الله عليه وسلم.

ولو فَقِهَ أصحاب الأهواء هذا الأمر حق الفقه لسَلِمُوا من شر عظيم، وسلّموا للنبي صلى الله عليه وسلم بحسن بيانه وكمال نصحه وبراعة فصاحته، ولم يدخلوا في حديثه متأولين محرفين زاعمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد ظاهر ما يدل عليه كلامُه من أمورٍ كَبُرَ عليهم اعتقادها، حتى صرح بعضهم أن ظواهر النصوص غير مرادة، وأنه إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل، فارتكبوا بسبب ما زينه لهم الشيطان بدعاً عظيمة

شنيعة، ولولا ما عَرَضَ لبعضهم من الشبه وما يعذر به بعضهم من الجهل في بعض المسائل لخرجوا من الدين بهذا الاعتقاد والعياذ بالله.

ومن زعم أن الله تعالى لم يرسل رسولاً فهو كافر ظانّ بالله تعالى ظنّ السوء زاعم أنّ الله تعالى يترك عباده سدى، يخلقهم ويعبدون غيره، ويقرهم على ذلك!

قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾

وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾

وقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾

الكتاب اسم جنس فيعم جميع الكتب.

والذي أرسل الله به الرسل هو دين الإسلام بمعناه الشرعي العام، وهو التوحيد.

فالأنبياء دينهم واحد وهو الإسلام وشرائعهم شتى، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياء إخوة لعَلاَّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد»

وفي رواية «الأنبياء أبناء علات».

و(الإخوة لعلات) هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى.

قال ابن القيم رحمه الله: (النبي شبه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم؛ فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

وقال البخاري في صحيحه : باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد وذكر هذا الحديث.

وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلى خاتمهم محمد فهو بمنزلة الأب الواحد، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف ؛ فهي بمنزلة الأمهات الشتّى).

- وفي باب الإيمان بالرسل مسائل عظيمة مهمة لا يكفي هذا الدرس لبسطها لكن أرجو أن ييسر الله تعالى ذلك في دورات قادمة إن شاء الله تعالى.

- والمقصود هنا بيان أن الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، وأنه يجب علينا أن نؤمن بهم جميعاً ولا نفرق بين الله ورسله ولا نفرق بين أحد من رسل الله فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ؛ فمن كذّب برسول منهم فقد كذب بهم جميعاً لأن دعوتهم واحدة وهي دين الإسلام وهم كلهم صادقون فيما يخبرون به عن ربهم جل وعلا فمن كذب أحداً منهم فقد كذّبهم كلَّهم، وهو كافر حقاً لأنه لم يُسْلِمْ لله تعالى، ولم يسلّم لأمره بتصديق رسله عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)﴾

وأثنى الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾

❑ الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر أصل عظيم من أصول الإيمان، من كذّب به كفر، وسمّي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده في الدنيا، وفيه تقوم الساعة، فالمكذب به مكذّب بالساعة ومكذب بالبَعْث ومكذب بالحساب والجزاء، وهذه كلها أصول عظيمة من أصول الإيمان.

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في البرزخ بين الحياة الدنيا والآخرة من عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، وقيام الناس لرب العالمين في يوم الفصل، والإيمان بالحوض والشفاعة ونصب الموازين ونشر الصحف ونصب الصراط ودخول الكفار والمنافقين وبعض أصحاب الكبائر من المسلمين في النار، ثم يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ويبقى الكفار والمنافقون النفاق الأكبر خالدين في نار جهنم لا يخفف عنهم العذاب وما هم منها بمخرجين، والعياذ بالله.

ونؤمن بأن الجنة حق، وأن الله تعالى قد أعدّها لعباده المؤمنين يدخلونها برحمته وفضله، وهم فيها خالدون، في النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا ينقص ولا يتكدّر

والجنة على درجات، والمؤمنون يتفاضلون فيها تفاضلاً عظيماً بحسب أعمالهم.

والمؤمنون يرون ربهم عز وجل في عرصات القيامة وبعد ما يدخلون الجنة، ورؤية الله تعالى هي أعلى مراتب النعيم وأعظم الفضل وغاية المطالب عند المؤمنين الذين أخلصوا له الدين.

نسأل الله تعالى من فضله.

وهم على مراتب ودرجات في الرؤية بحسب قربهم من الله عز وجل.

وهذا الأصل العظيم فيه مسائل عظيمة.

والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:

الدرجة الأولى: الكفار المكذبون بالبعث، وهم طوائف من المشركين الوثنيين والملاحدة، وبعض الفلاسفة القدماء الذين يزعمون أن الحشر للأرواح دون الأجساد.

وهؤلاء كلهم كفار لجحدهم معلوماً من الدين بالضرورة، وتكذيبهم خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الدرجة الثانية: المبتدعة الذين أنكروا بعض تفاصيل ما يكون في اليوم الآخر من الحوض والشفاعة ورؤية المؤمنين لربهم عز وجل؛ فهؤلاء مَن بلغته منهم الأحاديث الصحيحة

وهو عارف بمعناها عارف بصحتها ثم كذّب بها فهو كافر لتكذيبه النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن عرضت له شبهة تأول بسببها معنى غير ما أجمع عليه السلف الصالح ودل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى لسان العرب فهو مبتدع ضال، ولا يكفَّر لأجل الشبهة التي عرضت له، ولأنه لم يقصد تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه على خطر عظيم بسبب ما وقع فيه من البدعة.

وسيأتي لهذه المسائل مزيد تفصيل في متون الاعتقاد القادمة بإذن الله تعالى.

والمهم في هذه المرحلة معرفة هذه المباحث على سبيل الإجمال، والله المستعان.

❑ الركن السادس: الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان، والقدر هو تقدير الله تعالى لكل شيء وهو يتضمن علم الله تعالى به وكتابته له في اللوح المحفوظ ومشيئته بوقوعه وعموم خلقه لكل شيء.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

وقال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾

فالإيمان بالقدر يتضمن أربع مراتب من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله تعالى الأزلي بكل شيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء.

والكتابة من أدلة العلم، كما قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

وفي صحيح البخاري وغيره من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما أنّ ناساً من أهل اليمن قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: جئناك لنتفقَّه في الدين، ولنسألَك عن أوَّلِ هذا الأمر ما كان؟

قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثمّ خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكرِ كلّ شيءٍ».

الذكر هنا هو اللوح المحفوظ وهو المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله تعالى

وأنه لا يكون إلا ما يشاؤه الله عز وجل، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾

وقال: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾

وقال: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء﴾.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

وقال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

وأدلة المشيئة في الكتاب والسنة كثيرة جداً.

والمشيئة هي الإرادة الكونية، فإن الإرادة تطلق في الكتاب والسنة ويراد بها الإرادة الكونية المرادفة للمشيئة، وتطلق ويراد بها الإرادة الشرعية التي هي الأمر والنهي.

- فأما **الإرادة الكونية** فإنها نافذة ولا بدَّ؛ لأن ما شاء الله كان وما شاء لم يكن.
- وأما **الإرادة الشرعية** وهي الأمر والنهي فقد يمتثله العباد وقد لا يمتثلون وهو مدار الابتلاء والاختبار، ولو شاء الله تعالى أن يجعلهم كلهم مؤمنين مطيعين لفعل، ولو شاء أن يجعلهم كلهم عصاة لفعل، لكنه تعالى ابتلاهم بالأمر والنهي وجعل لهم قدرة واختياراً فمن امتثل بقدرته واختياره أثابه الله، ومن عصى الله بقدرته واختياره استحق العقاب.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فمعنى القدر يتضمن هذه المراتب الأربعة.

والله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق، فأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله غير مخلوقة، وما سوى الله فإنه مخلوق.

وذلك أن الله تعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.

والقدر لا يعارض الشرع، فإن العبد مكلف حقيقةً وله قدرة وإرادة فيطيع ويعصي باختياره، وله قدرة يتمكن بها من فعل ما يستطيع.

والعبد لا يكلف إلا ما يستطيع كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

ومما يدفع عن العبد كثير من الإشكالات والتحيرات التي وقع فيها الضالون في هذا الباب من المشركين والمبتدعة أن يعرف العبد معاني أسماء الله الحسنى، ويتفقه في آثارها في الخلق والأمر؛ فإن فقه الأسماء الحسنى عصمة من الضلالة في كثير من الأبواب التي ضل فيها الضالون.

فمن آمن بأن الله تعالى هو الإله الودود الحميد العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً؛ تبين له ضلال الجبرية الذين يزعمون أن العصاة مجبورون على عصيانهم.

ومن آمن بأن الله تعالى هو العليم القدير والملك الحق وأنه خالق كل شيء وأنه فعال لما يريد وأنه هو الحكيم البصير يهدي ويثيب رحمة منه وفضلاً، ويضل ويعاقب من يستحق العقاب حكمة منه وعدلاً.

وأنه قد جعل لقضاء الخير أسباباً من فعلها أثابه على ذلك بقضاء الخير.

وجعل لقضاء الشر أسباباً من فعلها فقد تعرض لقضاء الشر والعياذ بالله.

كما جعل للتوفيق والخذلان أسباباً بيَّنها في كتابه الكريم وبينها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته التي هي كالمحجة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ومن تمسَّك بالكتاب والسنة واعتصم بالله هدي إلى صراط مستقيم.

ومن أعرض وخاصَم ربه وتعمَّق في القدر مخاصماً ومعترضاً كان على شفا هلكة، ولم يزدد إلا حيرة وضلالاً؛ فاليقين والطمأنينة والعلم النافع والبصيرة لا تكون إلا بالتسليم لله تعالى والإيمان به وإحسان الظن به جل وعلا والرضى به رباً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالإسلام دينا؛ فمن كان كذلك ذاق طعم الإيمان وهدي إلى الصراط المستقيم في هذا الباب وغيره.

واعلم أن المخالفين في باب الإيمان بالقدر أنواع:

النوع الأول: المنكرون للقدر جملة، ومن هؤلاء طوائف من المشركين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وغلاة القدرية الذين أنكروا علم الله بأفعال العباد قبل صدورها منهم، وهم أتباع معبد الجهني، وهؤلاء كفار وقد حدثت هذه الفرقة في أواخر عصر الصحابة، وذكروا لعبد الله بن عمر؛ فكان ذلك سبب تحديثه بحديث جبريل الطويل.

في صحيح مسلم وغيره عن يحيى بن يعمر قال: (كان أول من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهني؛ فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين؛ فقلنا: لو

لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ؛ فوُفِّقَ لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ؛ فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إلي ؛ فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلَنا أناس يقرءون القرآن ويتقفّرون العلم - وذكر من شأنهم - وإنهم يزعمون أن لا قَدَرَ وأنّ الأَمَرَ أُنُفٌ.

فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم وأنهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنّ لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً ؛ فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ...) فذكر حديث جبريل الطويل.

وقد نُقل عن بعض السلف أنهم قالوا : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقرّوا به خُصِمُوا وإن أنكروه كفروا.

النوع الثاني: المخاصمون والمعترضون ، وهؤلاء إمامهم إبليس لعنه الله ، وقد وقع في مخاصمة الله تعالى في القَدَرِ طوائف من المشركين والزنادقة وبعض أهل البدع.

وقد يقع في شيء من ذلك بعض عصاة المسلمين وهو على خطر في هذه المنازعة ؛ والواجب الإيمان بالقدر والتسليم لله تعالى.

وما أحسن ما قال ابن القيم رحمه الله : (فأكثر الخلق ، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ ، فإن غالبَ بنى آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق ، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ ، ولِسان حاله يقول : ظلمنى ربِّى ، ومنعنى ما أستحقُه ، ونفسُه تشهدُ عليه بذلك ، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به ، ومَن فتّش نفسَه ، وتغلغل فى معرفة دفائِنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامِناً كُمونَ النار فى الزِّناد ، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما فى زِناده ، ولو فتَّشت مَن فتشته ، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقِلٌ ومستكثِر ، وفَتِّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فَإنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِى عَظِيمَةٍ وَإلاَّ فَـــإنِّى لاَ إخَالُـــكَ نَاجِيَـــاً

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلّ وقت من ظنه بربه ظن السّوْءِ، وليظنّ السّوْءَ بنفسه التى هى مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهى أولى بظن السّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذى له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزّهُ عن كل سوءٍ فى ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى).

النوع الثالث: الذين ضلوا في باب المشيئة **وهم طائفتان من الفرق الضالة:**

الطائفة الأولى: القدرية ومن أشهرهم المعتزلة ومتأخروا الشيعة.

الطائفة الثانية: الجبرية ومن أشهرهم الأشاعرة والماتريدية.

❖ ومما ينهى عنه في باب القدر الخوض في تعليل أفعال الله جل وعلا بلا علم؛ فمن تكلم في هذا الباب العظيم بلا علم كان على خطر من الضلال، وهذا هو منشأ ضلال الفرق التي ضلت في هذا الأصل العظيم

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تائيته:

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هـو الخـوض في فعـل الإلـه بعلـة

فـإنهمو لم يفهمـوا حكمـة لـه فصـاروا علـى نـوع مـن الجاهليـة

هذا والله تعالى أعلى وأعلم وأحكم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الحادي عشر: الأصل الثاني وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة (٣/٣)

عناصر الدرس:

١: بيان معنى الإحسان.

٢: درجات الإحسان.

٣: بيان خصال الإحسان في العبادات والمعاملات.

٤: أبواب الإحسان.

٥: طرق معرفة الإحسان.

٦: معاني لفظ الإحسان في النصوص.

٧: الإحسان يكون بالقلب واللسان والجوارح.

٨: سمات المحسنين.

٩: تيسير الإحسان.

قال رحمه الله: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ:**

الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].
- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].
- **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]).

❐ قوله: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**).

المرتبة الثالثة من مراتب الدين هي مرتبة الإحسان، وفسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

فالإحسان المراد هنا هو الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو متضمن للإحسان إلى من أمر الله عز وجل بالإحسان إليهم أمر وجوب أو ندب، لأن الذي يفعله تقرباً إلى الله عز وجل فهو متعبد لله تعالى بهذا الإحسان.

فالإحسان في عبادة الله تعالى ينتظم جميع معاني الإحسان.

وهو أعلى مقامات العبادة وأجلها.

فالمقام الأول هو مقام الإسلام، **والمقام الثاني** هو مقام الإيمان، **والمقام الثالث** هو مقام الإحسان.

والإحسان ضد الإساءة **ويطلق هذا اللفظ في لسان العرب على معنيين:**

المعنى الأول: الإتقان والإجادة.

والمعنى الثاني: التفضل والزيادة.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ فالإحسان هنا يفسره قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أتقن في تفاسير السلف بمعنى: أحكم وأحسن وسوى وأوثق وهي معان متقاربة.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ والتقويم هنا التعديل وتسوية الخلق بإجماع المفسرين، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ قرئ في السبع بالتخفيف والتشديد ﴿فعدَّلك﴾.

وقال الحارث بن جحدر الحضرمي يصف قطيعاً من الظباء:

حِماشِ الشَوى نُجلِ العُيونِ سَوابِقٍ ... مِنَ البَقلِ حورٍ أَحسَنَ الخَلقَ خالِقُهْ

ويقال فلان أحسن صنعته إذا أتقنها وأجادها، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (قيمة كل امرئ ما يحسنه).

والذي يحسن العمل هو الذي يأتي به على وجه حسن، وهذا الوصف يصدق على المعنيين فيكون العمل متقناً ليس فيه إساءة، ويكون فيه معنى التكميل والتتميم والزيادة على القدر الواجب.

فالذي يؤدي العبادة على القدر الواجب بحيث لا يكون مسيئاً فيها؛ فهو قد أحسنها، والذي يكمل آدابها ومستحباتها فهو محسن إحساناً أبلغ من الإحسان السابق.

وهذا يدلك على أن الإحسان يتفاضل فيه الناس؛ فيكون عمل أحسن من عمل، وعبادة أحسن من عبادة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [١١/ ٧].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

وقال فضيل بن عياض: (﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾: أخلصه وأصوبه).

وقال: (العمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا؛ الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة).

فأول درجات الإحسان الإخلاص والمتابعة؛ لأن المشرك غير محسن، والمبتدع غير محسن، وبتكميل الإخلاص وتكميل المتابعة يحقق العبد مرتبة الإحسان.

والمتابعة تحفظ العبد من الغلو والتقصير

فأصبح من نواقض الإحسان في العبادة: الشرك، والبدعة، والغلو، والتفريط.

فالمشرك في عبادة الله تعالى شركاً أكبر أو أصغر غير محسن في عبادته بل هو مسيء غاية الإساءة.

والمبتدع غير محسن.

والغالي المتنطع غير محسن.

والمفرط المتساهل غير محسن.

فهؤلاء كلهم غير محسنين في أعمالهم.

واعلم أن المراد من العبد هو إحسان العمل، فكثرة العمل بلا إحسان من جهد البلاء، وقد قال الله تعالى في المشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المبتدعة: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال في الغلاة: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون» رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال للمسيء صلاته: ارجع فصلّ فإنك لم تصل.

وهذا يبيّن أن **الإحسان على درجتين من حيث حكمه:**

الدرجة الأولى: الإحسان الواجب، وهو أداء العبادة على القدر الواجب بإخلاص واتباع بلا غلوّ ولا تفريط.

فمن أدى العبادة على هذا الوجه فهو محسن الإحسان الواجب فيها.

والذي لا يؤدي هذا الإحسان ظالم لنفسه كما قسم الله تعالى الناس إلى فريقين لا ثالث لهما، **محسن** و**ظالم** لنفسه مبين، كما قال تعالى في خليله إبراهيم: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

وكل من المشرك والمبتدع والغالي والمفرّط قد وقعوا في ظلم أنفسهم.

الدرجة الثانية: الإحسان المستحب، وهو أداء العبادة بتكميل واجباتها ومستحباتها وتعظيم النية فيها لله جل وعلا، فيكون في العبادة قوة إخلاص ومتابعة فيؤديها كأنه يرى الله عز وجل، فمن أدى العبادة على هذا الوجه فهو محسن، وهذا هو الإحسان المراد هنا.

واعلم أن الإحسان في كل عبادة يكون بحسبها، **ويجمع ذلك أمران:**

الأمر الأول: الإخلاص لله تعالى، وهذا الأمر يتفاضل فيه المؤمنون تفاضلاً عظيماً، فالإخلاص عمل من أعمال القلوب التي يتفاضل الناس فيها كالمحبة والخوف والرجاء وغيرها.

الأمر الثاني: اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العبادة بأدائها بلا غلو ولا تفريط.

وهذا يكون في كل عبادة ومعاملة يراد بها وجه الله بحسبها.

١ : فإحسان الوضوء يكون بإسباغه وتكميل فروضه وآدابه وعدم مجاوزة القدر المشروع في عدد الغسلات كما في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء؛ فأراه ثلاثا ثلاثا، ثم قال: «هكذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»

فالزائد على القدر المشروع غير محسن، والمقصر عنه غير محسن، والموسوس غير محسن.

٢ : وإحسان الصلاة يكون بإقامتها وأدائها في أول وقتها، وتكميل واجباتها وآدابها وأن يصليها كأنه يرى الله عز وجل.

⇦ فمن أخل بأركانها وواجباتها فليس بمحسن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته:

«ارجع فصلّ فإنك لم تصل» متفق عليه.

والساهي عن الصلاة غير محسن، والذي لا يخشع في صلاته غير محسن.

- وفي صحيح مسلم عن عمرو بن سعيد بن العاص قال: كنت عند عثمان فدعا بطَهور فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرئٍ مسلمٍ يحضره صلاةٌ

مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم يُؤتَ كبيرة، وذلك الدهر كله».

وعن نافع مولى ابن عمر قال: سمعت ابن عمر يقول: أتى رجلٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا رسول الله حدِّثني بحديث واجعله موجزًا.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «صلِّ صلاةَ مودِّع؛ فإنَّك إن كنت لا تراه فإنه يراك، وأيّس مما في أيدي الناس تكن غنيًّا، وإياك وما يعتذر منه». رواه الطبراني والبيهقي في الزهد والخطيب البغدادي والضياء المقدسي وحسّنه الألباني.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «صل صلاة مودع كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك»

قال بكرٌ المزنيُّ: (إذا أردت أنْ تنفعَك صلاتُك فقل: لعلِّي لا أُصلِّي غيرها).

وكان من فقه بعض الصحابة رضي الله عنهم أنهم يخففون الصلاة إذا خافوا الوسواس كما روى الطحاوي في مشكل الآثار عن أبي رجاء العطاردي قال: قلت للزبير بن العوام رضي الله عنه: ما لي أراكم يا أصحاب محمد من أخف الناس صلاة؟

فقال: (نبادر الوسواس).

ويوضحه ما في الحلية لأبي نعيم عن أنس قال: كنّا إذا صلّينا خلفَ الزبير بن العوام فأخف الصلاة قلت: يا أصحاب محمد ما لي أراكم أخف الناس صلاة؟

قال: (إنا نبادر الوسواس، ولكنكم أهلَ العراق يطيل أحدكم الصلاة حتى يغيب في صلاته).

فالصلاة الموجزة التامة التي يحسنها صاحبها خير من الصلاة الطويلة التي لا يحسنها.

وبهذا تعلم أن المطلوب إحسان العمل لا كثرته

كما قال ابن القيم رحمه الله:

والله لا يرضى بكثرة فعلنا لكن بأحسنه مع الإيمان

فالعـــارفون مـــرادهم إحســـانه　　　والجـاهلون عمـوا عـن الإحسـان

فعملٌ قليل في إحسان خير من كثير غير حسن.

٣: والإحسان في الإنفاق يكون بأدائه احتساباً لله عز وجل خوفاً وطمعاً لا يريد ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً، ولا يُتْبِعُ نفقتَه منًّا ولا أذى؛ ففي النفقة عملان عمل للقلب وعمل للجوارح؛ فعمل القلب ألا يريد بالنفقة إلا وجه الله تقرباً إليه خوفاً وطمعاً، لا يريد ممن أنفقه عليهم جزاء ولا شكوراً.

كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

وقال عن عباده الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ❖ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ❖ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾

والإحسان إلى الناس خوفاً من الله عز وجل يطهر القلب من العجب والغرور والتعالي بالنفقة والمفاخرة والمباهاة بها؛ وبهذا تعلم أنه ليس كل منفق محسناً، بل من الناس من ينفق الأموال الكثيرة في وجوه الخير وتكون وبالاً عليه وعذاباً يعذّب به، لفساد قصده ونيّته، وفساد سلوكه في الإنفاق، وكل ذلك مخالف للإحسان.

فمما يفسد النية في الإنفاق: **الرياء** و**الفخر** و**العجب** و**التعالي**.

ومما يبطل ثواب الصدقة: **المنّ** و**الأذى**، والمنّ من الأذى لأن الذي يُمنّ عليه يتأذى بذلك، وفيه أيضاً سوء أدب مع الله عز وجل.

والأذى في الإنفاق أنواع:

– **منه** المنّ وهو أعظمها وهو من كبائر الذنوب، والذي ينظر إلى أن ماله منّة مِنَ الله تعالى عليه، استخلفه فيه لينظر كيف يعمل في هذه الأمانة لا يمنّ بإنفاقه، وإنما يمنّ من غفل عن هذا الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

- **ومن الأذى في الإنفاق**: المماطلة فيه، والتعالي بالنفقة على المحتاج، والتعسير عليه في أخذها، حتى لا يكاد يأخذ المحتاج حقَّه إلا بشق الأنفس.

وقد قيل:

وأفضلّ البرِّ ما لا مَنَّ يتبعه ... ولا تقدَّمه شيء من المطَل

- **ومن الأذى**: أن يخرج ما تعافه نفسه من رديء ما يملك، وقد أمر الله بالإنفاق من طيب المال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

وقد وعد الله تعالى المحسنين في الإنفاق بالفضل العظيم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾

وهذا المثل من أبلغ الأمثلة وأعظمها عبرة، والعرب تشبّه قليل الخير والبركة من الناس بالصفا الأصلد الذي لا ينبت كلأً ولا يوري ناراً.

قال تأبط شراً:

وَلَستُ بجلبٍ جلبِ ريحٍ وقرَّةٍ ... وَلا بصَفاً صَلدِ عَنِ الخَيرِ معزل

الجِلْبُ: هو السَّحَاب المعترض كأنه جَبَل، يُرى عظيماً ولا ماءَ فيه ولانفع، وإنما يجلبُ الريح والبرْد، ويُضْرَبُ مثلاً للذي يَعِدُ الوعود العظيمة وهو في حقيقة الأمر يؤذي ولا ينفع.

كما قال نهشل الدارمي:

كَجِلبِ السوءِ يُعْجِبُ مَنْ رَآهُ ... وَلا يَسْقِي الحَوائِم مِن لَمَاقِ

الحوائم: الطيور الحائمة، واللَّماق: المُذْقَة اليسيرة.

والشاهد قوله: (ولا بصفا صلد عن الخير معزلِ)

والصفا الصلد هو: الحجر الكبير الصلب الأملس لا ينبت كلأ ولا يوري ناراً، تجعله العرب مثلاً للرجل الذي لا ينتفع به.

ومما يوضح هذا المعنى قول الحطيئة:

لا يُبعِدِ اللهُ مَن يُعطي الجزيـلَ ومَن ... يَحبو الجَليـلَ وما أَكْدَى وَلا نَكدا

وَمَــن تُلاقيــهِ بِــالَمعروفِ مُبتَهِجــاً ... إذا اجرَهَـدّ صَـفا الَمذمُومِ أَو صَـلَدا

وقال الأصمعي: (صَلَدَ الزّنادُ إذا صَوَّت ولم يخرج ناراً).

فقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾

أي إن مثل هذا المنفق المغترّ بنفقته، ويظنّ أنها تنفعه، وهو قد أبطلها بالمن والأذى كمثل صفوان صلد لا نفع فيه ولا خير، إذْ كان ما فعله من الخير باطلاً، وإنما هو كتراب غطّى الصفوان فلما أصابه المطر تبيّنت حقيقته وبقي صلداً.

فهذا مَثَل المسيء في نفقته، وأما مثل المحسن فكما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

نسأل الله من فضله.

وتأمَّل كيف شبَّه الله تعالى آياته ومواعظه بالماء الذي إذا نزل على مكان طيّب صالحٍ للنبات قد ثُبّت غرسه فإنه ينفعه ويثمره وينميه، وأما الصفوان الأصلد الذي غطي بالتراب فإنه يكشفه على حقيقته ويعرّيه.

= فالمحسن في نفقته كالذي يغرس في جنة طيبة مباركة، قد ثبت غرسها تثبيتاً حتى استقر في تلك الأرض الطيبة فكان ما يصيبها من الماء نافعا لها منبتاً لغرسها حتى ينمو نباتها ويؤتي ثماره ضعفين.

فانظر إلى اختلاف آثار آيات القرآن الكريم على قلوب العباد فمنتفع بها مبارك له فيها، ومحروم من بركتها معذّب بها، والعياذ بالله.

٤. وإحسان الجهاد قد جمع الله صفاته في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾

فدلت هذه الآيات على أن المجاهد الذي تتحقق فيه هذه الأوصاف من المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل.

فهؤلاء حملهم الصبر على عدم الوهن والضعف والاستكانة.

وحملهم اليقين على تحقيق الاستعانة بطلب التثبيت والنصر من الله، وقدموا الاستغفار ليقينهم بأنهم إن خذلوا فإنما خذلانهم من قبل أنفسهم بتفريطهم وتقصيرهم ومخالفتهم هدى الله فيما وصاهم به، فاستغفروا الله تعالى من الأسباب الموجبة للخذلان.

فمن قام بهذه الأمور فهو محسن في جهاده، وقد وعد الله من كان هذا حاله بثواب الدنيا والآخرة، وأخبره بأنه ممن يحبهم، وهذه المحبة لها لوازمها وآثارها وفضلها العظيم الذي لا يقدر قدره إلا الله عز وجل، فيكفي تنبيهاً على فضلها العلم بها، وَسَرِّح نظرك في معاني هذه المحبة وآثارها وفضائلها تجدها تجمع من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ما لا يبلغه وصف واصف، ولا يحيط به خيال متخيّل.

وغاية مطالب السالكين وأشرف مقاماتهم أن يكونوا من المحسنين الذين يحبهم الله تبارك وتعالى.

فهؤلاء المجاهدون المحسنون الذين يطيقون الجهاد في سبيل الله عز وجل

➢ وأما الذي لا يطيق الجهاد لضعف أو مرض أو قلة نفقة فإنه إذا كان ناصحاً لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، أي جامعاً لمعنى الصدق والإخلاص: إخلاص القصد لله عز وجل، والصدق في محبة الله عز وجل ونصرة دينه وإعلاء كلمته، لا ينطوي قلبه على غش ولا تخاذل عن نصرة دين الله عز وجل متى استطاع إلى ذلك سبيلا، ولا يؤثر القعود وهو يستطيع، وعلم الله من قلبه ذلك فهو من المحسنين

كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٩١)﴾

فإحسان هؤلاء هو النصيحة لله عز وجل، وهذه المرتبة من الإحسان ممكنة للمحسنين في كل وقت، ولا تكلفهم أكثر من إخلاص القصد وصدق العزيمة، وإنما يحرم خيرها وفضلها من حُرم.

= ويخطئ بعض من يستدلُّ بهذه الآية على أن المحسن هنا هو المنفِق؛ وأشنع منه خطأ من يستدل بها على أن كل منفق محسن، وهذه الآية نصٌّ في وصف الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون بأنهم محسنون بشرط النصيحة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

❑ ٤: أبواب الإحسان

واعلم أن أبواب الإحسان كثيرة، ومن شأن المحسنين أن يتحروا الإحسان في العبادات والمعاملات على الوجه الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه مخلصين لله عز وجل، متبعين لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الذي هديه أحسن الهدي في كل شيء، فلا إحسان إلا باتباع هديه، ولا إحسان أحسن من هديه، بل من جاوز هديه فهو غالٍ غير محسن كما أن من فرّط في اتباع هديه فهو جافٍ غير محسن.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إن أحسن الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه و سلم).

فمدار الإحسان على تكميل الإخلاص والمتابعة.

والتفقه في هدي النبي صلى الله عليه وسلم لنتعلم منه أوجه الإحسان في العبادات والمعاملات هو سبيل معرفة الإحسان.

وذلك أن هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فطهوره أحسن الطهور، وصلاته أحسن الصلاة، وإنفاقه أحسن الإنفاق، وصيامه أحسن الصيام، وحجه أحسن الحج، ومعاملته للناس أحسن المعاملة وهكذا في كبير الأمور وصغيرها.

ثم أصحابه من بعده هم أحسن الناس هدياً بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم، وأقربهم منه منزلة وأفقههم في دين الله عز وجل.

وأولاهم بالاتباع من شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان وأمر باتباع سنتهم وهديهم كالخلفاء الراشدين الذين قال فيهم: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسّكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». رواه أحمد وأبو داوود.

ومن أئمة المحسنين الذين ورد في شأن إحسانهم أحاديث وآثار: الخلفاء الأربعة ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين وعمرو بن الأسود وعمر بن عبد العزيز وآخرون رضي الله عنهم أجمعين.

ومعرفة سير المحسنين والتعرف على هديهم وأخبارهم وآثارهم مما يعين على فهم معنى الإحسان، والاتساء بهم فيما أحسنوا فيه، وقد بوّب البخاري باباً في صحيحه في كتاب الأدب سماه: (باب في الهَدي الصالح).

ومن تحرَّى الإحسان وحرص عليه وسأل الله تعالى الإعانة عليه؛ رُجي له أن يوفق للإحسان، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلّم، ومن يتحرّى الخيرَ يُعْطَه، ومن يتوقّى الشر يُوقه).

وأبواب الإحسان كثيرة، ففي صحيح مسلم من حديث شداد بن أوس بن ثابت رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيء؛ فإذا قتلتم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وَلْيحدّ أحدُكُم شَفْرَتَهُ وَلْيُرِح ذبيحَته».

فالإحسان مكتوب على كل شيء، وإحسان كل شيء بحسبه، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هنا الإحسان في الذبح، فمن خالف هديه فلم يحدّ السكين ولم يرح ذبيحته فليس بمحسن في ذبحه.

وهذا مما يبيّن أهمية الفقه في الدين فإنه به يعرف طالب الإحسان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات؛ فيعرف هديه في الوضوء والصلاة والصدقة والصيام والحج والجهاد والبيوع والطعام والشراب والنوم والنكاح والمعاشرة والبرّ والصلة ومعاملة الناس على اختلاف أصنافهم، وهكذا في سائر الأمور.

وبيان النبي صلى الله عليه وسلم لهديه على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يبين ذلك بفعله، وينقل عنه، كما قال: «صَلّوا كما رأيتموني أصلي» وقال: «خُذوا عني مناسككم» فما فعله النبي صلى الله عليه وسلم فهو أحسن الهدي لنا ما لم يكن ذلك مختصّا به، لا يحق لأحد أن يفعل مثله، كالزواج بأكثر من أربع نساء.

النوع الثاني: ما بيّنه بقوله.

النوع الثالث: ما بيّنه بإقراره.

وإذا تأملت أبواب الإحسان وجدتها كثيرة في العبادات والمعاملات، **ويجمعها أمران** كما تقدم:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، بأن يؤديها كأنه يرى الله تعالى فإن لم يكن يراه فإن الله يراه.

الثاني: اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العبادة.

وهذان الأمران لا ينالهما العبد إلا بإعانة الله عز وجل وتوفيقه، وحاجة العبد إلى هذه الإعانة متكررة دائمة، كما دلّ على ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أَنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَخذ بيدِهِ، وقال: «يا مُعَاذُ، واللهِ إني لأُحِبُّكَ»

فقال: «أُوصيكَ يا معاذُ، لا تَدَعنّ في كلّ صلاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهمّ أَعِنّي على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِكَ». رواه أحمد وأبو داوود والنسائي، وفي رواية النسائي: قال مُعَاذٌ: (وَأَنَا أُحِبُّكَ).

فهذا الحديث يدل على أن حاجة العبد إلى سؤال إحسان العبادة دائمة متكررة، لا يستغني عن ذلك أبداً، ومن فقه ذلك فقه افتقاره إلى الله تعالى في كل وقت.

ومعاذ بن جبل رضي الله عنه من أئمة المحسنين ومما وصاه به النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه هنّاد بن السري في الزهد وابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني في الكبير وغيرهم عن محمد بن عمرو بن علقمة قال: حدثنا أبو سلمة قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله أوصني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك مع الموتى، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وإذا عملت السيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية»

«وأخبرك بما هو أملك بك من ذلك؟»

قال: يا رسول الله وما هو؟

قال: «هذا» وأشار إلى لسانه.

قال معاذ: يا رسول الله هو ذا وأشار إلى لسانه

قال: «وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا هذا».

وأبو سلمة هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف لم يدرك معاذ بن جبل، فالإسناد فيه انقطاع لكنه له شواهد يحسّن بها، وقد حسنه الألباني، وأورده في السلسلة الصحيحة.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فأصاب الناس ريح فتقطعوا، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس

من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لأغتنمن خلوته اليوم، فدنوت منه فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني - أو قال - يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟

قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير».

قلت: أجل يا رسول الله.

قال: «الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل يبتغي به وجه الله»، ثم قرأ الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.

ثم قال: «إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه».

قلت: أجل يا رسول الله.

قال: «أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد، وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله».

قلت: ما هو يا رسول الله؟

فأشار بإصبعه إلى فيه.

فقلت: وإنا لَنُؤَاخَذَ بكل ما نتكلم به؟!

فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يُكِبُّ الناسَ على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم، وهل تتكلم إلا ما عليك أو لك؟!».

هذه رواية البيهقي، والحديث رواه أبو داوود الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجه وغيرهم من طرق وبألفاظ متقاربة، إلا أن سياق البيهقي من أتمها.

- قال يونس بن عبيد: (لا تجد من البرّ شيئاً واحداً يتبعه البرُّ كلُّه غير اللسان؛ فإنّك تجد الرجل يكثر الصيام ويفطر على الحرام، ويقوم الليل ويشهد بالزور بالنهار - وذكر أشياء نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق؛ فيخالف ذلك عمله أبدا).

❑ ٥: طرق معرفة الإحسان:

ورد بيان معنى الإحسان في القرآن الكريم والسنة النبوية وهدي السلف الصالح.

١ : فأما بيان القرآن لمعنى الإحسان ففي قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فالدعاء هنا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

ومن قام بهذه الأمور التي أمر الله عز وجل بها فهو من أهل الإحسان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيهٌ ظاهرٌ على أن فِعْلَ هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريبٌ من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفيةً وخوفًا وطمعًا.

فَقَدْرُ مطلوبكم منه - وهو الرحمة - بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالةٌ بمنطوقه ودلالةٌ بإيمائه وتعليله ودلالةٌ بمفهومه:

- **فدلالته بمنطوقه** على قرب الرحمة من أهل الإحسان.
- **ودلالته بإيمائه** وتعليله على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، وهو السبب في قرب الرحمة منهم.
- **ودلالته بمفهومه** على بعده من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة؛ وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة لأنها إحسانٌ من الله عز وجل أرحم الراحمين وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته.

وأما من لم يكن من أهل الإحسان؛ فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بُعْدٌ بِبُعْدٍ وَقُرْبٌ بقُرْب؛ فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته.

والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيءٍ منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيءٍ منه.

والإحسان هاهنا هو فعل المأمور به سواءٌ كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه؛ فأعظم الإحسان: الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالًا ومهابةً وحياءً ومحبةً وخشيةً؛ فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - وقد سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان - ؛ فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»

فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريبٌ من صاحبه؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه).ا.هـ

وهو من نفيس ما كتب رحمه الله، وهو من رسالة له في تفسير هاتين الآيتين، وما تضمنتاه من آداب الدعاء بنوعيه.

فهاتان الآيتان من سورة الأعراف في بيان معنى الإحسان في العبادة عموماً.

وقد جاء وصف الإحسان في القرآن في بعض المواضع بصفات مخصوصة؛ كما سبق بيان معنى الإحسان في الجهاد لمن يطيقه ولمن لا يطيقه.

وجاء بيان معنى الإحسان في الابتلاء بأنه يكون بالصبر والتقوى كما قال يوسف عليه السلام: ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فالإحسان عند البلوى، يكون بالصبر والتقوى.

وورد في القرآن الكريم بيان معنى الإحسان في ذبح الهدي وتوزيعه فقال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ

جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾.

والإحسان عند سماع خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم هو التصديق والتسليم وأن لا يكون في صدر المؤمن حرج من ذلك كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

فهؤلاء قد أحسنوا في تصديقهم.

وهذا الباب لو تأمله من يتدبر القرآن الكريم لعرف به أبواباً من الإحسان، وعرف في كل باب خصال الإحسان التي يحبها الله عز وجل.

والمؤمن في جميع أحواله لا يخلو من حالة تختص ببعض خصال الإحسان الذي يحبه الله حتى في أكله وشربه ونومه ومعاشرته ومزاحه وبيعه وشرائه وقضائه لشؤونه.

٢: وقول النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قد جمع في هذه العبارة الموجزة الغنية بلوازمها وآثارها ما يكفي اللبيب في معرفة معنى الإحسان الذي يحبه الله.

فيلزم من ذلك لوازم لا تحيط بها العبارة ولا يحصرها العاد، ولذلك اكتفى النبي صلى الله عليه وسلم في بيانها بقوله: «كأنك تراه».

قال النووي رحمه الله: (قوله صلى الله عليه و سلم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، لأنا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا

أتى به ؛ فقال صلى الله عليه و سلم : اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان ؛ فإنّ التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ؛ فلا يقدم العبد على تقصيرٍ في هذا الحال للاطلاع عليه ، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ؛ فينبغي أن يعمل بمقتضاه ؛ فمقصود الكلام الحثّ على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك ، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشيء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم ؛ فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه في سره وعلانيته).

⇦ والخلاصة أن **معنى الإحسان يعرف بأمور:**

الأمر الأول: بيان القرآن الكريم لمعنى الإحسان العام والإحسان في الأمور التي بيّنها الله عز وجل في كتابه.

الأمر الثاني: بيان النبي صلى الله عليه وسلم لمعنى الإحسان بهديه العملي والقولي والإقراري.

الأمر الثالث: تأمل سير أئمة المحسنين ، والاهتداء بهديهم فيما أحسنوا فيه.

❑ ٦: معاني لفظ الإحسان في النصوص:

لفظ الإحسان يطلق في النصوص على **معان:**

المعنى الأول: إحسان العمل وإتقانه ، فمن أتى بالعمل على وجه حسن فهو محسن.

المعنى الثاني: فعل الحسنات ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فالإحسان الأول غير الإحسان الثاني.

وقال تعالى : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ والذي يجيء بالحسنة محسن ، ودرجته في الإحسان بحسب استكثاره من الحسنات.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

المعنى الثالث: البر والإنعام إلى المخلوقين في كل مقام بحسبه قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، و﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

ويكثر - عند إرادة هذا المعنى – أن يُعَدَّى لفظ الإحسان بالباء أو اللام أو إلى، كما في الأمثلة السابقة.

وهو يصدق على الإحسان بالمال والجاه والعلم والبدن وغيرها من أوجه الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ لفظ الإحسان فيه متضمن لمعنى العناية، ولذلك عدي بحرف الباء.

ويطلق لفظ الإحسان ويراد به ما يشمل هذه المعاني كلها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

❒ ٧: والإحسان يكون بالقلب واللسان والجوارح:

١ : فأما إحسان القلب فهو أصل إحسان سائر العبادات، فالعبادات القلبية الحسنة يظهر أثرها على اللسان والجوارح.

ويدل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه» وهذا عمل قلبي.

ومتى تحقق العبد بهذا الوصف وقام بحقه أحسن العبادات الباطنة والظاهرة.

فلذلك كان الأصل في مرتبة الإحسان العبادات القلبية من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والخشية والإنابة والتوبة وغيرها.

وهذه العبادات من أحسنها أفلح وفاز فوزاً عظيماً

والإحسان فيها على **درجتين**:

الدرجة الأولى: الإحسان الواجب، وهو ما تصح به هذه العبادات وتسلم به من الشرك والبدعة والغلو والتفريط.

الدرجة الثانية: الكمال المستحب، وهو المراد هنا، وهو مضمار تسابق أولياء الله المحسنين، وتفاضلهم فيه كبير عظيم وهم فيه على درجات ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

ومما يدل على أن هذه العبادات القلبية منها واجب ومستحب ما رواه مسلم وأبو داوود النسائي وغيرهم عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا؛ فقالت: يا نبي الله أصبتُ حداً فأقِمْهُ عليّ؛ فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليّها فقال: «أحسن إليها؛ فإذا وَضَعَت فأتِنِي بها».

ففعل: فأمر بها نبي الله فشُدّتْ عليها ثيابها، ثم أَمَرَ بها فرُجِمَت؛ ثم صلَّى عليها؛ فقال له عمر: (تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟!)

قال: «لقد تابت توبة ً لو قُسِّمَت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم!، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!».

والتوبة من الزنا واجبة، وهذه الصحابية رضي الله عنها تابت توبة تزيد على التوبة الواجبة بسبعين ضعفاً!

فهي قد أحسنت التوبة بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم لها، وكان يجزئها من توبتها جزء من سبعين جزءاً؛ فكان ما زاد على ذلك قربة لها ونافلة مستحبة متقبلة.

والتوبة الحسنة التي يحبها الله هي التوبة النصوح التي أمر الله عز وجل بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

والتوبة النصوح هي الصادقة الخالصة لله عز وجل التي يتوبها العبد خوفاً وطمعاً، خوفاً من عقاب الله وطمعاً في مغفرته وثوابه، ويلزم لصحتها الندم على فعل الذنب، والاعتراف به، والإقلاع عنه لله جل وعلا، والعزم الصادق على أن لا يعود إليه أبداً.

فمن فعل ذلك فقد أحسن التوبة.

فتبيّن أن التوبة النصوح تقوم على أمور يتفاضل التائبون في تحقيقها تفاضلاً عظيماً، ﴿والله يحب التوابين﴾ ؛ فاللهم إنا نسألك توبة نصوحاً.

وتفاضل العبادات القلبية يكون في أمرين:

الأمر الأول: قوة الاحتساب والإتيان بالعبادات القلبية، كما يتفاضلون في المحبة والخوف والرجاء وغيرها من العبادات.

الأمر الثاني: تعدد المقاصد الحسنة في الأعمال التي يعملها العبد، حتى إن من بركات الإحسان أن يعمل العبدُ العملَ الواحد يكون له فيه مقاصد حسنة متعددة فيثاب عليها جميعاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

٢ : وأما الإحسان بالقول فهو أن يتحرى العبد القول الحسن الطيب الذي يحبه الله في كل شؤونه.

فإذا ذكر الله بلسانه أحسن الذكر، وإذا وعظ أحسن الموعظة، وإذا دعا أحسن الدعوة، وإذا علّم أحسن التعليم، وإذا نصح أحسن النصيحة، وإذا تحدث مع الناس أحسن الحديث إليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

وكل أمر من هذه الأمور تجدون في القرآن العظيم وهدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بيانَ خصالِ الإحسان فيها.

فالمحسنَ مَهديٌّ للقول الطيب الحسن الذي يحبه الله، فيوطن نفسه ألا يتكلم إلا بخير، وألا يقول إلا قولاً حسناً، وهو أولى الناس باتباع وصية النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

ومن ثمرات هذا الإحسان وبركاته أن يكون المحسن محبوباً لدى الناس، مقبول القول لديهم، وما ذلك إلا لاتباعه هدى الله في معاملة الناس والتحدث إليهم، فلا يقول إلا ما يحبه الله من القول الحسن، ومن كان حاله كذلك فهو محسن إلى الناس كافّ أذاه عنهم، قاطع على الشيطان عمله في الإفساد والنزغ بينه وبين من يحدثهم.

وبهذا تعلم أن من يؤذي الناس بلسانه فهو من أبعد الناس عن الإحسان، كما روى الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله إنّ فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدّق وتؤذي جيرانها بلسانها!

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لا خير فيها هي من أهل النار».

قالوا: وفلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثوار ولا تؤذي أحداً.

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «هي من أهل الجنة».

الأثوار جمع ثور وهو قطعة من الأَقِط، وفي رواية الحاكم: (وتتصدق بأثوار من أَقِط).

وفي سنن الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذي».

والإساءة في القول نقيض للإحسان، وأنواع الإساءة في القول كثيرة، منها: قول الزور والبهتان والكذب والغيبة والنميمة والإيذاء والفحش والبذاءة واللغو والإلحاف في السؤال. فالذي يقع في هذه المساوئ غير محسن، والإساءة في القول ترجمان لسوء في القلب.

وليعلم أن الغلظة في القول في مواضعها ليست من الإساءة، بل هي من الإحسان الذي يحبه الله.

والأقوال الحسنة متفاضلة، وأحسنُ القول وَصَفَه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فالداعي إلى الله الذي يعمل الصالحات ويعلن انتسابه للإسلام ويعتز به من أهل الإحسان في القول.

وبه تعلم أن الداعي إلى الضلالة والصد عن سبيل الله أسوأ الناس قولاً، والذي يخالف عملُه قولَه غير محسن، بل هو مسيء بمخالفته.

ومن سمات المحسنين حرصهم على القول الحسن في مواضع تأكده وجوباً أو استحباباً، كأن يترتب على القول الحسن نصرة حق في موقف يحتاج فيه إلى كلمة حق ناصرة، أو دفاع عن مظلوم فينصره بكلمة حق، أو ذبٍّ عن عرض مسلم، أو إصلاحٍ بين الناس، أو صَدِّ فساد عن المسلمين، أو غير ذلك من المواقف التي ربما تكون كلمة حسنة تقال فيها سبباً لسعادة العبد وفلاحه، كما قال الله تعالى عن الذين عرفوا الحق وشهدوا به: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم».

والمقصود أن **إحسان القول على ثلاث درجات:**

الدرجة الأولى: تجنب القول السيئ الذي يبغضه الله عز وجل وأسوؤه قول الشرك بالله عز وجل والصد عن سبيله وقول الزور والغيبة والنميمة والفحش والبذاءة وغيرها.

وقول الفُحْشِ في اللغة يعمّ قول الخنا المستقذر والسباب المقذع

قال النابغة يمدح امرأة:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تُفْحِش على جار

وقال سلمة بن الخرشب الأنماري رداً على عامر بن الطفيل:

وإنك يا عام بن فارس قرزل معيد على قيل الخنا والهواجر

عام: ترخيم لاسم عامر، وهو عامر بن الطفيل كان قد شبب بأسماء الفزارية بقول سيء وأقذع في سب قومها لما فرّ هارباً من وقعة المرورات وهو من أيام الجاهلية، وعامر هذا هو صاحب الغَدَرَات الذي قتل أصحاب بئر معونة رضي الله عنهم وهم من قراء الصحابة وخيارهم.

والشاهد قوله: (معيد على قيل الخنا والهواجر) الهواجر من القول هو السباب المقذع، والخنا هو القول الماجن، وكلا النوعين من فاحش القول.

الدرجة الثانية: الإتيان بالقول الحسن الواجب، في حق الله عز وجل وفي حق الناس، فأما القول الحسن في حق الله عز وجل فأحسنه وأوجبه كلمة التوحيد، ثم ما يجب عليه من الأذكار الحسنة والأدعية الواجبة في الصلاة وفي غيرها، وما يجب عليه من الأقوال الحسنة في حق الناس، وأحق الناس بالقول الحسن الوالدين كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي طيباً حسناً.

ومما يجب من القول الحسن: رد السلام، وبيان الحق عند وجوب بيانه، ونصرة الحق، والذب عن عرض المسلم، وغيرها من المواطن التي يجب فيها القول الحسن مع الاستطاعة.

الدرجة الثالثة: القول الحسن المستحب، وهذه الدرجة مترتبة على الدرجتين السابقتين.

وهو يشمل نوافل الأقوال الحسنة من التلاوة والذكر والدعاء والدعوة إلى الله تعالى، وما يندب إليه من الإحسان إلى الناس كتعزية المصاب بقول حسن، وتثبيت المبتلى، وإعانة

المستعين، ومكافأة صانع المعروف، وغيرها من الأقوال الحسنة المستحبة التي من أداها مع ما قبلها فهو من أهل الإحسان في القول.

٣: وأما إحسان العمل فهو من أثر إحسان عمل القلب، وإحسان القول، والأعمال الحسنة **على نوعين**:

النوع الأول: العبادات العملية فهذه أداؤها على وجه حسن بإخلاص واتباع بلا غلو ولا تفريط هو الإحسان المطلوب؛ فمن كان هذا دأبه في عباداته فهو من أهل الإحسان فيها، ويتفاضل المحسنون في هذه المرتبة تفاضلاً عظيماً.

النوع الثاني: معاملة الناس، والإحسان في معاملة الناس على **ثلاث درجات**:

الدرجة الأولى: كف الأذى، فالذي لا يكف أذاه عن الناس فليس بمحسن، بل هو من أبعد الناس عن الإحسان، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

الدرجة الثانية: أداء الحقوق الواجبة، وأخصها حق الوالدين وحق الأرحام والجار، ومن بينه وبينه معاملة تقتضي حقاً خاصاً كالشركاء من حق بعضهم على بعض الصدق والبيان، وحق المؤتمن على الأمانة أن يؤديها، وحق المشتري على البائع أن لا يغبنه في سعرها وأن يبيّن له عيبها إن كان فيها عيب، ونحو ذلك من الحقوق الواجبة.

التي من لم يؤدها فهو مسيء غير محسن.

فالعاقّ والقاطع والغاشّ والمخادع والخائن والمختلس والسارق مسيؤون غير محسنين.

فمن كف أذاه عن الناس وأدى الحقوق الواجبة فهو محسن الإحسان الواجب.

الدرجة الثالثة: الإحسان المستحب، وهو أنواع ويجمعه أنه ما زاد على القدر الواجب من وجوه الإحسان وهي كثيرة متنوعة فالصدقة إحسان، والكلمة الطيبة إحسان، وتبسمك في وجه أخيك إحسان إليه، وتوسعة المجلس له إحسان، وكل هذه الأعمال الحسنة يثاب عليها العبد إذا احتسب فيها نية صالحة.

واعلموا أن هذه الكلمات وإن استطالها من استطالها فهي مختصرة ملخصة من أبواب قد أفرد جماعة من أهل العلم في بعضها كتباً أو مباحث في كتبهم، فلا يستطل طالب العلم

هذه المباحث الملخصة، وقد اختصرتها لكم لتكون معينة على مواصلة الطلب إذا ضبطت هذه المسائل الملخصة.

ووراء كل مسألة ما وراءها من التفصيلات والأدلة والآثار والأخبار والأمثلة والقصص التي طويت ذكرها اختصاراً، وإنما ذكرت ما أحسب أنه يفي بالغرض في هذا المقام.

وهذه المسائل لخصتها لنفسي ولإخواني طلاب العلم، ورب واصف دواء هو أحق به، لكن واجب أداء أمانة التعليم تقتضي أن أبيّن لكم في كل باب ما أحسب أنه ينفع طلابه، والله المسؤول أن يمنّ علي وعليكم بتوبة من عنده، وأن يغفر لنا خطيئاتنا وجهلنا وإسرافنا في أمرنا وخطأنا وعمدنا وهزلنا وجدَّنا وكل ذلك عندنا.

❐ ٨: سمات المحسنين:

مما يعين على بلوغ مرتبة الإحسان أن يتعرف طالب هذه المرتبة على سمات المحسنين وهديهم ودلِّهم، ألا ترى أن طالب كل صنعة ينظر إلى أربابها المبرزين فيها فيرتسم طرائقهم ويحذو حذوهم حتى يعدَّ منهم.

فكذلك طالب الإحسان ينبغي له أن يتعرف على سمات المحسنين ويصحبهم أحياء وأمواتاً فأما المحسنون الأحياء فهم من أندر الموجود بل هم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وحيثما وجد واحد منهم فصحبته غنيمة عظيمة لأنه قدوة صالحة يتمثل بها.

وكم قد سمعنا من بعض مشايخنا مواقف رأوها في صحبتهم لمشايخهم ولبعض الصالحين كان لها أثر بالغ في نفوسهم، حتى إن منهم من إذا ذكر بعض أولئك لا يكاد يتمالك نفسه من البكاء لقوة ما أثرت فيه تلك المواقف، وكانت أبلغ من دروس نظرية كثيرة يتلقاها العبد وقلبه غافل عن عقل معانيها كما ينبغي.

وأما الأموات فسير كثير منهم محفوظة مسطرة من تأملها وفقه آثارهم ومآثرهم تجلَّت له بعض معاني الإحسان بمفهومه العام الواسع الذي يشمل جميع شؤون العبد في عباداته

ومعاملاته ويجمعه ما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في كلمته الجامعة الماتعة: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقد تأملت سمات المحسنين الجامعة لهم فوجدت أن **أهمها وأظهرها:**

١: الصدق والإخلاص.

٢: النصيحة لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين.

٣: السكينة.

٤: البعد عن التكلف.

٥: تركهم ما لا يعنيهم.

وقد طويت شرحها اختصاراً.

❑ ٩: تيسير الإحسان.

واعلم – أحسن الله إليك – أن بلوغ مرتبة الإحسان يسير لمن يسّره الله له، والموفّق لها من وفّقه الله، ومن أدلة ذلك أن الله تعالى أمر بالإحسان فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

ورغّب في الإحسان وحثّ عليه، وما جعل الله في الدين من حرج، وما كان الله ليعسِّرَ على عباده ما يرغبهم فيه، حتى يكونوا هم الذين يأتون من أسباب الخذلان ما يُحْرَمون بسببه التوفيق لبعض أعمال الإحسان.

ومن أعظم أسباب التوفيق لها: تعظيم أوامر الله، وشكر نعمه، وكثرة ذكره، والمجاهدة.

فأما تعظيم أوامر الله عز وجل فإنه علامة على تقوى القلب كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

وأما شكر النعمة فإن الله تعالى يحب الشاكرين ويوفقهم لما يحبه لهم، ولمّا اعترض المشركون على هداية ضعفاء المؤمنين قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

وأما كثرة الذكر فتجلي القلب، وتطرد الشيطان، وتزيد محبة الرب جل وعلا في قلب العبد، ومحبة الرب جل وعلا لعبده، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فلا يزال العبد يذكر الله بقلبه ولسانه حتى يوفق للإحسان.

ولذلك لما وصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأحب له مرتبة الإحسان وأخبره بمحبته له كما في سنن النسائي من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي عن الصنابحيّ عن معاذ بن جبل قال: أخذ بيدي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال: «إني لأحبكّ يا معاذ».

فقلت: (وأنا أحبك يا رسول الله).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فلا تدع أن تقول في كل صلاة ربّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

والذكر والشكر عبادتان، لكن قدما لأنهما من أسباب التوفيق لحسن العبادة.

ومن جاهد لبلوغ هذه المرتبة وتحراها فحري أن ينالها وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾.

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه وهو من الأربعة الذين أوصى معاذ بن جبل عند موته بالتماس العلم عندهم: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه)، وقد روي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورجح الحفاظ وقفه على أبي الدرداء رضي الله عنه.

وليس من شرط بلوغ مرتبة الإحسان أن يكون العبد مكثراً من الأعمال، وإنما المطلوب إحسان العمل بأداء الفرائض والتقرب بما يتيسر من النوافل بلا تنطع ولا تفريط.

ولا يستطيع العبد إحصاء الأعمال الصالحة كلها والإتيان بها، كما في مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة من حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن».

وقد نُقِلَ عن جماعة من السلف في بيان فضل بعض المحسنين أنهم لم يسبقوا بكثر صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلوبهم.

وليس من شرط المحسن أن تكون جميع أعماله حسنة، بل إذا كان الغالب على شأنه الإحسان ومقاربته فهو من أهل الإحسان إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدْخِل أحداً الجنةَ عملُه».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بمغفرةٍ ورحمة».

فالسداد هو الإحسان، والمقاربة هي مقاربة الإحسان.

بل ليس من شرط المحسن أن يكون معصوماً من الذنوب، فقد يقع في الذنب كثير من المحسنين لكنهم منيبون توّابون إذا عملوا سيئة أتبعوها حسنة فمحتها، السرُّ بالسر والعلانية بالعلانية، كما أرشد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بذلك في الحديث المتقدم ذكره، وفي الحديث الآخر:

«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

والتوبة من العمل غير الحسن مشروعة متقبلة ولذلك يشرع للعبد أن يستغفر الله تعالى بعد أداء العبادة كما ورد في الصلاة والحج وغيرها لما قد يقع في عبادته من التقصير في إحسانها، فالاستغفار ونوافل العبادات مما يجبر به تقصير العبد في عبادته.

والإحسان أعلى مراتب الدين، والمحسنون فيه متفاضلون وأعلاهم مرتبة الصديقون.

وقد زعم بعض الصوفية أن فوق مرتبة الإحسان مرتبة وهي مرتبة الفَناء وله تفسيرات وأنواع عندهم منها ما هو مقبول إذا فسّر تفسيراً صحيحاً، ولا يجاوز في حقيقته مرتبة الإحسان، ومنها ما هو ضلال مبين.

❑ قوله: (**وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿إِنّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتّقَوا وَالّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ومَنْ يَتوَكّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].
- **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (٢١٧) الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلّبُكَ فِي السّاجِدِينَ (٢١٩) إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].
- **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَانٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنّا عَلَيكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]).

هذه أدلة من القرآن الكريم لبيان معنى الإحسان وفضله.

- فأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾.

الوثقى أي التي لا أوثق منها.

فتبيّن أن الإحسان هو أفضل العمل، وأنه لا يكون إلا بإسلام الوجه إلى الله تعالى، أي يكون قصد العبد خالصاً لله تعالى ويكون منقاداً لأوامره جل وعلا مطيعاً له.

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتّقَوا وَالّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

فيه بيان فضل المحسنين وأنهم فائزون بمعية الله تعالى الخاصة التي تقتضي محبته ونصره وتأييده وهدايته وحفظه وغير ذلك من المعاني الجليلة العظيمة التي جعلها الله تعالى لأهل معيته الخاصة.

- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ومَنْ يَتوَكّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

التوكل من أجل العبادات، والذي يحقق التوكل من المحسنين في توكلهم فهو متوكل على الله مؤمن بأن الله يراه ويعلم حاله.

فتحقق فيه وصف الإحسان.

- ومما يوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]).

تفيضون فيه أي: تأخذون فيه.

ومن آمن بأن الله تعالى شهيد على جميع أعماله وقام بحق هذا الإيمان من إحسان العبادة فهو من أهل مرتبة الإحسان.

❐ قوله: (**وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ**: (بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟

فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً».

فَقَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ».

قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيّاً.

فَقَالَ صَلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عُمَرُ؛ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ»؟

قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «هذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»).

هذا الحديث يسمى حديث جبريل، وهو من أجلّ الأحاديث النبوية، وفيه بيان مراتب الدين، وبعض أشراط الساعة، وذكر فيه أركان الإسلام وأركان الإيمان ومعنى الإحسان وقد سبق شرح ذلك ولله الحمد.

وسبق بيان سبب تحديث ابن عمر رضي الله عنهما بهذا الحديث عن أبيه.

وسيأتي شرح هذا الحديث بالتفصيل المناسب إن شاء الله تعالى عند شرح الأربعين النووية.

هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني عشر : بيان الأصل الثالث من أصول الدين وهو معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم

عناصر الدرس:

١: بيان معنى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- ما تستلزمه شهادة أن محمداً رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.
- معنى التصديق، وبيان ما ينقضه وينقصه.
- معنى الطاعة، وبيان ما ينقضها وينقصها.
- معنى المحبة، وبيان ما ينقضها وينقصها.

٢: نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

٣: مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان عمره يوم بعث ويوم هاجر ويوم توفي صلى اللّه عليه وسلم

٤: معنى قول المؤلف: (نبئ بإقرأ وأرسل بالمدثر).

٥: الفرق بين الرسول والنبي.

٦: بلد النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره، ودعوته التي دعا الناس إليها.

٧: تفسير صدر سورة المدثر.

٨: فرض الصلاة

❑ شرح قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ. وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ،عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ.

وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياًّ رَسُولاً.

نُبِّئَ بِإقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

وَمَعْنَى: ﴿قمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُهَا وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُهَا وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إلى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إلى المَدِينَةِ.

وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلامِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ؛ مِثْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ وَالأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا عَنْهُ.

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧- ١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا هو الدرس الثاني عشر من دروس ثلاثة الأصول وأدلتها، أسأل الله عز وجل أن يختم أعمالنا بالصالحات، وأن يوفقنا للتوبة النصوح قبل الممات، وأن يبارك في أعمالنا وأعمارنا، إنه هو العليم القدير، والعليم الحليم، لا إله إلا هو.

وهذا الدرس هو في بيان الأصل الثالث من أصول الدين، وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأصل العظيم تندرج تحته أبواب ومسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، فلذلك ينبغي لطالب العلم أن يضبط معرفة هذا الأصل جيداً، حتى تتبيّن له كثير من المسائل المترتبة على هذه الأصل العظيم.

فشهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصل من أصول الدين، لا يدخل عبدٌ في الإسلام حتى يشهد هذه الشهادة.

وهذه الشهادة العظيمة ينبني عليها منهج الإنسان وعمله، ونجاته وسعادته، إذ عليها مدار المتابعة، والله تعالى لا يقبل من عبد عملاً ما لم يكن خالصاً له جل وعلا، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالإخلاص هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله.

والمتابعة هي مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كانت الأعمال لا بد فيها من قصد وطريقة تؤدى عليها عُدّت الشهادتان ركناً واحداً.

وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تستلزم أموراً عظيمة يمكن إجمالها في ثلاثة أمور كبار من لم يقم بها لم يكن مؤمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم:

الأمر الأول: تصديق خبره.

الأمر الثاني: امتثال أمره.

الأمر الثالث: محبته صلى الله عليه وسلم.

وما يعود على أحد هذه الأمور الثلاثة بالبطلان فهو ناقض لشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا انتقضت هذه الشهادة انتقض إسلام العبد؛ فالإسلام لا بد فيها من إخلاص وانقياد ومن لم يشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة صحيحة لم يكن منقاداً ولا مسلماً، وإن ادعى الإسلام.

❖ **فأما الأمر الأول: وهو تصديق خبره** صلى الله عليه وسلم، فهو أصل عظيم من أصول الدين، **وهذا التصديق ينقضه أمران:**

- الأمر الأول: **التكذيب.**
- والأمر الثاني: **الشك.**

فكلٌّ من المكذب والشاك غير مصدق ولا مؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والتكذيب على درجتين:

الدرجة الأولى: التكذيب المطلق؛ فيدّعي أنه كذاب في أصل رسالته أي أن الله لم يرسله، أو يكذّبه فيما يخبر به عن الله جل وعلا وعن أمور الغيب، وهذا هو تكذيب المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم وتكذيب بعض أصحاب الملل الأخرى كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم.

وكذلك المنافقون النفاق الأكبر الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويضمرون العداوة لله ولرسوله وللمؤمنين فهؤلاء وإن شهدوا بألسنتهم أن محمداً رسول الله إلا أنهم كفار كاذبون كما قال الله تعالى فيهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

فهم كاذبون في دعواهم أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله، وإنما نطقوا بهذه الشهادة نفاقاً، ولو كانوا صادقين في شهادتهم له بالرسالة لقاموا بما يلزم من تصديق خبره وطاعة أمره ومحبته.

والمنافقون مخالفون لهذه الأمور ناقضون لها؛ فهم مبغضون للرسول صلى الله عليه وسلم ولما جاء به، وعاصون له، ومكذبون ومشكّكون في أخباره.

فهذه هي الدرجة الأولى من درجات التكذيب وهو التكذيب المطلق.

الدرجة الثانية: تكذيب بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا قد يقع من بعض من يقرّ برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ويكذبه في بعض أخباره، كإقرار بعض اليهود والنصارى بأنه رسول، لكن رسالته للعرب وليست لجميع الناس؛ وكتكذيب بعض من ينتسب للإسلام لبعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم مع إقراره بصحتها عنه؛ فمن كذّب النبي صلى الله عليه وسلم في شيء من أخباره فهو كافر بإجماع أهل العلم.

ولا ينفعه إقراره بأنه رسول الله ولا تصديقه له في بعض أخباره.

وكذلك المشكك في بعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر غير مصدق.

ولا يستقيم إسلام العبد حتى يصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به.

وههنا مسألة مهمة:

وهي أنه يجب التفريق بين تكذيب خبر الرسول بعد الإقرار بصحته إليه، وبين تكذيب الخبر المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فتكذيب الخبر المنسوب الذي لم تتحقق صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم أو تأوّله المتأوّل على غير معناه الصحيح ليس له حكم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.

وذلك لأن الأخبار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم قد تصح نسبتها وقد لا تصح، وإذا صحت النسبة فقد يصح تفسير المعنى على ما فهمه المتلقي وقد يفهم منه فهماً خاطئاً مخالفاً لنص صحيح صريح فيكذب الخبر بناء على ما صح عنده من مخالفته للنص المحكم الصحيح؛ فهذا ليس بتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم في حقيقة الأمر.

ولذلك قد يكون لبعض الناس عذر في تكذيب بعض ما يبلغهم من الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم يمنع من تكفيرهم؛ إما بسبب جهلهم بصحة نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم، وإما بسبب عدم فهمهم لمعناه على الوجه الصحيح وإما لشبهة أخرى عرضت لهم، وغالب ما يمنع تكفير أصحاب البدع هو هذه الشُّبَه المانعة من التكفير.

➢ أما من أقرّ بصحة نسبة الخبر الصحيح للنبي صلى الله عليه وسلم، وأقر بمعرفته لمعناه الصحيح ثم كذّبه بعد ذلك فلا شك في كفره.

فهذه مسألة مهمة ينبغي أن يتفطن لها طالب العلم، ويضبطها جيداً.

ولو تأملتم كثيراً من المسائل التي يذكرها العلماء في نواقض الإسلام لوجدتموها راجعة إلى هذا الأصل، وهو أنها تقتضي تكذيب خبر النبي صلى الله عليه وسلم.

❖ **أما الأمر الثاني: فهو طاعة الرسول** صلى الله عليه وسلم، وذلك يكون بامتثال أمره واجتناب نهيه.

لأن العبد قد يصدّق ولا يطيع، فإذا صدق وأطاع فقد أدى هذين الأمرين.

والواجب على العبد حتى يحقق شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطيعه في كل ما يأمر به ما استطاع، وأن يجتنب ما نهاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب، وهي طاعة لله جل وعلا كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم».

- ولفظ طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه إذا أطلق في النصوص يشمل امتثال أمره واجتناب نهيه وتصديقه ومحبته لأن الاتباع الصحيح لا يتحقق إلا بهذه الأمور.

والمخالفون في هذا الأمر على درجتين:

الدرجة الأولى: الذين لا يرون أنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فهؤلاء كفار غير مسلمين، وإن أقرّوا بصحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل من لم ير طاعة الرسول واجبة عليه لازمة له فهو كافر غير مسلم؛ لأنه ممتنع عن الطاعة متولٍّ غير منقاد لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

ومن هؤلاء من يظهر الطاعة ويبيّن الامتحان حقيقته ولا يأتي من أمر الرسول إلا بما يوافق هواه ورغبته وهذا من شأن المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

فلا يستقيم إيمان عبد حتى يسمع ويطيع.

الدرجة الثانية: الذين يؤمنون بأنه يلزمهم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كبير الأمور وصغيرها وأن ما أوجبه عليهم فهو واجب، وما حرّمه عليهم فهو حرام، ويلتزمون ذلك، لكنهم يخالفون في بعض الأمر فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات مع إقرارهم بعصيانهم فهؤلاء من عصاة المسلمين، وهم آثمون مستحقون للعذاب بقدر ما عصوا الرسول فيه، ولا يكفرون إلا إذا أفضت معصيتهم إلى ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، والعياذ بالله.

- وقد ضلت طوائف من أهل البدع في هذا الباب فكفَّروا مرتكب الكبيرة كما فعلت الخوارج وقالوا بأن أهل الكبائر خالدون مخلدون في نار جهنم.
- ومن أهل البدع من قال هم في منزلة بين المنزلتين فليسوا بمسلمين ولا كفار وهم يوم القيامة خالدون في نار جهنم، وهذا قول المعتزلة.

وكلا الطائفتين يسميهم أهل السنة الوعيدية.

وهؤلاء ينكرون شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر وشفاعة الشافعين الذين يأذن الله بشفاعتهم يوم القيامة كشفاعة الشهداء والصالحين وكشفاعة الأطفال لأهليهم وغيرهم ممن صح الخبر عن النبي صلى الله عليهم وسلم بأنهم يشفعون لبعض من استحق النار من المسلمين بسبب عصيانه ومنهم من يدخلها ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين.

- وأهل السنة والجماعة لا يكفرون أصحاب الكبائر من المسلمين، بل يقولون: هم من عصاة المسلمين، وهم على خطر من عصيانهم، وترجى لهم الرحمة والمغفرة وتنفعهم دعوات المسلمين وصدقاتهم وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة الشافعين فمنهم من تدركه الشفاعة قبل العذاب فينجو ويسلم، ومنهم من يعذب ما شاء الله أن يعذب ثم ينجو بعد ذلك، ولا يخلد في النار إلا كافر.

هذا تلخيص لأهم المسائل المتعلقة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكام العصاة.

❖ الأمر الثالث: محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض واجب، لا يصح الإيمان إلا به
بل يجب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والمال
كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».
وفي رواية لمسلم: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».
وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب؛ فقال له عمر: (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي).
فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك».
فقال له عمر: (فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي).
فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «الآن يا عمر».
وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾
قال ابن جرير: (﴿النَّبِيُّ﴾ محمد ﴿أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: أحق بالمؤمنين به ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، فيجوز ذلك عليهم).
وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

- وتقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على ثلاثة درجات، وهي درجات الاتباع:

الدرجة الأولى: وهي التي لا يصح الإسلام إلا بها وهي تقديم محبته فيما يلزم منه البقاء على دين الإسلام، والمخالف في هذه الدرجة هم الكفار الأصليون والمرتدّون الذين ارتكبوا ناقضاً من نواقض الإسلام فقدّموا ما يحبونه من معصية الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة الرسول ؛ فخرجوا من دين الإسلام بهذه المخالفة.

فهذه الدرجة المخلف فيها كافر خارج عن دين الإسلام.

الدرجة الثانية: درجة الوجوب، فيطيع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أمر وجوب، ويجتنب ما نهى عنه نهي تحريم، والذين يؤدي هذه الدرجة هو مؤمن مؤدٍّ للطاعة الواجبة، والمخالف فيها هو الذي يقدم ما تحبه نفسه وتهواه على طاعة الرسول عاص مخالف للأمر مستحق للعقاب بقدر مخالفته.

الدرجة الثالثة: درجة الاستحباب والكمال، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أمر وجوب أو استحباب على ما يستطيع العبد، واجتناب ما ينهى عنه نهي تحريم وكراهة، وهذه الدرجة من حقَّقها فهو من أهل الإحسان.

ومن خالف فيها بما لا يلحقه بالمخالفين في الدرجة الثانية فهو غير آثم، لكن يفوته من الخير والفضل بقدر ما فرّط فيه.

فتبيّن أن تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين على هذه الدرجات الثلاث منها ما لا يصح الإسلام إلا به، ومنها ما هو واجب ومنها ما هو كمال مستحب.

ويكون معنى نفي الإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه...» **على ثلاث درجات:**

١: **نفي أصل الإيمان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الأولى.

٢: **نفي الإيمان الواجب**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثانية.

٣: **نفي كمال الإيمان**، وهذا للمخالفين في الدرجة الثالثة.

- ومما يتصل بهذه المسألة وهي محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن لها لوازم من لم يأت بها لم تكن محبته صادقة:

وهذه اللوازم هي: طاعة الرسول ونصرته ومحبة أصحابه وموالاتهم ومحبة دعوة الرسول ونصرتها ويجمع ذلك كله النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم

كما في الصحيحين من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة»

قلنا: لمن؟

قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

يقال: نصح فلاناً، ونصح له.

نصحه إذا وصّاه بما ينفعه وحذّره مما يضره، وهذا ليس بمراد هنا.

ونصح له، إذا صدق في محبته له وبذل ما يحبه المنصوح له بصدق وإخلاص بلا غش ولا خديعة ولا كذب ولا تقصير.

فالناصح هو الذي يجمع معنى الصدق والإخلاص، وضده الغاشّ والمكاشح.

فالغاشّ هو الذي يظهر الموافقة والموالاة ويبطن المخالفة والمعاداة.

والمكاشح والكاشح هو الذي يظهر العداوة ويبديها.

- والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم واجبة وهي تستلزم الصدق والإخلاص في المحبة والطاعة والنصرة والتصديق.

ومن قصر في واجب من هذه الواجبات فهو مقصّر في النصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم.

وإثمه على حسب تقصيره، كما تقدم شرحه في درجات مخالفة الاتباع.

فنصيحة المسلم للرسول صلى الله عليه وسلم تكون بحسب اتباعه له؛ فكلما كان أكثر اتباعاً كان أكثر نصحاً.

- ومما ينقض هذه المحبة: البغض والإيذاء والسب والاستهزاء.

ومن وقع في هذه الأمور التي تستلزم عدم محبة النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر بإجماع العلماء.

❖ **والناس في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: الجفاة المقصِّرون في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء على درجتين: كفار، وعصاة؛

- فأما الكفار فهم الذين يبغضون الرسول صلى الله عليه وسلم أو يبغضون شيئاً مما جاء به من شريعة الإسلام.

- وأما العصاة فهم الذين يخالفون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيرتكبون بعض المحرمات ويتركون بعض الواجبات، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

القسم الثاني: الغلاة الذين غلوا في دعوى محبة النبي صلى الله عليه وسلم **وهؤلاء على درجتين:** مشركون ومبتدعة:

- فأما **المشركون** فهم الذين غلوا في النبي صلى الله عليه وسلم حتى صرفوا له بعض أنواع العبادة من الدعاء والنذر وطلب المدد وقضاء الحوائج وغير ذلك.

- وأما **المبتدعة** فهم الذين غلوا في مدحه فأطروه وجاوزوا الحد المأذون فيه من المدح والثناء، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب، ومن الغلو ما يفعله بعض الصوفية من بدعة الموالد النبوية وغيرها من مظاهر الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم.

القسم الثالث: المهتدون المتبعون لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وهدي أصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان بلا غلو ولا تفريط، وهؤلاء هم الناجون السعداء.

- بعض العلماء يضيف في مقتضيات شهادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأن لا يعبد الله إلا بما شرع).

وهذا يندرج تحت طاعته صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

فابتداع شيء من العبادات محرم لا يجوز، والمبتدع عاص ببدعته.

والبدع لها تقسيمات مهمة ينبغي لطالب العلم أن يضبطها، منها أنها **تنقسم بحسب حكمها إلى قسمين**: بدع مكفرة، وبدع مفسقة.

- **فأما البدع المكفرة** فهي التي يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام كأن تتضمن تلك البدعة شركاً أكبر بصرف العبادة لغير الله عز وجل كما يفعله بعض غلاة الشيعة والباطنية والصوفية.

أو يكون فيها تكذيب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله وادعاء ما يخالف دين الإسلام بالضرورة كدعوى بعض فرق الشيعة أن القرآن ناقص محرّف، ودعوى بعض غلاة الصوفية أن أقطابهم يعلمون الغيب ويطلعون على اللوح المحفوظ، ودعوى الجهمية نفي أسماء الله عز وجل وصفاته.

وضابط البدع المكفّرة أنها هي التي يلزم منها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام.

- **القسم الثاني**: **البدع المفسّقة**، وهي التي لا يكون فيها ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام من الشرك الأكبر أو التكذيب أو غيرها من النواقض.

وهذه غالب البدع العملية من مثل ما يحدثه بعض المبتدعة من الموالد والأذكار المبتدعة والزيادة على القدر المشروع في بعض العبادات، وتخصيص بعض الأزمنة والأمكنة بعبادات لم يرد تخصيصها بها.

هذا تلخيص موجز لما تقتضيه شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وهي مسائل كبار من مسائل أصول الدين ينبغي لطالب العلم أن يفقهها جيداً.

❑ قوله: **(الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ).**

أي الأصل الثالث من أصول الدين وهو معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.

وأتى به مضافاً إلى المخاطبين (نبيكم) لإشعارهم بأن هذا الأمر يخصهم ويتصل بهم فهو نبيهم ورسولهم الذي أرسل إليهم، فيجب عليهم أن يعتنوا بمعرفته وأداء حقه.

وباب الإضافة عند العرب واسع فهي تضيف لأدنى ملابسة، ولا عتبارات متعددة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم، هو رسول الله، باعتبار المرسِل وهو الله تعالى كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

وهو رسولنا لأنه أرسل إلينا كما قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾

وهو نبي الله باعتبار المنبِّئ الذي نبَّأه وهو الله تعالى.

وهو نبينا باعتبار أنه منبَّأٌ إلينا.

ويضاف أيضاً إلى بعض أوصافه وما أتى به فيقال: نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة.

والمعرفة المرادة هنا هي المعرفة المحمودة كما سبق بيانه.

❑ قوله: **(وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بن هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ).**

عبد المطلب اسمه شيبة، وعبد المطلب لَقَبٌ لُقِّبَ به، لأنَّ عمَّه المطَّلب أردفه خلفه لما أتى به من عند أخواله بني النجار في يثرب وقد تغيَّر لونه من السفر فظنوه عبداً له فقيل عبد المطلب.

وهاشم لقب أيضاً، واسمه عمرو، ويقال له: عمرو العُلا، ولُقِّبَ بهاشم لِهَشْمِه الثريد لقومه من كَرَمه، وقيل فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه	قومٍ بمكة مسنتين عجاف

وهذا البيت نسب لعبد الله بن الزبعرى من قصيدة له قال فيها :

كانت قريش بيضةً فتفقأت ... فالمح خالصه لعبد مناف

الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الأصياف

والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين هَلُمّ للأضياف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف

ونسب البيت السابق لغيره.

والمسنتون الذي أصابتهم سَنَةٌ أي مجاعة.

وقريش لقب للنضر بن كنانة، وقيل لقب لفهر بن مالك.

والأول أصح لما رواه الإمام أحمد وأبو داوود الطيالسي وابن أبي شيبة وغيرهم من حديث مسلم بن هيضم عن الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفد لا يرون إلا أني أفضلهم؛ فقلت: (يا رسول الله إنا نزعم أنكم منا)

قال: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمَّنا ولا ننتفي من أبينا»

قال: فكان الأشعث يقول: (لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدَّ).

والحديث صححه الألباني.

وقد ذكر الزهري فيما رواه عبد الرزاق وغيره أنه كان بين بني عبد مناف وبني آكل المرار من كندة خلطة في الجاهلية أي: تناسب.

واختلف في سبب تلقيب النضر بقريش على أقوال كثيرة، لم أقف منها على قول تطمئن النفس لصحته.

ونسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان متفق عليه عند أهل العلم بالحديث والأنساب.

قال البخاري في صحيحه في كتاب المناقب: (باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن

لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان).

قال ابن القيم: (إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خِلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن "عدنان" من ولد إسماعيل عليه السلام).

وما بعد عدنان للنسابين فيه أقوال مختلفة لم أقف على حجة صحيحة لقول منها.

قال عروة بن الزبير: (ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان). رواه ابن وهب وابن سعد وابن أبي حاتم وغيرهم.

وقال أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة وهو من علماء التابعين ومن أهل العلم بالأنساب والأشعار: (ما وجدنا في علم عالم ولا في شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان بثبت). رواه ابن سعد وابن وهب وغيرهما.

وأما ما أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: (كذب النسابون قال الله عز و جل ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾).

فهذا خبر موضوع، لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿وعاداً وثمود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يقول: (كذب النسابون). رواه ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم.

هكذا في قراءة ابن مسعود.

وقال السيوطي في الدر المنثور: (وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أنسب الناس.

قال: إنك لا تنسب الناس.

قال: بلى.

فقال له علي رضي الله عنه: أرأيت قوله تعالى: ﴿وعاداً وثموداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾؟

قال: أنا أنسب ذلك الكثير.

قال: أرأيت قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قوم نوح وعاد وثمود وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾؟ فسكت).

ولم أقف على إسناده عند ابن الضُّرَيس.

وأبو مجلز هو لاحق بن حميد السدوسي، من قراء التابعين وفضلائهم.

❒ قوله: (وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاَثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ نَبِياًّ رَسُولاً).

هذا دليله ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين؛ فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة؛ فمكث بها عشر سنين، ثم توفي صلى الله عليه وسلم).

فيكون مدة نبوته ثلاث وعشرون سنة.

وعمره ثلاث وستون.

❒ قوله: (نُبِّئَ بِإقْرَا، وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ).

النبوَّة منزلة يختص الله بها من يشاء من عباده؛ فيوحي إليهم من أمره ما يشاء، وقد ختمت النبوة بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثُرون».

قالوا: فما تأمرنا؟

قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

وقد أجمع أهل العلم على ختم النبوة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا نبي بعده ولا رسول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي ومستدرك الحاكم وغيرها من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي».

قال: فشقَّ ذلك على الناس.

قال: قال: «ولكن المبشرات».

قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟

قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة».

والحديث صححه الألباني.

فكل من ادَّعى النبوة أو الرسالة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كذاب.

قوله: **(نُبِّئَ بإقْرَأ)** أي كان مبدأ نبوته عليه السلام لما نزل عليه أول سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾.

وخبر بدء الوحي رواه البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وما كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من الرؤى الصادقة قبل الوحي هو من إرهاصات النبوة والتهيئة لها.

وبدأت النبوة ببدء الوحي لما نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء بأول سورة العلق.

ثم فتر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، **واختلف في مدة فترة الوحي على أقوال:**

- **فقال الشعبي**: كانت مدة فترة الوحي سنتان ونصف، رواه عنه الإمام أحمد في التاريخ كما في فتح الباري لابن حجر، وهو قول بعيد.

- **وروى ابن سعد عن ابن عباس** أنها كانت أياماً، لكن إسناد هذه الرواية واهٍ جداً.

والله أعلم بمدة تلك الفترة، لكن صح أن أوّل ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي أول سورة المدثر.

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري؛ فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ففَرَقْتُ منه فرجعت فقلت زملوني زملوني؛ فدثروني؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾».

وهي الأوثان

قال: ثم تتابع الوحي).

الذي قال في تفسير الرُّجز: (وهي الأوثان) هو أبو سلمة بن عبد الرحمن كما في رواية عند البخاري: قال: (وهي الأوثان التي كان أهل الجاهلية يعبدون).

وفي رواية في صحيح البخاري أيضاً أن هذه الحادثة كانت قبل أن تفرض الصلاة.

❑ قوله: (**وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ**) يريد أن نزول صدر سورة المدثر كان بداية الرسالة، لما تضمنته من الأمر بالنذارة.

وهذا الاستنباط قد قال به جماعة من أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية لما ذكر أن أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم سورة اقرأ ثم سورة المدثر قال: (وبهذا حصل الإرسال إلى الناس، وبالأول حصلت النبوة).

وقال نحو هذا القول الحليمي شيخ البيهقي، وابن تيمية في منهاج السنة النبوية.

- والتفريق بين الرسول والنبي من المسائل التي كثرت فيها أقوال أهل العلم وحصل فيها لبس واشتباه، وفيها مواضع متفق عليها.

⇦ وتلخيص ذلك أن **الفرق بين الرسول والنبي يتضح ببيان أمرين:**

الأمر الأول: أن النبوة منزلة، والرسالة منزلة أخص منها، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول، وهذا الأمر عليه قول جماهير العلماء ولا أعرف إماماً معروفاً بالعلم والإمامة في الدين يخالف في هذا القول.

وقد نقل عن بعض المعتزلة أنه لا فرق بين الرسول والنبي، وقال به بعض من اشتبه عليه الأمر من أهل السنة، فإنهم زعموا أن لا فرق بين الرسول والنبي فكل رسول نبي وكل نبي رسول، وهذا الزعم باطل؛ فإن الفرق بين الرسول والنبي متحقق لدلالة قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... ﴾ الآية

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾

وقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ﴾

وقوله تعالى عن بعض أنبيائه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

ولما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل "اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت.

فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به».

قال البراء بن عازب: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت" قلت: "ورسولك"، قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت».

ولدلالة حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل وفيه أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (أنت نوح أول الرسل إلى أهل الأرض). وقد علم بنص الحديث أن آدم عليه السلام نبي مكلم.

الأمر الثاني: بيان الفرق بين مطلق الإرسال ومنزلة الرسالة؛ فمطلق الإرسال حاصل للأنبياء كلهم كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

فالرسول مرسل، والنبي مرسل، لكن رسالة الرسول أخص من رسالة النبي ومنزلة الرسالة أخص وأعلى من منزلة النبوة ولذلك قدم ذكر الرسول على ذكر النبي في هذه الآية.

ويدل على ثبوت قدر من الإرسال للأنبياء ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، و ينذرهم شر ما يعلمه لهم».

فهذا حق واجب على جميع الأنبياء لم يستثن منه أحد منهم.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً فيقولون له: (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) فعلم بذلك أن نوحاً عليه السلام أول الرسل.

ونبوة آدم عليه السلام ثابتة، بل هو نبي مكلَّم كما في حديث أبي ذر وأبي أمامة في المسند والمستدرك وغيرهما، وتكليم الله تعالى لآدم ثابت بنص القرآن، ولا بد له ولمن معه من شرع يتعبدون الله تعالى به كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

واتباع الهدى هو امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وهو معنى الشريعة.

وهذا يقتضي أنه أمر بتبليغ ذلك الهدى زوجه وذريته، ومع ذلك فهو نبي مكلم وليس برسول لدلالة حديث أبي هريرة.

ونظير هذه المسألة مسألة الإيمان والإسلام؛ فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم بمؤمن، ولا بد في الإسلام من قدر من الإيمان يصح به، وإلا فلو انتفى الإيمان جملة عن العبد لانتفى عنه الإسلام جملة.

والمقصود أن الرسالة منزلة أخص من منزلة النبوة وأعلى منها، كما أن الرسل أيضاً على منازل متفاضلة بعضهم أفضل من بعض كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾

وأفضل الرسل أولوا العزم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

وأفضل الخمسة الخليلان محمد وإبراهيم عليهما السلام.

وأفضل الخليلين نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

⇄ من أهل العلم من يقول: إن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ.

وهذا القول اشتهر عند أهل العلم وفي نشأته والتعبير عنه بهذا التعبير لبس ينبغي توضيحه حتى يتضح الأمر لطالب العلم.

وأول من نسب إليه هذا القول بهذا التعبير فيما أعلم أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله

ونص كلامه في كتابه أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: (والفرق بين النبي والرسول أن النبيَّ هو المنبَّأُ –فعيل بمعنى مُفعَل– والرسول هو المأمور بتبليغ ما نُبِّئَ وأُخبر به؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا).

وهذا القول اختصره ابن الأثير في جامع الأصول فقال: (قال الخطابي: والفرق بين النبي والرسول: أن الرسول هو المأمور بتبليغ ما أنبئ وأخبر به، والنبي هو المخبَر ولم يؤمر بالتبليغ، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا).

فأضاف كلمة (ولم يؤمر بالتبليغ) من باب التوضيح لما فهمه، واشتهر هذا التعريف لدى المتأخرين لشهرة الكتاب، ولنسبة هذا القول لأبي سليمان الخطابي رحمه الله وهو من أجلّ شراح الأحاديث.

وقد قال بنحو هذه الإضافة البيهقي (ت:٤٥٨هـ) رحمه الله فقال: (والنبوة اسم مشتق من النبأ و هو الخبر إلا أنّ المراد به في هذا الموضع خبر خاص، وهو الذي يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد؛ فتكون النبوة على هذا الخبر والمعرفة بالمخبرات الموصوفة فالنبي صلى الله عليه وسلم هو المخبر بها؛ فإن انضاف إلى هذا التوقيف أمرٌ بتبليغه الناس ودعائهم إليه كان نبيا ورسولا.

و إن ألقي إليه ليعمل به في خاصته و لم يؤمر بتبليغه و الدعاء إليه كان نبيا و لم يكن رسولا؛ فكل رسول نبي و ليس كل نبي رسولا).

وهذا القول في أصله مأثور عن مجاهد بن جبر فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما ذكره السيوطي في الدر المنثور، وهو موجود في التفسير المطبوع باسم تفسير مجاهد، وهو الذي يرويه عبد الرحمن بن الحسن الهمذاني وجادة عن إبراهيم بن ديزيل الحافظ أنبأنا آدم بن أبي إياس، قال أنبأنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿رسولاً نبياً﴾ قال: (النبي هو الذي يُكلَّم ويُنْزَلُ عليه ولا يُرْسَلُ، والرسولُ هو الذي يُرسَل).

وقال الفراء: (فالرسول النبىّ المرسل، والنبى: المحدَّث الذى لم يُرسَل).

وقال ابن جرير في آية الحج: (فتأويل الكلام: ولم يرسل يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم، ولا نبيّ محدث ليس بمرسل).

فهذا أصل هذا القول، لكن قول من قال (ولم يؤمر بتبليغه) كان هو منشأ الإشكال، ومع ذلك احتمله الجمهور إذ كان الأصلان السابقان متقررين.

ومن أهل العلم من رد هذا التعبير إذ فهموا من قولهم: (لم يؤمر بالتبليغ) النفي المطلق وفرَّع بعضهم عليه لوازم باطلة ليست مرادة لأصحاب هذا القول.

وهذا الأمر مما ينبغي لطالب العلم التفطن له، وله نظائر في المسائل العلمية، وهو أن أقوال أهل العلم التي يذكرونها لتوضيح بعض المسائل أو التعبير عن بعض الأقوال بعبارات جامعة مما يقع فيه الاجتهاد لإصابة المعنى المراد ثم قد يكون في تعبيرهم عموم غير مراد إذ ألفاظ العلماء ليست كألفاظ الوحي.

وطالب التحقيق في هذه المسائل ينبغي له النظر في أصول الأقوال ونشأتها وعبارة العلماء عنها ليضع الأقوال مواضعها، فإن الغالب عليهم أنهم إنما يترجمون عن معان مقررة بعبارات تبينها وتوضح المراد منها حسب اجتهادهم، ويقع في تلك الألفاظ ما لهم فيه مراد وقد يفهمه بعضهم على غير مرادهم.

فلا ينبغي لطالب العلم أن يحمله الخطأ في التعبير عن القول – إن وجد – على رده جملة.

فانظر الفرق بين كلام مجاهد والفراء والطبري والخطابي وكلام ابن الأثير والبيهقي ومن تبعهم.

بل انظر الفرق بين كلام البيهقي وما اشتهر لدى أهل العلم أن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

فقول البيهقي: (ليعمل به في خاصته) دليل على وجود قدر من التبليغ يؤمر به النبي

فبذلك تعلم أن مرادهم هو مراد من تقدم لكنهم أرادوا تفسير لفظ الإرسال بما يبينه لئلا يكرر اللفظ، والتبليغ هو مقتضى الإرسال كما قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾؛ ففسروا اللفظ بمقتضاه.

وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾

فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ فذكره بوصف النبوة، ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم الأنبياء بلا خلاف، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾

فالتبليغ من واجبات النبوة.

فقول هؤلاء العلماء: (وأمر بتبليغه) هو معنى قول من تقدم (وأرسل) لأن الأمر بالتبليغ هو مقتضى الإرسال.

فليس المراد من قولهم: (ولم يؤمر بتبليغه) نفي مطلق الإرسال والتبليغ، وإنما المراد نفي مقتضى ما تختص به منزلة الرسالة عن منزلة النبوة.

فإن منزلة الرسالة تقتضي تميز (الرسول) برسالة لا يشترك معه فيها (النبي)، وهذا هو القدر المنفي عن النبي في قول العلماء، ولم يريدوا نفي الإرسال عنه جملة.

ولأهل العلم في التفريق بين الرسول والنبي أقوال، أشهرها خمسة أقوال:

القول الأول: هو المتقدم ذكره، وهو أشهر الأقوال، وقد بيّنت ما فيه من الإشكال وجوابه.

القول الثاني: أن الرسول هو الذي يأتيه جبرئيل بالوحي عياناً وشفاهاً، والنبي هو الذي تكون نبوّته إلهاماً أو مناماً.

وهذا قول الثعلبي في تفسيره، وتبعه الواحدي والبغوي والخازن، وحكاه الماوردي في تفسيره قولاً، ولم يعزه لأحد، وكذلك فعل أبو المظفر السمعاني.

وقد اعتمده كثير من الشيعة.

وهذا القول في التفريق لا يصح فإن النبي صلى الله عليه وسلم إنما نبئ بنزول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

وأما قول عائشة رضي الله عنها في الصحيحين: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

فالمراد به مقدمات النبوة، لا النبوة نفسها.

فإن بدء النبوة كان بنزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

قال النووي نقلاً عن القاضي عياض وغيره من العلماء: (إنما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قواه البشرية).

وبنحوه قال غير واحد من أهل العلم رحمهم الله تعالى.

القول الثالث: أن الرسول من أنزل معه كتاب، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله، وهذا قول الزمخشري في تفسيره، واختاره النسفي.

القول الرابع: الرسول من أرسل إلى قوم مخالفين ليبلغهم رسالة الله، والنبي من كان يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى أحد ليبلغه رسالة الله، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، نص عليه في رسالة النبوات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول).

وكلام شيخ الإسلام يشكل عليه نبوة آدم عليه السلام، وكذلك اشتراط المخالفة في الرسالة إذ لا أعلم عليه دليلاً، وإن كان دليله استقراء أحوال الرسل والأنبياء على ما ذكر في النصوص، فيقال: قد دل النص على أن لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن، والعداوة تقتضي المخالفة وتدل عليها باللزوم، وكذلك المقاتلة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

لكن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...... ﴾ أصرح في الدلالة لشمولها جميع الأنبياء.

القول الخامس: الرسول من أوحي إليه بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، والنبي من بعث لتقرير شرع سابق.

وهذا القول ذكره عبد القاهر بن طاهر البغدادي حكاية عن اعتقاد الأشاعرة، واختاره البيضاوي وأبو السعود، وقد حكاه قولاً أبو المظفر السمعاني وأبو حيان.

لكن البغدادي ذكر أن آدم عليه السلام هو أول الرسل.

والبيضاوي أيضاً خالف هذا القول في موضع آخر من تفسيره كما نبّه إليه العاملي في الكشكول.

قال البيضاوي في تفسير سورة مريم في شأن إسماعيل عليه السلام: (﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته).

هذه الأقوال الخمسة هي أشهر الأقوال في هذه المسألة، وفيها أقوال أخرى غير مشتهرة.

والقول الصحيح هو القول المأثور عن مجاهد رحمه الله، وهو ما قاله الفراء وابن جرير وعليه جمهور أهل العلم لولا ما أثير من الإشكال حول ذلك التعبير الشائع، وقد علمت جوابه.

❑ قوله: (وَبَلَدُهُ مَكَّةُ).

أي أن بلده الذي نشأ فيه مكة، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، وهي أم القرى والبلد الأمين الذي أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

المقصود بهذا البلد مكة بإجماع المفسرين.

وقد ورد من حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عدي رضي الله عنهم أنها أحب البلاد إلى الله.

❑ قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ).

النذارة بكسر النون: الإنذار، وهي ضد البشارة، وأعظم ما أنذر عنه النبي صلى الله عليه وسلم الشرك.

وأعظم ما دعا إليه التوحيد.

❑ قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ)، بهذا الإطلاق له وجه صحيح، وهو أن الطاعات كلها مردها إلى التوحيد، والتوحيد يكون بالقلب واللسان والجوارح.

والمعاصي كلها من جنس الشرك، وقد يكون الشرك أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون من باب إشراك النفس والهوى بإيثار ما تحبه على ما يحبه الله عز وجل، فيكون في ذلك نوع تشريك.

❑ قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر: ١ - ٧]).

هذه الآيات هي أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي الأولى، كما تقدم بيانه.

والمدَّثر: أصله: (المتدثِّر) ثم أدغمت التاء في الدال وشدِّدَت.

والمدثر هو المتغطي بالدِّثار وهو لباس يكون فوق الشعار؛ فالشعار هو اللباس الذي يلي الجسد، والدّثار لباس فوقه.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الأنصار شعار والناس دثار» متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

قال الفراء وأبو معمر وابن قتيبة وابن جرير وغيرهم: المدثر هو المتدثر بثيابه إذا نام.

وقال إبراهيم النخعي: كان متدثراً بقطيفة.

❑ قوله: **(وَمَعْنَى: ﴿قمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ).**

قال ابن جرير: (وقوله: (قُمْ فَأَنْذِرْ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قم من نومك فأنذر عذابَ الله قومك الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره).

والإنذار يكون من العذاب وسببه؛ فالشرك سبب للعذاب، والنار وما يعاقب الله به المشركين عذاب، ويقع الإنذار من هذا وهذا.

❑ قوله: **(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ).**

قال ابن جرير: (﴿وَرَبَّكَ﴾ يا محمد فعظم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد).

فالتكبير هو التعظيم كما قال الله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه تعظيماً شديداً، ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه: كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، ونحوها من الآيات).

❑ قوله: **(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ).**

هذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية، أن الطهارة فيه معنوية، والعرب تسمي الرجل الذي يتعفف ويتنزه عن المعايب والفواحش والمكاسب المحرمة نقي الثياب، وطاهر الثياب، وطيب الأردان

ومنه قول امرئ القيس:

ثِيَابُ بَنِي عَوفٍ طَهارى نَقِيَّةٌ ... وَأَوجُهُهُم عِندَ المُشاهِدِ غُرّان

كما يسمون الفاجر والغادر والفاحش وآكل السحت دنس الثياب، ومنه قول الشاعر فيما أورده ابن قتيبة:

لاهمَّ إن عامر بن جهم ... أوذمَ حجاً في ثيابٍ دُسْمِ

أوذم: أي عزم وأوجب.

والثياب الدسم هي المتسخة.

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدرة، ثم أنشد قول غيلان الثقفي:

وإنـــي بحمـــد الله لا ثـــوب فـــاجر لبســـت ولا مـــن غـــدرة أتقنـــع

والمقصود أن تطهير الثياب يراد به تطهير النفس من النجاسات المعنوية، وأشدها الشرك.

❐ قوله: (﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ **الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وَأَهْلِهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، وَعَدَاوَتُهَا وَأَهْلِهَا، وَفِرَاقُهَا وَأَهْلِهَا**).

والرّجز: الأوثان، تضم الراء وتكسر، وهما قراءتان.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾

قال ابن المبارك اليزيدي: (الرجز والرجس واحد).

وقد قيل في اشتقاق هذه العبارة أن هذا الأصل الذي هو الراء والجيم والزاي (ر ج ز) يفيد الاضطراب، ويفيد المهانة أيضا، فيه معنى الاضطراب وفيه معنى الامتهان، لأن أصل الرجز في اللغة هو داءٌ يصيب أعجاز الإبل فتضطرب منه أي: تتحرك حركة مضطربة

قال ابن فارس: (الراء والجيم والزاء أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ. من ذلك الرّجزُ: داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشَتْ فَخِذاها.

ومن هذا اشتقاق الرَّجَزِ من الشِّعر؛ لأنه مقطوع مضطرب).

والشرك فيه اضطراب؛ لأنه على غير قرار ولا يستند لحجة ولا يطمئن قلب صاحبه، بل هو مضطرب في اعتقاده، مضطرب في سلوكه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وفيه أيضاً معنى الامتهان: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾

ولا يسلم العبد من هذا الاضطراب والامتهان إلا بالتوحيد.
فإنه بالتوحيد يتطهر ويزكو ويطمئن، فيكون طيباً مباركاً ثابتاً على يقين وبينة من أمره، يمشي سوياً على صراط مستقيم.

❏ قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ). أي من بعثته، مكث عشر سنين ودعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك، قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والصيام والحج وكثير من أحكام العبادات والمعاملات.
وهذا يدل على أهمية التوحيد، وأهمية الدعوة إليه، وأنه أصل الدين، وأولى ما يعتنى به.

❏ قوله: (وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ).
أي وبعد عشر سنين من البعثة عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وفرضت عليه وعلى المسلمين الصلوات الخمس، وهي خمس في العدد وخمسون في الأجر.

❏ قوله: (وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ).
يقصد صلى الصلوات الخمس، وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فرض عليه قيام الليل لما نزلت سورة المزمل ثم نسخ هذا الإيجاب.
وتأريخ فرض الصلوات الخمس مختلف فيه بين أهل العلم حتى ذكر ابن حجر أن في هذه المسألة نحو عشرة أقوال لأهل العلم.
لكن **أشهرها ثلاثة أقوال**:
القول الأول: أنه قبل الهجرة بنحو سنة، وهذا قول ابن سعد في الطبقات وقول إبراهيم الحربي وابن حزم وجماعة من أهل العلم، ومنهم من يزيد أشهراً وينقص أشهراً.
القول الثاني: أنه قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا القول حكاه ابن حجر عن ابن الأثير، وقال به ابن قدامة في المغني، قال ابن رجب: (وهو أشهَر).

القول الثالث: أنه بعد البعثة بخمس سنين، وهو قول الزهري، ورجحه النووي.

والمسألة بحاجة إلى مزيد بحث، والله تعالى أعلم.

❐ قوله: **(وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ)**.

أي بعد ثلاثة عشرة سنة، كما دل عليه حديث ابن عباس في صحيح البخاري وغيره، وقد تقدم ذكره.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الثالث عشر: مسائل مهمة (٢/١)

عناصر الدرس:

١: الهجرة

- معنى الهجرة.
- أنواع الهجرة.
- حكم الهجرة.
- مقاصد الهجرة.
- فضل الهجرة

٢: فرض الشرائع بعد تقرير التوحيد.

٣: الاعتصام بالكتاب والسنة

٤: عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين.

٥: كمال دين الإسلام.

٦: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٧: البعث بعد الموت.

٨: الحساب والجزاء.

٩: حكم من كذّب بالبعث

قوله: (**وَالهِجْرَةُ: الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ

حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ؛ مِثْلِ الزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجِّ وَالأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ.

وَهَذَا دِينُهُ، لاخَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا عَنْهُ.

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنَّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١].

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧- ١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]).

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد:

فهذا الدرس متضمن لمسائل مهمة من مسائل الاعتقاد وأصول الدين، وقد أجمل الشيخ رحمه الله أغلبها بعبارات موجزة تقريباً لها وتيسيراً على العامة والمبتدئين، وبيّنها بأدلتها بما يكفي الطالب لمعرفة الحق بدليله في هذه المسائل العظيمة.

وهذه المسائل هي من المسائل الكبار في العقيدة ومن أصول الدين وقد سبق تناول بعضها وبقي في بعضها بعض التفصيل.

❑ ١: الهجرة

❑ قوله: (**وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلامِ، وَالهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلى بَلَدِ الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولئِكَ مَأوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ البَغَوِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - : (سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللهُ باسْمِ الإِيمَانِ).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

معنى الهجرة:

- **الهجرة في اللغة** هي الانتقال من بلد إلى بلد، وسمي فاعل ذلك مهاجراً، لأنه قد هجر بلدَه وقومَه، ورَغِبَ عن جوارهم.

وقد تنوعت عبارات أئمة اللغة في بيان معنى الهجرة، والاطلاع على أقوالهم يفيد طالب العلم، إذ يحصل بمجموع كلامهم فهم المعنى المقصود من أكثر من وجه.

= قال أبو منصور الأزهري: (كلُّ من فارقَ رِباعَه من بدويّ أو حَضَرِيّ وسكن بلداً آخر فهو مُهاجر، والاسم منه الهجرة).

رِبَاعَه: أي محل إقامته.

= وقال ابن سيده في المحكم: (الهجرة: الخروج من أرض إلى أرض).

= وقال الخليل بن أحمد: (الهَجْرُ والهجران تركُ ما يَلْزَمُك تَعَهُّدُهُ ومنه اشْتُقَّتْ هجرةُ الْمُهاجرينَ لأَنَّهم هَجَروا عشائِرَهُمْ فتقطّعوهم في الله قال الشاعر:

وأُكْثِرَ هَجْرَ البيتِ حتَّى كأنّني ... مَلِلْتُ وما بي من مَلالٍ ولا هَجْرِ

فتبيَّن أن الهجرة في اللغة لا بد فيها من مفارقة وانتقال.

فيفارق محل إقامته، وينتقل إلى بلد آخر يقيم فيه، وبذلك يكون مهاجراً.

والهجرة تنقسم إلى قسمين: هجرة معنوية وهجرة حسية.

❖ **فأما الهجرة المعنوية** فهي: هَجْرُ كلِّ ما نهى الله عنه كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه».

وهذه الهجرة المعنوية شأنها عظيم بل هي أصل الهجرة الحسية، كما أن جهاد النفس أصل سائر أنواع الجهاد.

وهي واجبة في هَجْرِ ما نهى الله عنه نهي تحريم، ومستحبة في هجرِ ما نُهي عنه نَهْيَ كراهة دون نهي التحريم.

والمؤمن مأمور بأن يحقق الهجرة المعنوية وذلك بترك جميع ما نهى الله عنه نهي تحريم أو كراهة من قول أو فعل أو اعتقاد.

وهذه الهجرة تقتضي أن ينيب العبدُ المهاجرُ بقلبه إلى الله عز وجل؛ فيهاجر من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن البدعة إلى السنة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الإساءة إلى الإحسان.

ومن تأمل أحوال هذه الهجرة وجدها تنتظم جميع أعمال العبد وحركاته وسكناته، ومن كان هذا دأبه كان من الأوَّابين المنيبين.

قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية: (**الهجرة هجرتان:**

الهجرة الأولى: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها.

وهي هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾) ا.هـ.

وفي مسند الإمام أحمد والتاريخ الكبير للبخاري وشعب الإيمان للبيهقي أن معاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تُقُبِّلَتِ التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب؛ فإذا طلعت طُبع على كلّ قلبٍ بما فيه وكُفِيَ الناسُ العمَلَ».

وفي مسند الإمام أحمد وغيره أن عمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم: (أي الهجرةِ أفضل؟).

قال: «أن تهجر ما كره ربك».

ورواه أبو داوود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو وعبد الله بن حبشي مع إبهام السائل، ولفظه: قيل: فأي الهجرة أفضل؟

قال: «أن تهجر ما حرَّم الله».

وهذه الهجرة المعنوية يتحدث عنها علماء السلوك والتزكية ويقسّمونها إلى هجرتين:

١ : هجرة إلى الله تعالى بالإخلاص ويفيضون في الحديث فيها عن مسائل الإخلاص وتطهير القصد مما ينقض الإخلاص أو ينقصه من الشرك الأكبر والأصغر وإرادة الدنيا بعمل الآخرة وسائر حظوظ النفس المحرمة وحيل الشيطان في صرف العبد عن تحقيق الإخلاص.

٢ : وهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحقيق المتابعة ويفيضون في الحديث فيها عن اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العبادات والمعاملات ومعرفة تفاصيل ذلك وعلاماته ومراتبه.

وغاية ما يبلغه العبد من درجات الإحسان إنما يحصل له بتحقيق هاتين الهجرتين.

ومن أحسن ما أُلِّفَ في هذا الباب كتاب ابن القيم رحمه الله الموسوم بطريق الهجرتين وباب السعادتين.

يقصد بالهجرتين: الهجرة إلى الله تعالى، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويقصد بالسعادتين: سعادة الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن نكون ممن حقق الهجرتين وكتبت له السعادتان والله الموفق.

وأما الهجرة المرادة هنا فهي التي عرَّفها المؤلف بقوله: **(وَالهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ)**

قوله: **(من بلد الشرك)** أي البلد الذي يكون للمشركين فيه سلطان وحكم؛ بحيث يمنعون به بعض المسلمين من إقامة دينهم.

(إلى بلد الإسلام) أي إلى البلد الذي يكون الحكم فيه للمسلمين.

وهذه الهجرة واجبة وجوباً مؤكداً في نصوص الكتاب والسنة، بل من تأمل النصوص وتعرف على مقاصد الهجرة وفضائلها وأحكامها تبيّن له أن للهجرة شأناً عظيماً في الإسلام، وأنها سبب عظيم لرفعة الدين وعزة المسلمين.

وهي واجبة على كل من لم يستطع إظهار شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين عليه لينتقل إلى البلاد التي لا سلطان للكفار عليها، فيعبد الله عز وجل ويظهر شعائر دينه.

وهذا يدلك على أهمية سعي المؤمنين في التخلص من تسلط الكافرين والمنافقين، وأنه لا يمكنهم إقامة دينهم على الوجه المرضي ما داموا تحت تسلط الكافرين أعداء الدين، فإن هؤلاء الأعداء مجتهدون في محاربة دين الله عز وجل، ومحاربة عباده المؤمنين لا يألونهم خبالاً، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، ولا يمكّنونهم من إقامة الدين على الوجه المرضي.

ومن تأمل أحوال المسلمين اليوم ورأى اجتهاد الكفار وتآمرهم على المسلمين وسعيهم بكل سبيل إلى التضييق على المؤمنين وإضعاف قوتهم واجتهادهم وتناذرهم على ألا تقوم لهم قائمة، وتفننهم في أساليب غزوهم فكرياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً علم مقدار ما يكنّه أولئك الكفار من العداوة الشديدة للمسلمين.

ولولا أنَّ الله تعالى قد ضمن ألا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق منصورين ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم لاندرست معالم الدين مِن عظم كيدهم ومكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾

والمقصود أن الإقامة في سلطان الكفار فيها مفاسد كبيرة، وفتن عظيمة.

وقد شرع الله الهجرة لإخراج المؤمنين من الضيق إلى السعة ومن الذلة إلى العزة ووعدهم النصر كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

- فالهجرة لها مقاصد عظيمة وحكم جليلة:

منها: أنها سبب لحفظ المؤمنين من الفتنة في الدين.

ومنها: أنها سبب لعزة المؤمنين ورفعتهم ومَنَعَتهم من ظلم الكفار وتسلطهم عليهم في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

ومنها: أن تميّز المسلمين في بلادٍ لا يكون للكفار سلطان عليها سبب لإقامة الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة الكفار الذين لا يستجيبون لدعوة الحق ولا يسالمون المسلمين.

ومنها: أنَّ مَن كان يخفي إسلامه خوفاً من تسلط الكفار إذا علم بقيام بلد مسلم بأحكام الجهاد وإيواء المهاجرين ونصرتهم هاجر إليه؛ فيكثر المهاجرون وتكون لهم شوكة يدفعون بها عن أنفسهم ويقاتلون من يستحق القتال.

وقد حقق شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذه الأمور في دعوته المباركة، وقد أحسن بذكر هذه المسألة هنا في بيان أصول الدين، وهذا يعرّفك بخبرته رحمه الله وحسن إعداده لهذه الرسالة وانتقائه لمباحثها.

وقد تحالَف الشيخ رحمه الله مع أمير الدرعية لإقامة دولة إسلامية لا سلطان للكفار عليها ولا لمن والاهم من المنافقين والطغاة الذين كانوا في ذلك الزمان، واعتنى بتعليم العقيدة الصحيحة ونشر الفقه في الدين، ولا سيما في مسائل التوحيد وأصول الدين، ودعا المسلمين إلى الهجرة إليها وبين أنها واجبة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام حتى اجتمع له جيش وقوة، وبدأ بدعوة من يليهم من البلدان التي يدين أهلها وحكّامها بالشرك وإن كان فيهم من لا يقرّ الشرك ولا يقدر على تغييره؛ فدعاهم إلى التوحيد؛ فمن استجاب دخل في دولة التوحيد وأُقِرَّ على ما بيده من الولاية، وكان عوناً للمسلمين ومدداً لهم، ومن أصرَّ على الشرك وأبى الاستجابة لدعوة التوحيد استعانوا بالله على قتاله، وكانوا موفَّقين منصورين في حروبهم على من عاداهم وناوأهم لَمَّا كانت النية خالصة لنصرة دين الله عز وجلّ، وكان الشيخ معهم يعظهم وينصحهم ويحذرهم من أسباب الهزيمة التي عرفها من أدلة الكتاب والسنة حتى أقيمت الدولة وكتب الله لها النصر وتوحّدت له البلاد بعد أن كانت إمارات متفرقة ينتشر فيها الشرك والبدعة والخرافات ويسومها الطغاة سوء العذاب.

وبقيت الدولة في عزٍّ وهيبة حتَّى حصل ما حصل من التغيير بعد وفاة الشيخ رحمه الله بزمن فكانت الهزيمة المؤسفة التي قضت على الدولة السعودية الأولى.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (فلما حصل بعض التغيير في آخر الزمان بعد وفاة الشيخ محمد بمدة طويلة، ووفاة كثير من أبنائه رحمة الله عليهم وكثير من أنصاره حصل بعض التغيير فجاء الابتلاء وجاء الامتحان بالدولة التركية، والدولة المصرية، مصداق قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾).

وقد وعد الله المهاجرين في سبيله وعداً حسناً وفضلاً عظيماً؛ فمن كتبت له الحياة نال من ثواب الدنيا ما تقرّ به عينه ومن اصطفاه الله فمات أو قتل لقي من إكرام الله تعالى له ما لا يخطر له على بال.

كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾

- ومن فضائلها أنها تهدم ما كان قبلها من الذنوب والمعاصي كما في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لَمَّا جعلَ الله الإسلامَ في قلبي أتيتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم فقلتُ: ابسُطْ يمينكَ فَلأُبايعْك، فبسط يمينَه فقبضْتُ يَدِي

- فقال: «ما لكَ يا عمْرُو؟»

- قلتُ: أردتُ أنْ أشْترِط.

- قال: «تَشْترِط ماذا؟»

- قلت: أنْ يُغْفَرَ لي.

- قال: «أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله».

- وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾

- ومن فضائلها ما رواه ابن حبان في صحيحه والبزار في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد أمنوا من الفزع». والحديث صححه الألباني رحمه الله.

والذي يدرك فضائل الهجرة إنما هو المخلص فيها الذي هاجر لله عز وجل ولم تكن هجرته لأجل الدنيا كما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت

هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لعظم ثواب هذه الهجرة اكتفي بإعادة ذكرها في جواب الشرط «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»؛ فكأنه قيل: لا تسأل عن ثوابها؛ فثوابها أعظم من يذكر.

وهذا القول له أصل في اللغة فإن الإبهام يأتي في اللغة أحياناً للمبالغة، وهذا كما أُبهم أجر المهاجر، وجعله الله تعالى واجباً عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ﴾

فهذا الذي خرج من بيته ولم يقل (من بلده)، وهو عازم على الهجرة؛ فما بالك بمن تتمّ له هجرته وجهاده؟!!.

في الصحيحين من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: (هاجرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله؛ فوقع أجرنا على الله؛ فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد وترك نَمِرَةً؛ فكنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه؛ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه شيئاً من الإذخر، وَمِنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها).

ونظير هذا قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه وكان من المهاجرين الأولين لما ولاه عمر بن الخطاب إمارة البصرة خطب في أهلها خطبة جليلة رواها الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه وغيرهما، قال فيها: (ولقد رأيتُني سابعَ سبعة مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعام إلا وَرقُ الشجر، حتى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، والتقطتُ بُرْدةً، فشققتُها بيني وبين سعد بن مالك – يقصد سعد بن أبي وقاص - ، فاتّزَرْتُ بنصفها، واتّزر سَعد بنصفها، فما أصبح اليومَ منا أحد إلا أصْبَحَ أميراً على مِصر من الأَمصار، فإني أعوذ باللّه أن أكونَ في نفسي عظيما، وأنا عند الله صغير، وإنّه لم تكن نُبُوّة قَطُّ إلا تَناسَخَت حتى تكونَ عاقِبَتُها مُلْكا، وستَخْبُرون وتُجرِّبون الأمراءَ بعدَنا).

فهؤلاء المهاجرون رضي الله عنهم كانوا في ضيق ومحنة من تسلط الكفار عليهم ؛ فلما أمرهم الله بالهجرة استجابوا لله تعالى وهاجروا ابتغاء مرضاته فصدقهم الله وعده فمن مات منهم أو قتل رزقه الله من فضله العظيم ما لا تقوم له الدنيا وأضعافها ، ومن بقي منهم بوّأه الله مبوّأً حسناً ورزقه رزقاً كريما في الدنيا وما أعده الله لهم في الآخرة أعظم.

ولك أن تتفكر في نفسك : هل كانت تبلغ أماني من كان مستضعفاً في مكة والمسلمون قليل عددهم ضعيفة عدتهم والمشركون في زهوهم وعتوّهم وطغيانهم يسومون عباد الله المؤمنين سوء العذاب ، هل كانت أمانيه تبلغ أن يكون – بعد سنوات قليلة - حاكماً على مصرٍ من الأمصار كانت تحكمه دولة من أعظم دول الأرض في ذلك الوقت؟!!

ولكنهم آمنوا بالله وصدقوا بوعده فأنجز الله لهم ما وعدهم ، ومن أوفى بوعده من الله.

والمقصود أن من لا يستطيع إقامة شعائر دينه بسبب تسلط الكافرين ووجد سبيلاً للهجرة فالهجرة عليه واجبة بإجماع العلماء ، ومن ترك هذه الهجرة الواجبة وهو قادر عليها فقد عرض نفسه للوعيد الشديد والعذاب الأليم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)﴾

قال ابن كثير رحمه الله : (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع).

وقال الشنقيطي في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ : (قوله تعالى : ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

الظاهر أن معنى الآية: أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه، في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ﴾، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: ﴿فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ على قوله: ﴿إِنّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ دليل واضح على ذلك).

وهذه الهجرة باقية إلى قيام الساعة؛ ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داوود والنسائي وغيرها من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي من حديث عبد الله بن واقد السعدي رضي الله عنه قال: وفدت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم في وفدٍ كلّنا يطلب حاجة وكنت آخرهم دخولا على رسول الله صلى الله عليه و سلم؛ فقلت: يا رسول الله إني تركت مَنْ خلفي وهم يزعمون أنّ الهجرة قد انقطعت.

قال: «لا تنقطعُ الهجرةُ ما قُوتل الكفار».

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الهجرة باقية ما بقي في الناس كفارٌ يُقاتَلون ولهم بلاد؛ فمن كان في بلادهم من المسلمين فالهجرة غير منقطعة عليه بل هي إما واجبة عليه إذا كان لا يستطيع إقامة شعائر دينه، وإما مستحبة له إذا كان قادراً على الإقامة ما لم تكن إقامته لمصلحة راجحة ويأمن الفتنة على نفسه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر وهجرة البادي؛ أما البادي فإنه يطيع إذا أُمِرَ ويجيب إذا دُعِي، وأمّا الحاضِرُ، فهو أعظمهما بلية وأفضلهما أجرا». رواه أحمد والنسائي وابن حبان وصححه الألباني.

البادي الذي يقيم في البدو يحل ويرتحل، والحاضر من يسكن في القرى والمدن.

فهجرة البادي أن يطيع إذا أمر ويجيب إذا دعي للجهاد في سبيل الله عز وجل، وأما الحاضر فهو أعظم بلية؛ لأن همة العدو تكون لغزو المدن والقرى فيكون الخطر على ساكنيها أعظم من الخطر على أهل البوادي.

وأما ما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

فالمراد بالهجرة التي انقطعت هنا هي الهجرة إلى المدينة من مكة أو البلاد التي دخلت في دين الله عز وجل في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، فإن العرب لما دخلت في الإسلام أصبحت بلاد العرب بلاد إسلام فلا معنى للهجرة منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح؛ ولكن جهادٌ ونيةٌ؛ وإذا استنفرتم فانفروا» وقال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو» وكلاهما حق.

فالأول أراد به الهجرة المعهودة في زمانه، وهي الهجرة إلى المدينة من مكة وغيرها من أرض العرب؛ فإن هذه الهجرة كانت مشروعةً لما كانت مكة وغيرها دار كفرٍ وحربٍ وكان الإيمان بالمدينة؛ فكانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبةً لمن قدر عليها؛ فلما فتحت مكة وصارت دار الإسلام ودخلت العرب في الإسلام صارت هذه الأرض كلها دار الإسلام فقال: «لا هجرة بعد الفتح»).

وفي الصحيحين من حديث عطاء بن أبي رباح قال: زُرْتُ عائشة مع عبيد بن عُمَير الليثي - وهي مجاورة بثَبير - فسألتها عن الهجرة؛ فقالت: (لا هجرة اليوم؛ كان المؤمنون

يفِرّ أحدُهم بدينه إلى الله عز وجل وإلى رسوله، مخافة أَنْ يُفْتَن عنه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإِسلام، فالمؤمن يَعْبُدُ ربّهُ حيث شاء، ولكن جهاد ونية).

وفي صحيح مسلم من حديث مجاشع بن مسعود السلمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم أبايعه على الهجرة؛ فقال: «إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسلام والجهاد والخير».

وذلك بعد فتح مكة.

وفي صحيح البخاري عن مجاهد بن جبر قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: (إني أريد أن أهاجر إلى الشام).

قال: (لا هجرة ولكن جهاد؛ فانطلق فاعرض نفسك فإن وجدت شيئا وإلا رجعت).

فهذه هي الهجرة التي انقطعت.

وأما الهجرة من بلاد الكفار إلى بلاد المسلمين فباقية لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها.

قال ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني: (**الناس في الهجرة على ثلاثة أضربٍ:**

أحدها: من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾. وهذا وعيدٌ شديدٌ يدل على الوجوب.

ولأن القيام بواجب دينه واجبٌ على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ.

الثاني: من لا هجرة عليه.

وهو من يعجز عنها، إما لمرضٍ، أو إكراهٍ على الإقامة، أو ضعفٍ؛ من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾.

ولا توصف باستحبابٍ؛ لأنها غير مقدورٍ عليها.

والثالث: من تُستحب له، ولا تجب عليه.

وهو من يقدر عليها، لكنه يتمكن من إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم).

ومن لا يمكنه الانتقال إلى بلاد المسلمين أو كان في الانتقال إليها مزيد أذى عليه بسبب تسلط بعض الظلمة وجب عليه الانتقال إلى بلد يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه؛ لأن مقصود الهجرة إقامة الدين.

كما انتقل من انتقل من المؤمنين في الهجرة الأولى من مكة إلى الحبشة لّما كانت تلك البلاد آمنة يحكمها ملك عُرِف من شأنه إقامة العدل وكراهة الظلم، قال محمد بن إسحاق صاحب السيرة: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مَنَعَةٍ من قومه وعمّه لا يصلُ إليه شيءٌ مما يكرَه مما ينال أصحابَه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بأرض الحبشة مَلِكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً). وهذا إسناد حسن.

ومن كان يجد في بعض بلاد المسلمين من الظلم والتضييق ما يمنعه من إقامة دينه فإنه ينتقل إلى الإقامة في البلاد التي يأمن فيها على دينه ونفسه وأهله، ولو كانت من بلاد الكفار حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

❑ قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ فِيهَا بِبَقِيّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ؛ مِثْلِ الزّكَاةِ وَالصّوْمِ وَالحَجّ وَالأَذَانِ وَالجِهَادِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ).

أراد الشيخ رحمه الله أن يبين بهذه الجملة أهمية التوحيد وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أكثر دعوته بمكة إلى التوحيد، فمكث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد قبل أن تفرض كثير من فرائض الإسلام، بل إن الصلاة لم تفرض على هذه الفرض الخمسة إلا بعد البعثة بزمن، وهذا فيه دلالة بيّنة على أهمية التوحيد.

ثم لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بتأسيس الدولة الإسلامية فكان أول ما شرع فيه بناء المسجد ليكون مجتمعاً للمسلمين تقام فيه الصلاة ويخطب فيه في الجمعة وفي النوائب التي تنوب المسلمين فيدعى (الصلاة جامعة) فيجتمع المسلمون فيخطب فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبين لهم ما يريد بيانه.

وشرعت فرائض الإسلام شيئاً فشيئاً تخفيفاً من الله تعالى ورحمة بعباده، وكان بعض تلك الفرائض مأموراً به قبل الهجرة لكن ليس على التفصيل والمقادير المبينة بعد ذلك

فقد ورد الأمر بإيتاء الزكاة في بعض السور المكية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالزكاة والعفاف والصلة وأعمال البر والإحسان كما دل على ذلك قول أبي سفيان لما سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بم يأمركم؟

فقال: (يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف)

قال: (إن يك ما تقول حقاً فإنه نبي). وخبره مخرّج في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فالزكاة المأمور بها كانت على وجه الإجمال، ثم بعد الهجرة فصلت أحكام الزكاة الواجبة وبُيّنَ ما تجب فيه الزكاة وما لا زكاة فيه، والأنصباء والمقادير.

وكذلك الأمر بالعفاف كان مأموراً به على وجه الإجمال ثم بيّن بعد الهجرة الأنكحة المحرمة كالجمع بين الأختين ونكاح نساء الآباء ونكاح المرأة بلا وليّ ونكاح المتعة والشغار وسائر الأنكحة المحرمة.

وكذلك الأذان للصلوات إنما شرع بعد الهجرة وبعد بناء المسجد كما دل على ذلك حديث عبد الله بن عمر وحديث عبد الله بن زيد.

وكذلك الصيام إنما فرض في السنة الثانية للهجرة.

وكذلك الحج فرض في السنة التاسعة وقيل العاشرة للهجرة.

وكذلك القتال لم يؤذن به إلا بعد الهجرة، وبعد أن صار للإسلام حوزة وَمَنَعَة وقوّة.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأمرون بالتوحيد وهو أعظم ما أمر الله به ويأمرون بالعدل والإحسان وأداء الأمانات وأعمال البر ومكارم الأخلاق، وينهون عن الشرك وهو أنكر المنكرات وينهون عن الفساد في الأرض ومساوئ الأخلاق قبل الهجرة وبعدها.

لكن إقامة الحدود والتعزيرات إنما كانت بعد الهجرة بزمن.

❐ قوله: **(أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ- صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ)**.

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بقي في المدينة بعد الهجرة عشر سنين كما دل عليه حديث ابن عباس المتقدم.

وهو في هذه العشر يبين للناس ما نزل إليهم من شرائع دينهم ويجاهد في سبيل الله عز وجل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى توفي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

قال ابن عبد البر: (لا خلاف أنه ولد يوم الاثنين بمكة في ربيع الأول عام الفيل، وأن يوم الاثنين أول يوم أوحى الله إليه فيه، وأنه قدم المدينة في ربيع الأول، قال ابن إسحاق:

(وهو ابن ثلاث وخمسين سنة)، وأنه توفي يوم الاثنين في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة صلى الله عليه وسلم).

وقال النووي: (واتفقوا انه ولد يوم الإثنين في شهر ربيع الأول، وتوفي يوم الإثنين من شهر ربيع الأول).

وقال السهيلي في الروض الأنف وهو من أجلّ كتب السيرة: (واتفقوا أنه توفي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين إلا شيئًا ذكره ابن قتيبة في المعارف (الأربعاء).

قالوا كلهم: (وفي ربيعٍ الأول) غير أنهم قالوا أو قال أكثرهم: (في الثاني عشر من ربيعٍ) ولا يصحُ أن يكون توفي صلى الله عليه وسلم إلا في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة وهو التاسع من ذي الحجة فدخل ذو الحجة يوم الخميس؛ فكان المحرم إما الجمعة وإما السبت:

- فإن كان الجمعة فقد كان صفرٌ إما السبت وإما الأحد.
- فإن كان السبت فقد كان ربيعٌ الأحد أو الاثنين.

وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيعٍ يوم الاثنين بوجه ولا الأربعاء أيضًا كما قال القتبي وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ أنه توفي في الثاني من ربيعٍ الأول وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعةٍ وعشرين فتدبره فإنه صحيحٌ ولم أر أحدًا تفطن له وقد رأيت للخوارزمي أنه توفي عليه السلام في أول يومٍ من ربيعٍ الأول وهذا أقرب في القياس بما ذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنفٍ).

قلت: اقتراض أن الأشهر الثلاثة كلها من تسعة وعشرين بعيد، والأقرب أنه يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول فإن التصحيف من الثاني والعشرين إلى الثاني عشر وارد، وذلك أنه بناء على المعهود من الحساب إما أن يكون شهر صفر ثلاثين يوماً فيكون يوم الإثنين هو تمام الثلاثين من تلك السنة، وإما أن يكون تسعة وعشرين يوماً، ويكون

يوم الإثنين غرة شهر ربيع الأول، ويكون الثاني والعشرين موافقاً ليوم الإثنين، والله تعالى أعلم.

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وعمره ثلاث وستون.

❐ قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ).

أي أن دين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة؛ ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

فضمن الله تعالى حفظ كتابه الكريم نصّاً وبياناً، فلذلك لا يزال هذا القرآن الكريم محفوظاً ولا يزال ما يلزم لبيانه محفوظاً بحفظ الله تعالى لكتابه.

ويدل لذلك أيضاً ما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» هذا لفظ حديث معاوية بن أبي سفيان في صحيح مسلم.

وقد روي هذا الحديث بألفاظ مقاربة في الصحيحين والمسند وغيرها من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: منهم جابر بن عبد الله، والمغيرة بن شعبة، وثوبان بن بجدد، وقرة بن إياس، وسلمة بن نفيل، وزيد بن أرقم، وعمران بن حصين، وأبو بكرة الثقفي، وأبو أمامة الباهلي، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب وغيرهم.

فهو من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا أصل مهم من أصول الدين وهو اعتقاد كمال الدين وحفظه إلى أن تقوم الساعة، وبهذا الأصل يجاب عن شبهات كثيرة يثيرها بعض أهل البدع والزنادقة والملحدين.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب قول النبي صلى الله عليه و سلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» وهم أهل العلم). وهذا تفسير من البخاري رحمه الله.

وقال علي بن المديني: (هم أصحاب الحديث).

والظهور يتناول أهل العلم والجهاد كما صُرِّحَ به في بعض الروايات كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

وفي حديث أبي هريرة: «لا تزال طائفة من أمتي قوّامة على أمرِ الله لا يضرّها من خالفها تقاتلُ أعداءَ الله كلّما ذهبت حربٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قومٍ آخرين حتى تأتيهم الساعة».

وتفسير البخاري رحمه الله صحيح لأنه لا يكون الجهاد إلا على دعوة، ولا تكون الدعوة إلا على علم، فعُلِمَ بذلك أن ظهور العلم أصل ظهور الجهاد.

ولذلك كانت الدعوات الإصلاحية مبناها على العلم أولاً.

وهذه الأحاديث فيها ضمانات عظيمة وإشارات جليلة:

- **فمنها** أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه وأوليائه.
- **ومنها** أن أهل الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.
- **ومنها** أنهم يقاتلون على الحق؛ فمعهم سلاح العلم الذي يُعرف به الحق، ومعهم ما يمكّنهم من القتال الذي ينصرون به على أعدائهم.
- **ومن الإشارات** في هذه الأحاديث أنه يقع لمن قام بهذه الأمور من الدعوة والجهاد خذلان شديد ومخالفة يُبتلَون بها لكنّ ذلك لا يضرهم.

فالخذلان يكون ممن يُتوقع منه النصر والمؤازرة، والمخالفة قد تكون منهم وقد تكون ممن يبدي العداوة والمناوأة.

- **ومما دلّ عليه مفهوم هذه الأحاديث** أن هؤلاء الخاذلين والمخالفين غير منصورين، وإن اغتروا ببعض وسائل العلو في الأرض؛ فإنما هو متاع إلى حين ثم تكون عاقبتهم سيئة.

فمن فقه هذه الأحاديث:

- **أيقن** أن الله تعالى ناصر دينه ولو كره الكافرون، وأن السعيد الموفَّق من جعله الله من أنصار دينه.

- **وأيقن** أن عليه أن يعرف الحق بدليله وأن يكون قوّاماً بأمر الله عز وجل غير عابئ بمن يخذله أو يخالفه ممن أركسهم الله بما كسبوا من المنافقين والكافرين والعصاة المفتونين.

- **وأيقن** أن خذلانهم ومخالفتهم لا تضره بإذن الله.

- **وأيقن** أن فتنة هؤلاء الخاذلين والمخالفين إنما كانت بسبب مخالفتهم لهدى الله عز وجل وإعراضهم عن طلب الهدى واتباعهم الظنّ وما تهوى الأنفس؛ فيشتد خوفه من الوقوع فيما وقعوا فيه.

فيدعوه ذلك إلى الاعتصام بالله عز وجل والرضى به والثقة به جل وعلا ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾

ويدعوه ذلك إلى أن يكون أكبر همّه أن يكون من الذين يعلمون الحق ويعملون به.

وقد ضمن الله تعالى لمن اعتصم به أن يهديه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾

ثلاث بشارات عظيمة كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ فكأن الرحمة والفضل يحيطان بهم من جميع جوانبهم يتقلبون فيهما كيف يشاؤون.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهذه هداية خاصة تقربهم إلى الله تعالى وتدنيهم منه وتعرّفهم بما يحبه الله عز وجل ويرضاه وتعرّفهم بما لم يكونوا ليهتدوا إلى معرفته لولا فضل الله عز وجل من أسباب رحمته وتوفيقه وفضله العظيم في الدنيا والآخرة.

والاعتصام بالشيء اتخاذه عاصماً ومانعاً مما يخشى ضرره، وقد أمر الله تعالى بالاعتصام به، وفي ضمن ذلك وَعْدُه لمن اعتصم به أن يعصِمَه مما يخاف ضرره.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

فالاعتصام بالله يكون باتباع هدى الله عز وجل، في ما بينه في كتابه الكريم وفي ما بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الضرر الذي يخشى في الدنيا والآخرة قد بيّن الله تعالى

في كتابه وفي سنة نبيه أسباب العصمة منه ؛ فمن فعل ما أُمر به وانتهى عما نُهِيَ عنه فقد أخذ بأسباب العصمة، ومن أعرض عن الكتاب والسنة أو وقع في مخالفة الأمر وارتكاب النهي لم يكن معتصماً.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه في خطبة الوداع: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني ؛ فما أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

وقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات.

وفي مستدرك الحاكم وسنن البيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله و سنتي و لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض». صححه الألباني.

والاعتصام بالكتاب والسنة أصل عظيم من أصول أهل السنة والجماعة، وتنبني عليه مسائل كثيرة من مسائل الاعتقاد، وقد ضلّت طوائف من أهل البدع بسبب ضعف اعتصامهم بالكتاب والسنة، بل من الطوائف من قدمت عقولها وأراءها على الكتاب والسنة، ومنها من قدمت أهواءها وأقوال معظميها على صريح دلالة الكتاب والسنة، ومنهم من وقع بسبب ذلك في فتنة التأويل المذموم، ومنهم من وقع في فتنة التفويض.

ومنهم من وقع في فتن أخرى.

ولا عصمة لأحد في اعتقاده إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة ؛ فالمعتصم مهتدي، والمفرّط في الاعتصام عرضة للضلالة، والعياذ بالله.

وأمر الاعتصام بالكتاب والسنة ميسّر ليس فيه عنت ولا مشقة، وما جعل الله علينا في الدين من حرج.

❑ قوله: **(وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا عَنْهُ).**

الإشارة إلى دين الإسلام الذي بيّن في هذه الرسالة معناه وأصوله.

❑ قوله: **(لا خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا عَنْهُ)**

الخير هو ما ينفع الإنسان في دينه أو دنياه.

والشر هو ما يضره في دينه أو دنياه.

فكل ما فيه مصلحة ومنفعة للمؤمن في دينه ودنياه فهو خير.

وكل ما فيه مضرّة ومفسدة فهو شرٌّ.

❑ وقوله: **(لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه)**

هذا يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم».

وهذا الخير إمّا أن يكون مدلولاً عليه بعينه أو بوصفه

وكذلك الشر إما أن يكون منهياً عنه بعينه أو بوصفه

فالمأمور به بعينه أمرُهُ بيّن ظاهر لدلالة النصِّ عليه، وأما المأمور به بوصفه فهو مندرج تحت الأدلة العامة والقواعد الكلية للشريعة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾

والخير لا يخرج عن وصف العدل والإحسان فكل خير فهو مأمور به أمر تكليف بالوجوب أو أمر استحباب أو أمر إباحة.

وما خرج عن هذا الوصف فهو شرٌّ منهي عنه.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل». وقد تقدم شرح الحديث.

❐ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك» عامّ في كل ما ينفع المؤمن في دينه ودنياه؛ وما ينفع فهو خير؛ فدلّ ذلك على أن كلّ خير فقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

ودل مفهومه على أن كل ما يضرّ فهو منهيٌّ عنه كما صرح به في الحديث الجامع: «لا ضرر ولا ضرار» رواه الإمام أحمد وبعض أصحاب السنن من طرق يقوي بعضها بعضاً فروي من حديث أبي سعيد الخدري وعبادة بن الصامت وابن عباس وأبي هريرة، ولا تخلو كل طريق من ضعف، وقد صححه جماعة من أهل العلم بمجموع طرقه.

❐ قوله: **(وَالخَيْرُ الَّذِي دَلّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ عَنْهُ: الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ)**

التوحيد رأس كل خير، قدّمه المؤلِف لأهميته ثم عطف عليه جميع ما يحبه الله ويرضاه؛ فيكون من باب عطف العام على الخاص.

والله تعالى لا يحب إلا ما هو خير، وكل ما أمر الله به فقد أحبّه، وكل ما أحبه الله فهو خير.

وكل ما حذّر الله منه فإن الله يبغضه، وكل ما أبغضه الله فهو شرٌّ.

والشرك هو أعظم ما حذّر الله منه ونهى عنه، فهو رأس الشر، وأكبر الشر، والعياذ بالله من الشرك، فإنه أقبح الذنوب، وأعظم الأوزار، وعقاب فاعله شر العقاب.

❑ قوله: (**بَعَثَهُ اللهُ إلى النّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثّقَلَيْنِ الجنّ وَالإِنْسِ.**

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قلْ يا أَيُّها النّاسُ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]).

عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الجن والإنس أصل مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة.

والأدلة على ذلك كثيرة معلومة منها:

- قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
- وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
- وقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾
- وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾
- وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي:
  - نصرت بالرعب مسيرة شهرٍ.
  - وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل.
  - وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي.
  - وأعطيت الشفاعة.
  - وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

- وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فُضّلْتُ على الأنبياء بستٍّ:
  - أعطيتُ جوامع الكلم.

- ونُصِرْتُ بالرُّعب.
- وأُحِلَّتْ لي الغنائم.
- وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً.
- وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافةً.
- وخُتِمَ بي النبيون».

• وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾

قال: (وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صَلَوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث).

ثم ذكر أدلة في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم تقدم ذكر بعضها.

وهذا الأصل من أنكره فهو كافر لجحده معلوماً من الدين بالضرورة ولتكذيبه ما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:

الأولى: الذين ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أصلاً.

وهؤلاء كمشركي العرب وطوائف من اليهود والنصارى وغيرهم.

الدرجة الثانية: الذين يقرون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم يزعمون أنها للعرب خاصة، وأشهر من عرف عنه هذا القول طائفتان:

- **فأما الطائفة الأولى**: فطائفة يقال لها العيسوية من يهود أصبهان، نسبة إلى زعيم لهم يقال له أبو عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني.
قال ابن حجر في الفتح: (العيسوية طائفة من اليهود حدثت في آخر دولة بني أمية فاعترفوا بأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه و سلم لكن إلى العرب فقط وهم منسوبون إلى رجل يقال له أبو عيسى أحدث لهم ذلك).
وقد نقل ابن حجر عن بعض فقهاء الشافعية أنهم قالوا: (من نطق بالتشهد في الأذان حُكِمَ بإسلامه إلا إذا كان عيسويا).
وهذا القول نقله الكيا الهراسي عن فقهاء الحنفية.
وقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل أن هذه الطائفة لما صارت لها شوكة بأصبهان خرجوا على أبي جعفر المنصور وأحدثوا فتنة وقتلوا خلقاً من المسلمين.
ومما ينبغي التنبه له أن لقب العيسوية يطلق على طوائف أخرى أيضاً.
- **الطائفة الأخرى**: طائفة من النصارى أقروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم لكنهم زعموا أنه رسول إلى العرب فقط، وأنه لا يلزمهم اتباعه.

والرد على هؤلاء بيّن ظاهر؛ فإن إقرارهم بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم يلزمهم بتصديقه فيما يخبر به، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله إلى الناس جميعاً وأنه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن به إلا كان من أصحاب النار.
فإن صدقوه فيما أخبر به لزمهم الإقرار بعموم رسالته، وإن كذّبوه أو خطّؤوه كانوا كفاراً لتكذيبهم إياه.

ومما ينبغي لطالب العلم في هذا العصر أن يتفطن له الدعاوى الكفرية الباطلة التي يروّج لها بعض المنتسبين للإسلام من تصحيح مذهب اليهود والنصارى وأن أصحاب الأديان السماوية غير كفار لأنهم يتبعون رسلاً أرسلهم الله إليهم.

وهذا القول كفر ظاهر فكل من لم يشهد للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة ولم يصدقه فيما يخبر به فهو كافر.

فإقرارهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم تلزمهم تصديقه في جميع ما يخبر به، وقد تقدم ذكر الأدلة على عموم رسالته فمن أنكرها فقد كفر.

❐ قوله: (**وَأَكْمَلَ اللهُ لَهُ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]).

اعتقاد كمال دين الإسلام أصل مهم من أصول أهل السنة والجماعة، وبه أجاب جماعة من الأئمة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء؛ فإن المبتدع إنما حمله على بدعته ما قام في نفسه من عدم كمال الدين.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾

﴿الْيَوْمَ﴾ المقصود به يوم عرفة من حجة الوداع، وهو اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية.

كما في الصحيحين من حديث طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا - معشر اليهود - نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: أي آية؟

قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾

فقال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم جمعة).

فقد جمع الله لنزول هذه الآية خير الأيام من أيام الأسبوع، وخير الأيام من أيام السنة، وخير الأركان من أركان الحج، وأفضل جمع اجتمع من خير أمة أخرجت للناس، فامتنّ الله تعالى على المسلمين في ذلك اليوم بإكمال الدين وإتمام النعمة وَرِضَاه لنا بدين الإسلام

ديناً، والمقصود بالإسلام هنا الدين الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم بإجماع العلماء.

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله عز وجل على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

فلما أكمل الدين لهم تمت النعمة عليهم؛ ولهذا قال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه).

- قوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ النعمة المرادة هنا هي النعمة الخاصة التي اختص الله بها أولياءه وهي نعمة الهداية.

فإن إنعام الله تعالى على عباده على نوعين:

النوع الأول: إنعام عام، وهو إنعام فتنة وابتلاء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الآيتين.

وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وهذا الإنعام عام للمؤمنين والكافرين كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

وهذا الإنعام حجة على العباد ودليل على المنعم جل وعلا ليخلصوا له العبادة ويشكروه على نِعَمِه كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

وقال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

النوع الثاني: الإنعام الخاص، وهو إنعام منّة واجتباء، وهو الإنعام بالهداية إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال، وما يمنُّ به على بعض عباده من أسباب فضله ورحمته وبركاته.

وهذا الإنعام هو المقصود هنا، وفي قول الله تعالى في إرشاده لعباده في أم القرآن: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾ وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

فقوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي نعمة بيان الهدى إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه؛ فهي نعمة تامة غير ناقصة، شاملة جميع ما يحتاجه المسلمون أفراداً وجماعات في أي شأن من شؤونهم، كما قال الله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ حذف متعلق أفعل التفضيل لإرادة العموم؛ أي أقوم في كل شيء يُحتاج إليه من أبواب الدين في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والدعوة والسياسة وغيرها مما تتعلق به حاجة الفرد أو الأمة إلى الهداية إلى ما ينفع ويقرب إلى الله عز وجل، وتتحقق به النجاة والسلامة مما يخشى ضرره كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ

(١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

فدلت الآية على كمال الدين وتمام النعمة الخاصة التي اختص الله بها هذه الأمة، فمَنْ قبِلَها وشكرها كان موعوداً بالخير والفضل العظيم في الدنيا والآخرة، ومن بدّلها وكفرها كان متوعداً بالعذاب الشديد، والخسران المبين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾

فبيّن الله تعالى في هذه الآيات **غاية الكفر وغاية الشكر**

❖ **فغاية الكفر**: هو تبديل النعمة بالكفر والتعرض لسخط الله عز وجل ومقته بالشرك به جل وعلا.

وأعظم هذه النعم نعمة الإسلام فمن رفضه فقد بدّل النعمة أقبح تبديل، وسمِّي ذلك تبديلاً للنعمة لأن من فعل أسباب سلب النعمة وإحلال النقمة محلها مبدّل للنعمة

كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فمن كان على فطرة الإسلام إذا فعل ما يستحق به سلب هذا النعمة فهو مبدّل لهذه النعمة، ومن أتاه البيان إلى ما يحبه الله ويرضاه وما يفوز به العبد في دنياه وأخراه ثم رفضه فهو مبدل للنعمة.

فإنه لما جاءته نعمة الهداية والبيان فردها وزاغ قلبه عنها قصداً وعمداً أزاغ الله قلبه جزاء وفاقاً ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

ومن كان على دين الإسلام ثم ارتد عنه فهو مبدّل للنعمة أقبح تبديل.

فهذا بيان أنواع غاية الكفر، وهو الكفر الذي يخرج به من الملة ويستحق به صاحبه الخلود في النار والعياذ بالله، وهو الذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ الآية

❖ **وأما غاية الشكر:** فما أرشد الله تعالى إليه من إقامة الصلاة والإنفاق في سبيله سراً وجهراً خوفاً وطمعاً وهذا يستلزم تحقيق الإخلاص، ومن فعله فهو من أهل الإحسان في الإسلام.

وبين هاتين المرتبتين - غاية الشكر وغاية الكفر - درجات كثيرة ومنازل للناس يتفاوتون فيها كما سبق تقرير نظائره في مسائل كثيرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المؤمنون من حمده جل وعلا، ولما يقوله الكافرون من نسبة النعمة إلى غيره ظلماً وعلواً.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم وما تعمله جوارحهم من الشكر أو الكفر.

فتبيّن بهذا التقرير وبما تقدم من الأدلة أن الناس يتفاضلون في نصيبهم من هذه النعمة الخاصة على تفاضلهم في طاعة الله والرسول.

وتبيّن أن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله هي الشكر الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه.

وتبيّن أن كمال الدين لا يقتضي كمال جميع المنتسبين إليه، وذلك لتفاوتهم في الطاعة؛ فمن أتم الطاعة فقد استكمل دينه، ومن نقص نقص من دينه بقدره.

قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

- يدل بمنطوقه على أن ما رضيه الله تعالى لنا فهو خير لنا وأصلح وأقوم، لأنه رضا عن علم وحكمة ورحمة؛ فدين الإسلام خير الأديان وأصلحها وأفضلها لنا، وهو دين قد رضيه الله، والله تعالى لا يرضى بما فيه شرٌّ ومفسدة وظلم.

- ويدل بمفهومه على أن غير دين الإسلام لا يرضاه الله لنا.

فكل دين غير دين الإسلام فالله تعالى لا يرضاه، وما لا يرضاه الله فهو غير مقبول ولا نافع لمن اتبعه.

وكمال دين الإسلام يستلزم اعتقاد كمال بيان النبي صلى الله عليه وسلم لأمور الدين، وأن بيانه لأمور الدين أتم البيان وأحسنه.

وهذا أصل مهم يرد به على أهل البدع والأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فلم يترك صلى الله عليه وسلم شيئا من أمور الدين وقواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بيّنه وبلّغه على كماله وتمامه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه، إذ لا خلاف بين فرق الأمة أنّ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال).

وقال أيضاً: (ومما جاء به الرسول: إخباره بأنه تعالى قد أكمل الدين بقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.

ومما جاء به الرسول: أمر الله له بالبلاغ المبين كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ومعلومٌ أنه قد بلّغ الرسالة كما أُمِر، ولم يكتم منها شيئًا؛ فإنّ كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة؛ كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة.

ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصومٌ من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصومٌ من الكذب فيها.

والأمة تشهد له بأنه بلَّغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل إليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين؛ وإنما كَمُلَ بما بَلّغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه؛ فعُلِمَ أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ».

وقال: «ما تركت من شيءٍ يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، وما تركت من شيءٍ يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به».

وقال أبو ذر: (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائرٌ يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا)).

❖ وأنا أحبُّ أن أنبه طلاب العلم إلى أن هذه الأمور وإن كانت من أوضح الواضحات في دين الإسلام إلا أن تقريرها مهم جداً لطلاب العلم، ومن أحسن معرفة هذا الأصل والاستدلال له رد جميع البدع بإذن الله جل وعلا، وقد كان كثير من أئمة أهل السنة والجماعة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء يفحمونهم بهذا الأصل؛ لأنهم إن اعتقدوا كمال الدين خُصِموا، وإن اعتقدوا نقصانَه كفروا.

وقد كان من أعظم ما ذكر من الأسباب في رفع محنة القول بخلق القرآن في زمان الخليفة العباسي الواثق بالله مناظرة جرت على هذا الأصل العظيم بين شيخ من أهل السنة يقال له أبو عبد الرحمن الأذرمي، وشيخ المعتزلة أحمد بن أبي دؤاد الذي دعا خلفاء بني العباس إلى القول بخلق القرآن وإلزام العلماء والناس بالقول به.

وهذه الحكاية ذكرها جماعة من أهل العلم منهم الآجري في كتاب الشريعة والخطيب البغدادي وابن قدامة في اللمعة وغيرهم، وقد جرت هذه المناظرة في مجلس الخليفة الواثق بالله.

وأجتزئ منها هذا القَدْرَ وهو مما ذكره الآجري في كتاب الشريعة:

قال: فقال الشيخ مخاطباً أحمد بن أبي دؤاد عن مقالته المبتدعة.

قال: أخبرني يا أحمد عن مقالتك هذه، أواجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال: نعم

قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله تعالى إلى عباده، هل ستَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمر الله تعالى به في دينه؟

قال: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة إلى مقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: تكلم فسكت.

فالتفت الشيخ إلى الواثق؛ فقال: يا أمير المؤمنين، واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله تعالى حين أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾

أكان الله تعالى الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟

فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يجبه.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، اثنتان فقال الواثق: اثنتان).

إلى آخر قصة المناظرة وهي طويلة.

لكن أردت نقل هذا المقدار منها ليتبيَّن طالب العلم أهمية هذا الأصل، وهو اعتقاد كمال دين الإسلام.

وأنه أصل مهم من أصول الدين يردُّ به على أصحاب البدع والأهواء وكلٍّ من يطعن في دين الإسلام أو شيء من أحكامه وحدوده أو ادعى عدم مناسبته لعصر من العصور أو لبلد من البلدان.

والمخالفون في هذا الأصل على درجتين:

الدرجة الأولى: الذين يعتقدون عدم كمال الدين، وهؤلاء كفار لتكذيبهم خبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الدرجة الثانية: الذين يعتقدون كمال الدين لكنهم يخالفون ما يقتضيه كمال الدين من تجريد المتابعة؛ فيحدثون في أمور الدين ما لم يأذن به الله لشُبهٍ عرضت لهم بسبب ضعف فقههم في الدين وجرأتهم على القول في الدين بلا علم، وهؤلاء هم أهل البدع والأهواء وهم مذمومون على هذه المخالفة متعرضون لخطر عظيم بسبب بدعهم.

وأما تكفيرهم في كثير من المسائل فيمنع منه ما عرض لهم من الشُبَّه، وإلا لو صرحوا بأن الدين غير كامل لكانوا كفاراً بهذا الاعتقاد.

قال الشاطبي في الاعتصام: (الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.

وفي حديث العرباض بن سارية: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الراشدين من بعدي...» الحديث.

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجهٍ لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً».

❑ قوله: (**وَالدّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وسَلّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنّكَ مَيّتٌ وَإِنّهُمْ مَيّتُونَ (٣٠) ثُمّ إِنّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١]).

موت النبي صلى الله عليه وسلم قد حصل في السنة الحادية عشرة من الهجرة في شهر ربيع الأول، وهو أمر مجمع عليه.

وموته صلى الله عليه وسلم من علامات الساعة كما في الصحيحين من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قُبّةٍ من أَدَمٍ فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتانٌ يأخذ بكم كقُعَاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنةٌ لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنةٌ تكون بينكم وبين بنى الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً».

وهذه الآية من الآيات التي تلاها أبو بكر رضي الله في خطبته لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلف الناس في هذا الأمر الجلل كما في صحيح البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنْحِ - يعني بالعالية - فقام عمر يقول: (والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم)

قالت: وقال عمر: ما كان يقع في نفسي إلا ذاك – (وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم)

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقَبّلَه.

قال: (بأبي أنت طِبْتَ حيّاً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقنك الله الموتتين أبداً).

ثم خرج فقال: (أيها الحالف على رسلك)

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر.

فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه وقال: (ألا من كان يعبد محمداً؛ فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموت)، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا

مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

قال: فنشج الناس يبكون.

وفي مصنف بن أبي شيبة أن عبد الله بن عمر قال: (فو الله الذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله جل وعلا أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر؛ فتلقاها منه الناس كلهم؛ فلم تسمع بشرا إلا يتلوها).

وفي صحيح البخاري أيضاً: قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وأهويت إلى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد مات)

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، والتعبير عن ذلك بصيغة الخبر المفرد لبيان تحتم وقوعه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾

أي: سيردها.

﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي جميع العباد. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

الخصومة شاملة لجميع ما يختصم فيه من أمور الدين والدنيا، كاختصام المؤمنين والكافرين، واختصام المظلومين والظالمين، واختصام الرعية والرعاة، وغيرهم.

قال ابن كثير رحمه الله: (ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم في الدار الآخرة- فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة).

ومسألة موت النبي صلى الله عليه وسلم يخالف فيها بعض المتصوفة الذين يلبسون على بعض الجهلة؛ فيعظمون أنفسهم ويزعمون أنهم أولياء وأنهم يلتقون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتحدثون معه، ويسمون ذلك اللقاء بالحضرة النبوية، ولهم في ذلك أساطير وأباطيل يغرّون بها السذج والعوام ويتصدرون بها المجالس، ويأكلون بها أموال الناس باطلاً.

ومنهم من إذا تحدث مع العوام ينكر ذلك، وإذا تحدث مع خواصّه زعم أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن للشريعة أسراراً لا يعرفها إلا أفراد قليلون، ولهم في ذلك طرق متنوعة في الضلال، نسأل الله العافية.

❑ قوله: (**وَالنّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧- ١٨]).

مسألة البعث من المسائل الجليلة العظيمة في دين الإسلام، بل هي أصل من أصول الإيمان والذي لايؤمن بالبعث بعد الموت لايؤمن بما يترتب عليه من الحساب والجزاء.

ولأهمية هذا الأصل وشناعة كفر من كذّب به تكرر التأكيد عليه في القرآن العظيم كثيراً، وأكّد الله تعالى بيان البعث بأنواع من الأدلة والتأكيدات:

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ فبيّن صحة البعث بالقَسَم، وهذا تأكيد لوقوعه.
- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فبيّن أن بدأه لخلقنا من

تراب، ثم من نطفة دليل على أنه قادر على أن يبعثنا بعد الموت؛ فالذي خلقنا ولم نكن من قبل شيئا، قادر على أن يعيدنا إلى الحياة الدنيا بعد موتنا، فهذا استدلال بالبدء على إمكان الإعادة، وهو دليل عظيم القدر تكرر تأكيده في القرآن كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

- وقال تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ فبين لنا مثالا مما نراه بأعيننا، وهو إحياء الأرض بالماء والنبات بعد موتها، فالذي أحياها قادر على أن يحيي الموتى، وهذا استدلال بالنظير؛ فالذي يقدر على هذا الأمر يقدر على نظيره.
- وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا استدلالٌ بالأولى، فإنّ من قدر على خلق الأكبر والأشد قادر على خلق ما هو دونه، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا استدلال بالقدرة المطلقة التي يعجزها شيء.
- وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ فاستدل هنا بدليل الحكمة والغاية، فإن الله لم يخلق هذا الخلق العظيم عبثا، وإنما خلقه لحكمة عظيمة، فالعاقل يسأل نفسه لم خلق؟ ولماذا خلق الله هذه لمخلوقات؟

فانظر كيف نوّع الله تعالى هذه الأدلة في كتابه الكريم، تأكيداً لوقوع البعث، وأنه حق لا ريب فيه.

وهذه الأدلة مجموعة في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

فتضمنت هذه الآيات، ذكر أنواع من الأدلة على البعث: فذكر دليل البدء، ودليل النظير، ودليل الأولى، ودليل القدرة المطلقة، ودليل الحكمة والتنزيه عن العبث، فهذه أدلة ظاهرة من تأملها أيقن يقينا تاما بالبعث.

والإيمان بالبعث يستلزم الإيمان بما يكون بعده من الحساب والجزاء.

❐ قوله: **(وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]).

الإيمان بالحساب والجزاء أصل مهم من أصول الإيمان، وهو من الإيمان بالغيب.

والحساب والجزاء من أعظم ما يكون يوم القيامة بل لعظم ذلك سمي يوم القيامة بيوم الحساب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

وسمي بيوم الدّين أي الحساب والجزاء الذي يدان فيه الناس بأعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

وتوعّد الله تعالى من أنكر البعث والحساب بالنار فقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

سؤالهم: (أيان يوم الدين) سؤال تعجب وإنكار وتعجيز واستبعاد لوقوعه حتى إنهم من فرط تكذيبهم وإنكارهم يستعجلونه فيقولون للمؤمنين ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾

فبكّتهم الله بهذه الآيات، وتوعّدهم على تكذيبهم وغفلتهم عن يوم الحساب الوعيدَ الشديد والعذاب الأليم.

والإيمان بالحساب والجزاء له آثاره على المؤمن في عباداته وسلوكه فإنّ من يعلم أن ما يعمله من خير أو شر سيحاسب عليه ويجزى به فإنه حري به أن يجتهد في اكتساب الأعمال الصالحة رجاء انتفاعه بها يوم الحساب والجزاء، ويجتنب السيئات مخافة عقوبتها يوم الحساب والجزاء.

ويحمله ذلك على:

- إحسان معاملته للناس ابتغاء ثواب الله عز وجل.
- واجتناب الظلم والعداون مخافة أن يجازى على ظلمه لهم فيقتصوا منه يوم القيامة بما يُعطون من حسناته أو يُلقى إليه من سيئاتهم.

وبهذا يتبيّن أن العبد لا يعاقب إلا بأحد سببين:

السبب الأول: تقصيره في حق الله عز وجل، بارتكابه بعض المحرمات، أو تركه بعض الواجبات؛ فيعذب على ذلك ما لم يعمل ما يرفع عنه العذاب من توبة صادقة أو حسنات ماحيةٍ للسيئات أو يدركه سببٌ يرفع الله به عنه العذاب.

السبب الآخر: تقصيره في حقوق الناس ؛ إما بمنعهم ما يستحقون من الحقوق الواجبة لهم عليه، أو الاعتداء عليهم بقول أو فعل، وكلاهما ظلم ؛ فإن الظلم يشمل منع المستحق حقَّه، والعدوان على المعصوم.

فمنْ أدّى حقّ الله عزّ وجلّ وحقّ عباده فإنه لا يُعاقب أبداً ؛ لأن العقوبة لا تكون إلا على ذنب ؛ والذنب إما أن يكون في حق الله عز وجل، وإما أن يكون في حق عباده.

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما ينجّي المؤمن من العذاب بوصية جامعة فقال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». رواه أحمد والترمذي وغيرهما من حديث معاذ بن جبل وحديث أبي ذر رضي الله عنهما.

وباب الإيمان بالحساب والجزاء له تفاصيل ذكرها الأئمة في كتب الاعتقاد وذكرها المفسرون وشراح الأحاديث، وفيها مسائل جليلة ينبغي للعبد أن يتأملها ويعتني بها، وقد ذكر بعض أهل العلم أن علم الجزاء ثلث العلم، كما قال ابن القيم رحمه الله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان

فجعل **العلوم ثلاثة**: علم العقيدة وعلم الشريعة وعلم الجزاء.

ولو أنه قال: (وجزاؤه بالعدل والإحسان) لكان أجود، ليعم الجزاء الدنيوي والأخروي، وليبين أن جزاء الله تعالى لا ظلم فيه بل هو مبني على العدل والإحسان.

والمقصود أن علم الجزاء من العلوم الجليلة النافعة لأنه العلم الذي يَعرف به العبدُ ثوابَ حسناته وعقاب سيئاته، وسُبُلَ مضاعفة الحسنات والوقاية من السيئات وعقوباتها.

وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك رسالة جليلة نافعة طبعت باسم (الحسنة والسيئة).

وله رسالة في (مكفِّرات الذنوب).

ومقصود هذا الفصل من هذا الدرس هو بيان وجوب الإيمان بالحساب والجزاء، وأنَّ من أنكره فهو كافرٌ كفراً أكبر بإجماع العلماء.

وأن المؤمن يجب عليه أن يجتنب ما يعاقب عليه يوم الحساب.

🗎 وسأذكر لكم خلاصات نافعة لأهم المسائل في هذا الباب تدل الطالب اللبيب على ما وارءها، وتكون دراسته لما بعدها في كتب الاعتقاد زيادة تفصيل وبيان على أصول قد عرفها وتبيَّنها.

• من ذلك أن الله تعالى وصفَ نفسه بأنه سريع الحساب وأنه أسرع الحاسبين كما في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾

قال البغوي: (﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد).

قال ابن تيمية: (قال رجل لابن عباس رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في ساعة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في ساعة واحدة).

• حساب الله تعالى مبني على العدل والإحسان ليس فيه ظلم على أحد من العباد مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

• بيّن الله تعالى قواعد الحساب في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾

وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

• **الحساب يوم القيامة على نوعين:** حساب عسير، وحساب يسير

➢ فأما **الحساب اليسير** فهو لأهل الإيمان، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حوسب يوم القيامة عُذّب».

قالت: فقلت: (أليس قال الله عز و جل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟).

قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».

• العباد غير معصومين من السيئات حتى المحسنين منهم تكون لهم سيئات لكن يتجاوز الله عنها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

• إن من اجتنب الكبائر كُفِّرَت عنه سيئاته فضلاً من الله ورحمة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾، ولذلك فإن من اجتنب الكبائر فهو ناجٍ بإذن الله من العذاب لأن سيئاته تُكفَّر عنه.

• أما الذي لا يجتنب الكبائر فإنه لا يأمن العذاب على ما اقترف من الكبائر والصغائر.

كل ما يعمله العبد من السيئات فإنه يجزى به كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

وهذا الجزاء إما أن يعاقب به العبد المسيء في الدنيا أو في الآخرة، أو يعمل العبد ما يمحو عنه السيئات من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، أو يناله سببٌ يرفع الله به عنه عقوبة السيئات من دعوة مسلم أو شفاعة شافع أو رحمة أرحم الراحمين.

• امتدح الله عباده المؤمنين بأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ وهذا الخوف يحملهم على التقوى بعمل الصالحات واجتناب السيئات.

وسوء الحساب هو أن يناقش العبد بسيئاته ثم يجازى عليها ؛ فإنه لا طاقة لأحد بعذاب الله.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾، يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده).

وليس معنى سوء الحساب أن الله يظلمهم، تعالى الله عن ذلك، بل إن الله يوفي كل إنسان عمله لا ينقص منه شيء.

بل سماه الله تعالى الجزاء الأوفى الذي لا أوفى منه، فلا يغادر الله فيه حسنة وإن كانت مثقال ذرة، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا.

• دلت النصوص على أن **الأمة على ثلاثة أصناف في الحساب:**

الصنف الأول: من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

الصنف الثاني: من يحاسب حساباً يسيراً، فينظر في كتابه ويكلمه ربه ويقرره بذنوبه ثم يعفو عنه.

وهذا المقام ينبغي للعبد أن يتزيّن له بما يستطيع من الأعمال الصالحة، ويتجنب ما يشينه ويسوؤه من الأعمال السيئة، فإنه مقام حقّ، يود العبد فيه أنه لم يعمل سوءاً قط.

كما في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربُّه عزّ وجلّ ليس بينه وبينه تُرجمان؛ فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

قال الفضيل بن عياض: (واسوأتاه منك وإن عفوت).

الصنف الثالث: الذين يُناقَشون الحساب، ومناقشة الحساب في نفسها عذاب، ثم ما يكون بعدها من العقوبة على السيئات عذاب أيضاً، والذين يؤمر بهم إلى العذاب هم الذين ظلموا أنفسهم من أهل الكبائر؛ ومنهم من تدركه رحمة أرحم الراحمين وشفاعة الشافعين فينجو ويسلم ومنهم من يُكَرْدَسُ في النار فيعذب فيها ما شاء الله أن يعذب ثم يَخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث موسى بن عقبة عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا بالخيرات فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ - إلى قوله- ﴿لغوب﴾».

وهذا الحديث قد روي من طرق عن أبي الدرداء هذا أجودها، وقيل: فيه انقطاع، وله شواهد، وهو موافق لنصوص الكتاب والسنة والله تعالى أعلم.

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يحاسب الله تعالى الخلقَ، ويخلو بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه؛ كما وُصِفَ ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار ؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعدُّ أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها) ا.هـ.

• الحساب العسير الذي لا تيسير بعده إنما هو للكافرين والمنافقين كما دل عليه مفهوم آيات الانشقاق، مع قوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصّنّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ وقوله: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾.

• جزاء الله تعالى للمؤمنين بالنعيم إحسان منه وفضل لأنهم لا يستحقون الثواب استحقاقاً على الله ؛ فهم عبيده، وقد خلقهم لطاعته لا يستوجبون عليه شيئاً، وأعمالهم في طاعة الله مهما بلغت لا توازي شكر نعمه عليهم ولا تقاربها.

لكنَّ الله تعالى وعدهم وعداً حسناً أن يثيبهم على ما يعملون من الحسنات، والله تعالى لا يخلف الميعاد.

فيكون دخول المؤمنين للجنة إنما هو برحمة الله عز وجل وفضله وإحسانه ليس عن استحقاق في الأصل عليه.

وجزاء الله تعالى للكفار والظالمين عدل منه جل وعلا لم يظلمهم فيه شيئاً.

حتى إن الكفار أنفسهم يعلمون أنهم مستحقون للعذاب بسبب ما كانوا يعملون من السيئات وما اقترفوه من الكفر بالله جل وعلا، حتى إنهم ليمقتون أنفسهم مقتاً شديداً على ما فرطوا في جنب الله.

والمقصود أن جزاء الله تعالى دائر بين العدل والإحسان لا ظلم فيه بوجه من الوجوه.

وقد بيّن الله تعالى الآيات والعظات وأرسل الرسل لينذروا هذا اليوم فمن استجاب وأناب تذكَّر وتبصّر وسلك طريق النجاة فأفلح ونجا، ومن أعرض ونأى بجانبه وكفر بالله من بعد ما دعي إلى الإيمان فهو مستحق للعذاب الأليم والمقت الكبير

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾

❑ قوله: (**وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].).

المكذب بالبعث كافر، وقد **استدل على كفره بأمرين:**

الأمر الأول: لأنه مكذب لخبر الله عز وجل وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثاني: أن الله تعالى وصف القائلين بهذا بالقول بأنهم كفار فقال: ﴿زَعَمَ الذينَ كَفَرُوا﴾.

وهذا الاستدلال مبني على قاعدة من قواعد التفسير، وهي أنه إذا حُكِيَ في القرآن قولٌ أو فعلٌ عن قوم عُبِّر عنهم بوصف من الأوصاف فقولهم وفعلهم محكوم عليه بهذا الوصف.

فإذا قيل: قال الكافرون؛ فالقول المحكي عنهم كفر، فمن يقول به فهو كافر.

مثاله قوله تعالى: ﴿وقالَ الكافِرونَ هَذا سَاحِرٌ كَذَّاب﴾

فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ساحر أو كذاب فهو كافر.

وقوله: ﴿إنَّ الذين كَفروا يُنفِقُون أمْوالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ﴾
فمن حارب دين الله عز وجل بماله فهو كافر، إذا كان قصد الصدّ عن توحيد الله عز وجل ومحاربة الدين وظهور الكفر والشرك.

وأما من قصد الصدّ عن بعض الطاعات وظهور بعض مظاهر الفسق دون أن يقصد الصد عن توحيد الله عز وجل وظهور الشرك فهو على خطر عظيم ولا يجزم بكفره.
ومنه قوله تعالى: ﴿ومَن يَدع مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لهُ بِهِ فإنما حِسَابهُ عِند ربّه إنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرون﴾ فدعاء غير الله عز وجل هو من فعل الكفار الذين حكم الله تعالى عليهم بأنهم لا يفلحون.
وقوله: ﴿وقالَ الذين كفروا إن هذا إلا إِفْك افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْم آخَرُون فقد جاؤوا ظُلْماً وزُوراً﴾ فمن قال بأن الرسول صلى الله عليه وسلم افترى القرآن على ربه فهو كافر.
ومنه قوله: ﴿وقال الظالمون إنْ تَتَّبِعُون إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم مسحور في دعوته يدعو إلى ما لا يعقله وإنما تتلبس به الشياطين وتلقي إليه ما يقول ويدعو إليه فهو ظالمٌ بهذا القول، بخلاف ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه سُحر سحراً لم يؤثر على تبليغ دعوته.
وهذا الظلم هو من الظلم الأكبر المخرج عن الملة.
وقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهم بغَيْرِ عِلْم﴾ فالذي يتبع هواه بغير علم فهو ظالم.
ومنه هذا المثال: ﴿زَعَمَ الّذِينَ كَفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ فمن زعم أنه لن يبعث فهو كافر؛ لأنه قال بالمقالة التي وصف الله القائلين بها بأنهم كفار.
وهذه القاعدة صحيحة في الأصل ولها استثناءات.
والاستدلال الأول أصح وأقوى دلالة.
وقد أجمع أهل العلم على كفر من كذب بالبعث.

هذا والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع عشر: مسائل مهمة (٢/٢)

عناصر الدرس:

١: مقاصد إرسال الرسل.

- حكم أهل الفترة.

٢: أول الرسل وآخرهم.

٣: معنى الطاغوت.

٤: رؤوس الطواغيت.

٥: (لا إكراه في الدين).

٦: العروة الوثقى.

٧: رأس الأمر الإسلام.

قال رحمه الله: **(وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.**

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأَوَّلُهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَالدّلِيلُ عَلَى أَنّ نُوحاً أَوّلُ الرُّسُلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوحٍ إِلى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ - يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَمَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ، مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ).

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:

- إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ.
- وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ.
- وَمَنِ ادّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ.
- وَمَنْ دَعَا النّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ.
- وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ».

وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّمَ).

❑ قوله: (وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَأَوّلُهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمّدٌ عَلَيْهِمُ الصّلاَةُ وَالسّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النّبِيِّينَ، لاَ نَبِيّ بَعْدَهُ.

وَالدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللّهِ وخَاتَمَ النّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَالدّلِيلُ عَلَى أَنّ نُوحاً أَوّلُ الرُّسُلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]).

❑ ١: مقاصد إرسال الرسل.

أرسل الله تعالى الرسل لحكم ثلاثة جمعها الله تعالى في قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرّسُلِ﴾

وقوله: ﴿كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ﴾

وتلخص منها أن **مقاصد إرسال الرسل ثلاثة:**

المقصد الأول: إقامة الحجة على العباد ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

المقصد الثاني: تبشير من يطيع الله ورسله.

المقصد الثالث: إنذار العصاة.

وهذه المقاصد يُجمع بعضها في بعض المواضع ويفرد بعضها، وكل مقصد منها إذا أفرد فهو دال على غيره.

- فإقامة الحجة تتضمن البشارة والنذارة.
- والبشارة إذا أفردت فمن لم يحقق شروطها فهو خاسر، وفي هذا حجة ونذارة.
- وكذلك النذارة فإن من اجتنب ما أنذر عليه فهو آمن من العذاب المنذر به وفي هذا حجة وبشارة.

ولذلك ربما أفردت بعض المقاصد في بعض المواضع دون بعض.

وَفَهْمُ هذا يزيل ما قد يُستشكَل من اختلاف وصف الحصر في بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ في موضعين، ولم يذكر إقامة الحجة لفظاً لأنه لازم معنىً من وعد البشارة والوعيد على النذارة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾، وقوله: ﴿إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

وكذلك شهادة كل رسول على أمته هي قائمة على هذه الأمور الثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾

فدعوة الرسل متضمنة لبيان الأوامر والنواهي وما يترتب عليها من البشارة والنذارة، وبيانهم ودعوتهم هي إقامة الحجة على من أرسلوا إليهم، وشهادتهم عليهم يوم القيامة هي من مقتضى إقامة الحجة لأنهم يشهدون عليهم بما أجابوهم به.

- **فأما المقصد الأول: وهو إقامة الحجة** فإن الله عز وجل بيّن أنه من عدله أنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة، وأنه لا يعذب أحداً قبل أن يرسل إليه رسولاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾

غافلون: أي غير عارفين بما يجب عليهم مما أوجبه الله من الإيمان به واتباع رسله.

وقال الشنقيطي رحمه: (قوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ الآية، لم يبين هنا ما هذه الحجة التي كانت تكون للناس عليه لو عذّبهم دون إنذارهم على ألسنة الرسل، ولكنه بينها في سورة طه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾، وأشار لها في سورة القصص بقوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾).

وقد بيّن الله تعالى أنّ كل من يدخل النار من الكفار فقد قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل وعرفوا ما وجب عليهم وما أنذروا به لكنهم كذبوا واستكبروا أو اتبعوا المستكبرين كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

فاعترفوا بذنبهم وأقروا بقيام الحجة عليهم ولم يجدوا إلا لوم أنفسهم فقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فهؤلاء المستضعَفون لم ينكروا أن الهدى قد جاءهم، وعرفوا أنهم كانوا مجرمين بعصيانهم للرسل وكفرهم بالله جل وعلا، ولذلك ندموا حين لا تنفعهم الندامة.

وقال تعالى مبيّنا ما يقوله للكفار من الإنس والجن يوم يحشرهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾

قال ابن جرير رحمه الله: (فقطع حجة كلّ مبطل ألحدَ في توحيده وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذرَه، إعذارًا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه).

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين».
فالحجة تقوم على الخلق بإرسال الرسل؛ فما جاء به الرسل فهو لازم للناس، ومن خالفهم بأي حجة يتحجج بها فحجته داحضة باطلة.

وهذا أصل مهم من أصول أهل السنة، **وقد خالف فيه وفي بعض تفاصيله طوائف من أهل البدع وأشهرهم طائفتان:**

الطائفة الأولى: بعض المتكلمين - أصحاب علم الكلام – الذين زعموا أن الحجة قائمة بالعقل والفطرة، وأن الخلق لو عُذِّبوا دون إرسال الرسل لكان ذلك عدلاً.
ومن هؤلاء من يقول: إنْ تعارض العقل والنقل كان الواجب تقديم العقل.
والطائفة الأخرى: بعض غلاة المتصوفة الذين زعموا أنهم يأخذون بالإلهام عن ربهم مباشرة دون واسطة رسول، ومنهم من يقول: حدثني قلبي عن ربي.
وكل من زعم أنه يسعه الخروج عن طاعة الرسول فهو كافر.

- المقصد الثاني: البشارة

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، وبيّن هذا الفضل الكبير بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾
فقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: البشارة لمن اتصف بالإيمان بالفضل الكبير في جنات النعيم.

الأمر الثاني: النذارة لمن لم يتصف بالإيمان؛ فإن البشارة لا تناله، ومن حرم ثواب البشارة فهو خاسر.

الأمر الثالث: أن معرفة الإيمان إنما تنال عن طريق الرسول الذي بلغهم البشارة، فهم لا يعرفون كيف يؤمنون إلا من طريقه.

فتبين أن هذه المقاصد يدل بعضها على بعض، وأن القرآن يصدق بعضه بعضها، وأن العبارة الواحدة تدل على معان كثيرة يصدق بعضها بعضا.

- المقصد الثالث: الإنذار

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

وهذه النذارة على درجتين:

الدرجة الأولى: النذارة للكفار بالخلود في النار وتحريم الجنة عليهم أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾

الدرجة الثانية: إنذار العصاة بما عليهم من العذاب، وقد أنذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الذنوب كبيرها وصغيرها، وخص الكبائر بمزيد تحذير وإنذار وبيّن عقوبة بعضها، فمن ارتكبها بعدما بلغه العلم فهو مستحق للعقاب، والعياذ بالله.

نسأل الله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتنا وتقصيرنا، وأن يغفر لنا ويرحمنا ويهدينا إليه صراطاً مستقيما.

- حكم أهل الفترة

من المسائل المتصلة بهذا المبحث ما يعرف بمسألة حكم أهل الفترة.

وهذه المسألة قد أفاض فيها أهل العلم، ومنها مسائل متفق عليها، ومسائل مختلف فيها، وقبل بحث هذه المسألة **ينبغي التذكير بأصلين مهمين:**

• **الأصل الأول**: أن كل أمة قد بعث فيها نذير كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾

وهذا العموم الوارد في الأمم لا يعارضه وجود أفراد لم تبلغهم الرسالة لأسباب عارضة اقتضتها حكمة الله تعالى.

• **الأصل الثاني**: أن الله تعالى قد اقتضى عدله ألا يعذب أحداً لم تقم عليه الحجة الرسالية كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».

دل الحديث بمنطوقه على أن من بلغته الحجة ولم يؤمن فهو من أهل النار، ودل بمفهومه على أن من لم تبلغه الحجة الرسالية فلا يقع عليه هذا الوعيد.

- واسم هذه المسألة وهو حكم أهل الفترة أُخِذَ من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

والمقصود بالفترة انقطاع إرسال الرسل مدة طويلة من الزمن.

= قال ابن جرير: (﴿على فترة من الرسل﴾ يقول: على انقطاع من الرسل، و"الفَترة" في هذا الموضع: الانقطاع؛ يقول: قد جاءكم رسولنا يبين لكم الحق والهدى، على انقطاع من الرسل.

و"**الفَترة**": الفَعْلَة، من قول القائل: "فتر هذا الأمر يفتُر فُتورًا"، وذلك إذا هدأ وسكن. وكذلك"الفترة" في هذا الموضع، معناها: السكون، يراد به سكون مجيء الرسل، وذلك انقطاعها). ا.هـ.

= وقال أبو المظفر السمعاني: (وإنما سماه زمان الفترة، لأن الرسل كانوا بعد موسى تترى من غير انقطاع، ولم يكن بعد عيسى رسول سوى محمد).

= وقال ابن حجر: (وزمان الفترة هو ما بين الرسولين من المدة التي لا وحي فيها).

= وقال عامة المفسرين في هذه الآية بنحو ما قاله ابن جرير، بل نقل بعضهم الإجماع عليه.

و**أهل الفترة الكبرى** هم من مات في الزمن الذي بين رفع عيسى عليه السلام وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

لكن مما ينبغي التنبه له أن كون المرء من أهل الفترة لا يقتضي ذلك الحكم بكفره ولا إسلامه، **والتفصيل في شأنهم أنهم على ثلاثة أقسام:**

- **قسم مسلمون متبعون لما بلغهم من الهدى بشريعة سابقة**، ومنهم من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بخير كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل.

- **وقسم كفار كذبوا الرسل وقامت عليهم الحجة من دعوة بلغتهم بطريق صحيح**، وعلى هذا القسم تحمل الأحاديث الواردة في الحكم على بعض الكفار الذين ماتوا في الفترة بالنار.

- **وقسم لم تبلغهم الدعوة** فهؤلاء هم الذين وردت فيهم أحاديث الامتحان، وقد روي في مسألة الامتحان نحو سبعة أحاديث ثلاثة منها صحيحة والأخرى في طرقها ضعف.

فأما الثلاثة الصحيحة فحديث عن الأسود بن سريع رضي الله عنه، وحديثان عن أبي هريرة رضي الله عنه أحدهما مرفوع، والآخر موقوف له حكم الرفع.

فأما **الحديث الأول**: فهو ما رواه معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة؛ رجل أصم، ورجل هرم، ورجل أحمق، ورجل مات في الفترة؛

- فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً.
- وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر.
- وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل.

- وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول.

فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه؛ فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار».

قال: «فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم بردا وسلاما».

أخرجه: الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة، والبزار، وابن حبان، وأبو نعيم الأصبهاني، والطبراني، والضياء المقدسي، وابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد كلهم من طريق معاذ بن هشام به.

وأما **الحديث الثاني**: فهو ما رواه الإمام أحمد، ومحمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة، وابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد من طريق معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً نحوه إلا أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها».

قال البيهقي: (وهذا إسناد صحيح).

والحديث صححه الألباني.

وأما **الحديث الثالث**: فهو ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام ثم أرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار).

قال: فيقولون: كيف ولم يأتنا رسول؟

قال: (وايم الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاماً.

ثم يرسل إليهم فيطيعه من كان يريد أن يطيعه.

قال: ثم قال أبو هريرة: (اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾).

وهذا إسناد صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً عليه، ومثله لا يقال بالرأي، وقد رواه من هذا الطريق محمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة.

قال ابن القيم: (غاية ما يُقَدّر فيه أنه موقوف على الصحابي ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي).

وقد صحت الرواية بمعناه عن أبي هريرة مرفوعاً من طريق آخر كما تقدم.

وروي في هذا المعنى أحاديث أخرى عن أنس وثوبان وأبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم وفي طرقها كلها ضعف.

قال ابن القيم: (هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا فإنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله لم يتكلم بها وقد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها).

وممن صحّحَ مسألة الامتحان: ابن حزم في الإحكام، والبيهقي في الاعتقاد، وعبد الحق الأشبيلي في الغاية، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر، والألباني.

واحتج بها محمد بن نصر المروزي في الرد على ابن قتيبة.

ومما ينبغي معرفته أن هذه المسألة أُلحِقَ بها من مات ولم تبلغه الدعوة وإن لم يكن من أهل الفترة المذكورة كأطفال المشركين ومجانينهم وكذلك من بلغته الدعوة على حال لا تقوم بها الحجة كالكبير المخرف والأصم ومن في حكمهم.

⇦ فالذي لا تبلغه الدعوة بوجه تقوم به عليه الحجة الرسالية فله حكم أهل الفترة، على ما سبق بيانه، والله تعالى أعلم.

❐ ٢: أول الرسل وآخرهم

❐ قوله: **(وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنّ نُوحاً أَوّلُ الرُسُلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]).

ويدل لذلك صراحة ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة المسمى بحديث الشفاعة، وفيه أن أهل الموقف يوم القيامة يأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض.

وآدم عليه السلام كان نبياً مكلماً ولم يكن رسولاً كما دل على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهم من طريق معاوية بن سلام عن أخيه زيد عن أبي سلام قال: حدثني أبو أمامة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟

قال: «نعم، معلَّمٌ مُكَلَّمٌ». قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: «عشرة قرون». قال: كم كان بين نوح و إبراهيم؟

قال: «عشرة قرون»

قالوا: يا رسول الله كم كانت الرسل؟

قال: «ثلاث مائة وخمسة عشر جماً غفيراً».

والحديث صححه الحاكم، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وصححه الألباني.

وهذه القرون العشرة كان أهلها على التوحيد حتى نشأ الشرك في قوم نوح عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على دين الإسلام ﴿فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين)

قال: (وكذلك هي في قراءة عبد الله: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا».

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وقال: على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

والحديث صححه الألباني وقال: (فإنه وإن كان موقوفاً رواية؛ فهو مرفوع دراية؛ فإنه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وبخاصة أنه من رواية ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وفيه ما يؤكد رفعه، وهو قوله: (وكذلك هي في قراءة عبد الله.. " يعني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وفيه فائدة هامة؛ وهي أن الناس كانوا في أول عهدهم أمة واحدة على التوحيد الخالص، ثم طرأ عليهم الشرك، خلافاً لقول بعض الفلاسفة والملاحدة؛ أن الأصل فيهم الشرك ثم طرأ عليهم التوحيد!

ويبطل قولَهم هذا الحديثُ وغيرهُ مما هو نصٌّ في نبوة أبيهم آدم عليه السلام، إلى أدلة أخرى كنت ذكرت بعضها في كتابي "تحذير الساجد" (ص ١٤٧- ١٥٠)، فراجعه فإنه مهم) ا.هـ.

❑ قوله: **(وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لاَ نَبِيَّ بَعْدَهُ.**

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]).

هذه الآية تدل دلالة صريح على أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فلا نبيّ بعده، وقد صح من حديث أنس المتقدم في دروس سابقة أن النبوة والرسالة ختمت بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فكل من ادعى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو كاذب، ومدّعي النبوة كافر بالإجماع.

٣: الكفر بالطاغوت

- معنى الطاغوت

❑ قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوحٍ إلى مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

صريح الدلالة على أن كل أمة قد بعث فيها رسول يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده واجتناب الطاغوت، وأنّ دعوة الرسل كلهم إلى الإسلام الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

وهذه الرسالة إلى كل أمة، لم تخل منها أمة من الأمم كما دل على العموم قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾

والنبي صلى الله عليه وسلم جاءت رسالته إلى الناس جميعاً فرسالته أعم الرسالات.

وهذا العموم في البعث إلى جميع الأمم لا يعارضه وجود أفراد من تلك الأمم لم تبلغهم الدعوة كما سبق بيانه، وبيان الأدلة على هذه المسائل.

وأما تحديد عدد هذه الأمم ففيه حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أنتم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». رواه ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق في تفسيره، وأحمد في فضائل الصحابة، والترمذي وابن ماجة في سننهما، والحاكم في المستدرك، وغيرهم.

قال ابن حجر في الفتح: (وهو حديث حسن صحيح)

وذكر له شاهداً عن علي في المسند مرفوعاً بسند حسن، وأثراً عن قتادة في تفسير الطبري رجاله ثقات.

والحديث حسنه الألباني.

❑ قوله: (قَالَ ابْنُ القَيِّم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : (ومَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ، مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ).

الطاغوت: فَعَلُوتٌ من الطغيان.

أصله طَغَوُوت، كما يقال: مَلَكوت، وجبروت، وهذا البناء تستعمله العرب للمبالغة الكبيرة التي لا أبلغ منها.

و**الطغيان** هو: مجاوزة الحد.

يقال: رجل طاغٍ، إذا جاوز حدّه، وأسرف في الظلم.

ويقال: رجل طاغية، على سبيل المبالغة، وصفاً لعظيم ظلمه وطغيانه ومجاوزته للحد.

ويقال: طاغوت، على سبيل المبالغة العظيمة أي أنه بلغ الغاية في الطغيان.

ويطلق لفظ الطاغوت على الواحد والجماعة، وعلى المذكر والمؤنث

قال الواحدي: (الطاغوت يكون واحداً وجمعاً، ويؤنّثُ ويذَكَّرُ:

- قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾؛ فهذا في الواحد.
- وقال تعالى في الجمع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾.
- وقال في المؤنّث: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾).

التأنيث في قوله تعالى ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ هو للأوثان، وهي جماعة تؤنّث لفظاً.

قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾.

والطاغوت يجمع على طواغيت.

والطواغي جمع طاغية.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم».

والمراد بالطواغي في هذا الحديث الأوثان التي تعبد من دون الله عز وجل.

وقد بوّب البخاري في صحيحه باب (لا يُحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت)

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان الأنصار قبل أن يسلموا يهلّون لمناةَ الطاغية التي كانوا يعبدون عند المشلل).

قال النووي: (ومناة: صَنَمٌ كان نصبه عمرو بن لحيّ في جهة البحر بالمشلّل ممَّا يلي قديداً).

والمشلّل: ثنية مشرفة على قُدَيدِ، وهو شمال جدة قريب من عسفان.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة».

وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية).

قوله: (وذو الخلصة طاغية دوس...) هذا مدرج من كلام أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي هذا دليل على أن الشرك سيعود في هذه الأمة، وقد جاء بيان توقيت ذلك في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَدَ اللات والعزى».

فقالت عائشة: (يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تاماً.

قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فتوفّى كلّ مَن في قلبه مثقالُ حبة خَرْدل من إيمان؛ فيبقى من لا خير فيه؛ فيرجعون إلى دين آبائهم».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبدُ شيئاً فليتبعه؛ فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت».

وهذا الاتباع يكون إلى نار جهنم والعياذ بالله؛ فإن هذه الطواغيت وكذلك الشمس والقمر يؤمر بها فتلقى في نار جهنم هي ومن يتبعها، ويلقون في النار إلقاءً عنيفاً شديداً كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

الحصَبُ: هو ما يُحصَب به، أي يحذف ويُرمى، ومنه سميت الحصباء لأنها حجارة يُحصب بها، ويقال: حَصَبته بحصاة، إذا حذفته بها.

و**الحَصَبُ:** هو الشيء الذي يُحصَب به من حجارة أو غيرها؛ فجعل الله تعالى المشركين وما يعبدون من الطواغيت حَصَبَ جهنم، والعياذ بالله، قال ابن جرير: (معناه أنهم تقذف جهنم بهم، ويرمى بهم فيها).

والمقصود أن أكثر ما يطلق لفظ الطاغوت في نصوص الكتاب والسنة على ما يُعبد من دون الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾

وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾.

قال ابن وهب: قال لي مالك: (الطاغوت: ما يعبدون من دون الله).

وقد نقل عن السلف عبارات في تفسير الطاغوت لا تخالف ما سبق تقريره لكنها إما لبيان أصل الطاغوت، أو التنبيه على بعض أنواعه.

- فروي عن عمر بن الخطاب ومجاهد والشعبي: أن الطاغوت هو الشيطان.
- وروي عن محمد بن سيرين أن الطاغوت هو الساحر، وهي إحدى الروايتين عن أبي العالية الرياحي، وهذا بيان لنوع من أنواع الطواغيت.
- وروي عن سعيد بن جبير أن الطاغوت هو الكاهن، وهي الرواية الأخرى عن أبي العالية الرياحي، وهذا بيان لنوع من أنواع الطواغيت.

قال ابن جرير: (والصواب من القول عندي في"**الطاغوت**"، أنه كل ذي طغيان على الله، فعُبِدَ من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، وإنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء).

وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

ففسر اجتناب الطاغوت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ باجتناب عبادتها، فدل على أن الطاغوت هو ما يُعبد من دون الله عز وجل، مهما كان نوع تلك العبادة، فقد تكون دعاء وذبحاً ونذراً، وقد تكون تحاكماً والتجاءً، وقد تكون طاعة في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وأنت إذا تأملت هذه الأمور وجدت جامعَها عبادة الشيطان، ولذلك قال ابن كثير بعد ما أورد أثر عمر بن الخطاب في تفسير الطاغوت بأنه الشيطان: (ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جدًّا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها).

وبيان ذلك: أن عبادة الأصنام هي في حقيقة الأمر عبادة للشيطان، وكذلك التحاكم إلى الكهان هو تحاكم إلى الشياطين؛ لأن الكهان إنما يتلقفون أباطيلهم من الشياطين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

وابن القيم رحمه الله تأمّل هذه الأقوال والمعاني التي تجمعها، وأشهر الطواغيت التي عبدت من دون الله عز وجل، وأنواع عبادتها؛ فحاول أن يوجد تعريفاً جامعاً مانعاً فقال ما نقله الشيخ هنا:

(والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع)

وهذا من كلامه في إعلام الموقعين، وقال في شرحه: (فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا).

❐ قوله: **(الطاغوت هو ما تجاوز به العبد حده من معبود)**

عبّر بهذا التعبير ليُخْرِجَ مَن عُبد من دون الله عز وجلّ وهو غير راضٍ، كما عُبدت الملائكة وعُبدَ المسيح ابن مريم، وعبد عُزير، وغيرهم من الصالحين، حتى إن اللات قيل: إنه رجل صالح كان يَلُتُّ السويق للحجاج يُطعمهم؛ فلمّا مات نُصِبَ له صنمٌ، وعُبد من دون الله عز وجل.

وهؤلاء الصالحين ليسوا بطواغيت.

وعند التحقيق نجد أنه لا حاجة إلى هذا الاحتراز في التعريف لأن اللبس فيه مأمون، وهؤلاء الصالحين قد عُبدوا ظلماً وزوراً لم يدعوا لعبادة أنفسهم، وإنما اتخذهم المشركون طواغيت، كما اتخذوهم آلهة وأرباباً، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

فاتخاذهم أرباباً وآلهة هو في معنى اتخاذهم طواغيت، وإلا فهم ليسوا بأرباب ولا آلهة ولا طواغيت.

وإنما وقعت المخاصمة في هؤلاء من كفار قريش لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

وقد جعل الله تعالى في هذا الأمر فتنة للمشركين هي من مزيد إقامة الحجة عليهم فإنها دعتهم للتفكر في ما بلّغهم الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات ربهم وعرفوا معانيها فقامت عليهم الحجة ولكنهم لم يؤمنوا بها ولم يستجيبوا لها ولم يحذروا مما أنذرهم الله عز وجل من العذاب الشديد في نار جهنم، بل قابلوا ذلك بالمجادلة بالباطل ظلماً وطغياناً وعناداً واستكباراً، ليغرّ بعضهم بعضاً بما استحسنوه من زخرف القول.

ولو أنهم تفكروا في أنفسهم لعرفوا أن الله تعالى لا يكون في كلامه خطأ ولا قصور، ولا يكون في حكمه ظلم ولا جهل، لكنهم انصرفوا عما أمروا به من توحيد الله عز وجل إلى مخاصمة الله ورسوله واستمرؤوا المحادّة والمشاقّة وفي هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل

ومع رسوله ما يستحقون عليه العذاب الشديد، وقد جعل الله هذا الأمر فتنة لهم ليظهر ما في نفوسهم من الكِبْرِ والطغيان.

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

قال عبد الله بن الزِّبَعْرَي: أنا أخصم لكم محمداً.

فقال: يا محمد أليس فيما أنزل عليك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؟

قال: «نعم».

قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة؛ فهؤلاء في النار؟

فأنزل الله عز و جل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾).

ورواه الطحاوي في مشكل الآثار بزيادة، وفيها أنه قال: فضجّ أهل مكةَ؛ فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ عيسى وعزير والملائكة ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

قال: ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ وهو الضّجيج).

(يصِدون) بكسر الصاد أي يضجّون.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً﴾

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

الذي ضرب هذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى كما تقدّم؛ فضج أهل مكة فرحاً بهذا المثل، وقالوا: إذا كان عيسى ليس في النار؛ فآلهتنا خير منه.

﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ استفهام إنكاري جوابه المتقرر عندهم أن آلهتهم خير منه، حتى إنهم قدموا ذكر آلهتهم وأخروا ذكره ورمزوا له بالضمير تقليلاً من شأنه.

ونسب الضرب إليهم جميعاً فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ لأنهم وافقوه على قوله، وإن كان الضارب واحداً في الأصل، لكن لمّا فرحوا بضرب هذا المثل نسب إليهم جميعاً.

وقول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ دليل على أنهم يعلمون أنهم مبطلون لا حجة لهم، وإنما أرادوا الجدال والمخاصمة.

قال جماعة من أهل العلم باللغة والتفسير: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (ما) هي لغير العاقل، فالآية لا تشمل هؤلاء الصالحين بدلالة اللفظ أصلاً؛ لأن العرب تخبر عن غير العاقل بـ (ما) فيكون المراد بقوله: بما يعبدون من دون الله الأوثان من الأصنام والأحجار والأشجار.

وأما هؤلاء الصالحين فيخبر عنهم (بمن) وليس بـ(ما).

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم﴾ ولم يقل لها.

وقال في الأوثان: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾

فليس قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى... ﴾ الآية استثناء من الآية التي قبلها، وإنما هو تقرير لحكم هؤلاء الصالحين الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى أنهم مبعدون عن نار جهنم لا يسمعون حسيسها، وأنهم آمنون يوم القيامة من الفزعِ الأكبر الذي لا أكبر منه، وفي هذا تهديد لهؤلاء المشركين وإنذار وتخويف بأنهم إن لم يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله كانوا من المعذبين بذلك الفزع الأكبر وأنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، والعياذ بالله.

❖ وقول ابن القيم: (أو متبوع أو مطاع)

الاتباع والطاعة في معصية الله عز وجل على درجتين:

الدرجة الأولى: تكون فيما يخرج من الملة كاتباع الطواغيت في عبادة غير الله عز وجل بصرف شيء من العبادات لهم أو اتباعهم على تحليل الحرام وتحريم الحلال أو غير ذلك من نواقض الإسلام

فهؤلاء المتبوعون والمطاعون إما أن يكونوا هم المعبودين أو دعاة لهم وكلهم طواغيت بهذا المعنى.

الدرجة الثانية: الطاعة والاتباع في معصية الله تعالى بما لا يخرج عن دين الإسلام، كأن يكون داعية إلى بدعة عظيمة أو حاكماً كثير الظلم والطغيان فهؤلاء أطلق عليهم بعض السلف أنهم طواغيت وإن لم يحكم بخروجهم من الملة؛ فاستعملوا المعنى اللغوي للفظ الطاغوت، وهو الطغيان الكبير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمطاع فى معصية الله، والمطاع فى اتباع غير الهدى ودين الحق - سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله - : هو طاغوت، ولهذا سُمِّيَ من تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوتاً).

وقال بعض أهل العلم: الطاغوت هو كلُّ رأس في الضلالة.

ويجمع هذا كله: أن **الطاغوت** كل مُعظَّمٍ أو متعظِّم بالباطل يُطغى بسببه.

والله تعالى أعلم.

❑ قوله: (**وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:**

- **إبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ.**
- **وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ.**
- **وَمَنِ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ.**
- **وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلى عِبَادَةِ نَفْسِهِ.**
- **وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ**).

هذا من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد اختصره هنا، وبسطه في موضع آخر فقال: (اعلم رحمك الله تعالى أنّ أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، والدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾.

فأمّا **صفة الكفر بالطاغوت** أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم.

وأمّا **معنى الإيمان بالله** أن تعتقد أنّ الله هو الإله المعبود وحده دون سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملّة إبراهيم التي سَفِهَ نفسَه مَن رغب عنها.

وهذه هي الأسوة التي أخبر الله بها في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

والطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت.

والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة:

الأول: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

الرابع: الذي يدّعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

الخامس: الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنا بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾) ا.هـ.

- **والفرق بين الثاني والثالث** هنا، أن **الثاني** هو الحاكم المتسلط على الناس المغير لأحكام الله، و**الثالث** يأتي إليه الناس إن رغبوا في حكمه.

وكلاهما حاكم بغير ما أنزل الله.

وقول الشيخ: (ورؤوسهم خمسة) لا يقتضي حصر الطواغيت في هذه الأصناف الخمسة، بل هؤلاء أشهرهم وأكثرهم شراً وطغياناً.

وقد اختلف تقريره رحمه الله في عدّ هذه الخمسة اختلافاً يسيراً.

والمقصود أن يفهم الطالب معنى الطاغوت في اللغة، والمراد به في نصوص الكتاب والسنة.

❒ ٥: لا إكراه في الدين.

❒ قوله: (**وَالدّليلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ) وَفِي الحَدِيثِ: «رأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»).

قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي إنّ الدين لا إكراه فيه على أحد، فلا يستطيع أحد من الخلق أن يجبر أحداً على دينٍ لا يرتضيه؛ لأن الله تعالى لم يجعل للمخلوقين سلطاناً على القلوب.

وقد يسّر الله الدين تيسيراً عظيماً؛

➢ **فمن اختار الإيمان** فلا يستطيع أن يمنعه منه أحد من الخلق بإكراه على الكفر، لأن الدخول في الدين أصله الاعتقاد والقول ولو بالإسرار والإخفاء وهذا أمر لا سلطان لأحد من الخلق على منعه والإكراه عليه.

➢ **وأما من اختار الكفر** على الإيمان فهو كافر، وإن كان مستضعفاً في الظاهر.

ولذلك فإن المستضعفين الذين قصّ الله خبرهم في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فهؤلاء المستضعفون قد جاءهم الهدى وعرفوه ولم يؤمنوا به، بل اختاروا طاعة الطواغيت المستكبرين اختياراً قلبياً منهم، وإلا فإن هؤلاء الطواغيت لا سلطان لهم على قلوب المستضعفين، ولا يستطيعون أن يكرهوهم على اختيار الكفر.

ولو أن هؤلاء المستضعفين آمنوا بقلوبهم لجعل الله لهم مخرجاً ولأعزهم ونصرهم، ولكنهم اختاروا الكفر إرضاء للطواغيت فاستحقوا العذاب.

ولذلك قال لهم المستكبرون باستنكار: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾؟

فإنه لا سلطان لهم على قلوب المستضعفين يصدونهم به عن قبول الهدى.

وقال الله تعالى لنبيّه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وهذا استفهام إنكاري، أي لا تستطيع أن تكره الناس على الإيمان.

فمن تمام عدل الله عز وجل أن جعل الاختيار بين الكفر والإيمان لا إكراه لأحد فيه.

⇦ إذا تبيّن هذا فقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ **يشمل معاني لا تعارض بينها:**

المعنى الأول: أنه لا يقع إكراه من مخلوق لمخلوق على الدين، كما سبق بيانه.

المعنى الثاني: أنها خبر بمعنى النهي أي: لا يجوز أن يُكره أحدٌ بتهديد بضرب أو قتل أو حبس أو نحوه على الدخول في دين الإسلام.

وهذا الإكراه إنما هو فعل ما يستطيعه المُكْرِه من التهديد والتعذيب؛ فإذا هدّد أو عذّب حتى يوافقه المُكرَه ظاهراً فهو مُكْرِه، فنُهِيَ عن هذا، وهو لا يقتضي الإكراه على الاختيار القلبي، لأن المُكْرَه قد يوافق ظاهراً ويخالف باطناً.

وهذا لا يعارضه قتال الكفار وإقامة الحد على المرتد فإن الكفار يقاتلون على منعهم تبليغ الدعوة وتمكين المؤمنين من الأرض ليحكموا فيها بما أنزل الله ويحطّموا ما أمر الله بتحطيمه من الطواغيت التي تعبد من دون الله عز وجل فمن دافع عن هذه الطواغيت وقاتل في سبيلها استحق القتال، وليس قتاله على أن يكره على أن يدخل في دين الإسلام كرهاً.

وكذلك المرتد يقتل تنفيذاً لحكم الله عز وجل فيه.

المعنى الثالث: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا يجوز للمؤمنين أن يكره بعضهم بعضاً على أي أمر من الأمور، فمعنى لا إكراه في الدين أي لا يجوز الإكراه في دين الإسلام.

لأن الإكراه إضرار، والإضرار محرم.

وقد روى ابن أبي شيبة عن حنش بن الحارث النخعي عن أبيه أنه قدم المدينة مع قومه فأمرهم عمر بالمسير إلى العراق مدداً للمسلمين في القادسية؛ فقالوا: لا بل نسير إلى الشام، فقال عمر: لا بل إلى العراق فإني قد رضيتها لكم، فجادلوه حتى قال بعضهم: يا أمير المؤمنين لا إكراه في الدين.

❖ قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ أي إن طريق الرشد والصواب والخير قد تبيّن بياناً لا لبس فيه، وكذلك طريق الغي والشر والفساد.

❖ ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أي يكفر بما يُعبد من دون الله، ويقوم بما يقتضيه واجب الكفر من البراءة من الكفر وأهله.

❖ ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ أي يوحد الله عز وجل ويسلم وجهه وقلبه له.

❖ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾

العروة هي ما يُسْتَمْسَكُ به لطلب النجاة.

وأصل هذا اللفظ أن الدلو توثق بعروة تمسكها ؛ فإذا أُلْقِيت الدلو في البئر وامتلأت ماءً جذبها المستقي بحبل قد ربطه في عروة الدلو فإن كانت تلك العروة وثيقة جيدة والحبل جيداً استخرج الدلو ، وإن كانت العروة غير وثيقة انفصمت العروة فسقط الدلو.

قال امرؤ القيس :

كالـدلو ثبـت عُرَاهـا وهـي مـوقرة إذ خانهـا وذَم منهـا وتكريـب

الكَرَبُ : حبل يشدُّ به وسط العراقي ، والعراقي : خشبتان متقاطعتان على شكل صليب يوضع على فم الدلو ، ويكون طرف كل خشبة في أذن من آذان الدلو الأربعة.

والوذم سيور تربط آذان الدلو بالعراقي ، واحدتها : وَذَمَة.

فالعروة اسم لهذه الأجزاء التي تتكون منها ، وهي التي تمسك الدلو.

يقال : عروة وثيقة ، إذا كانت قوية مأمونة ؛ فتجمع بين القوة والأمان بحيث يوثق بها ويُطمئَنُّ إليها.

ويقال : عروة أوثق من عروة ؛ على التفاضل في صفتي القوة والأمان.

و**العروة الوُثقى** هي التي بلغت الغاية في القوة والأمان فلا أوثق منها.

فإذا كانت العروة وثقى ، والاستمساك جيداً نجا المستمسك بهذه العروة من الهلاك

فهذه العروة الوثقى التي وصفها الله عز وجل بقوله : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ هي أوثق أسباب النجاة وأفضلها وأجلها ، بل لا أفضل منها ، ولا ينجو العبد بغيرها.

وهي أن يؤمن بالله عز وجل ويكفر بالطاغوت.

كما يقال : الطريقة المثلى ، أي التي لا أمثل منها ، ولا أحسن.

فالله تعالى يريد أن يقطع على الناس البحث عن أسباب نجاة أخرى ؛ فإذا علم العبد أن هذا السبب هو أعظم الأسباب وأنفع الأسباب لم يلتفت قلبه إلى غيره.

❖ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾

لفظ الاستمساك فيه بناء لغوي أقوى دلالة من المَسْكِ، لأنه يجمع معاني قوة التمسك والحرص والمداومة عليه.

فما دام العبد مستمسكاً بهذه العروة ؛ فالله تعالى ضامن له ألا تنفصم، وألا تنقطع به دون بلوغ ما يأمل من النجاة والفوز الكبير.

❖ قوله: ﴿لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ تأكيد على أن هذه العروة لا تنفصم أبداً، ولا تتقطع أجزاؤها، وفي هذا ضمان عظيم لمن استمسك بهذه العروة الوثقى ألا يُخذل من جهتها أبداً.

قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾

دلّ بمنطوقه على أن كل من جعل مع الله إلها آخر فهو مذموم مخذول.

ودل بمفهومه على أن من وحّد الله تعالى فلا يكون مذموماً ولا مخذولاً.

فسبيل النجاة من الذم والخذلان هو توحيد الله عز وجل.

وإنما يقع العبد في شيء من الذم والخذلان إذا ضعف تحقيقه للتوحيد.

فأما إذا أشرك بالله جل وعلا فقد أحاط به الذم والخذلان والخسران من كل جانب، والعياذ بالله.

ومن حقق التوحيد فلا يخاف من الذم ولا الخذلان ؛ لأن هذه العروة التي استمسك بها عروة وثقى قد ضمن الله تعالى لمن استمسك بها أن لا تنفصم به.

❖ فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ بيان لمعنى تحقيق الاستمساك بالعروة الوثقى، لأن حرف (قد) يفيد التحقيق.

❖ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع مجيب لدعاء من يدعوه مخلصاً له الدين، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبهم من التوحيد والإسلام.

وهذا يقتضي عنايته جل وعلا بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

فانظر كيف اقتلعت هذه الآية جذور الخوف من الخذلان والهلاك من قلوب أولياء الله المؤمنين الموحدين فاطمأنت قلوبهم بذكر الله ومعرفته والإيمان به ﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾.

❑ قوله : (وَهَذَا هُوَ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)).

أي : أن قوله تعالى : ﴿فمَنْ يَكفُر بالطَّاغُوتِ ويُؤمِن بالله فقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُروَة الوُثْقَى﴾ يدل على معنى لا إله إلا الله ؛ لأن الكفر بالطاغوت يعني نفي جميع ما يعبد من دون الله عز وجل والكفر به وإنكاره.

والإيمان بالله يتضمن عبادته وحده لا شريك له.

فالذي لا يخلص العبادة لله لا يكون مؤمناً بالله جل وعلا.

والذي لا يكفر بالطاغوت لا يكون نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، ولا مخلصاً العبادة لله تعالى.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لوفد عبد القيس : «آمركم بالإيمان بالله وحده».

فالإيمان بالله وحده يقتضي الإيمان به والكفر بالطاغوت وهو جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.

⇐ وهذه مسألة مهمة جداً لطالب العلم ، وقد كررها الشيخ هنا لأهميتها ، ولو لم يخرج الطالب من دراسته لهذا المتن إلا بفقه هذه المسألة لكان في ذلك خير كثير؛ فتفطن لهذه المسألة جيداً.

فإن **تفسير التوحيد لا بد فيه من جمع أمرين:**

الأمر الأول: نفي جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.

الأمر الثاني: إفراد الله تعالى بالعبادة.

فـ(لا إله) نفي لجميع ما يعبد ، (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده.

فهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكفُر بالطَّاغُوتِ ويُؤمِن بالله فقَدِ اسْتَمْسَك بِالعُروَة الوُثْقَى﴾

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

- وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ﴾
- وقوله: ﴿إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

وقوله: ﴿قل هُوَ اللهُ أحَدٌ ❖ اللهُ الصَّمَدُ﴾

﴿هُوَ اللهُ﴾ أسلوب حصر في لسان العرب.

﴿أحَدٌ﴾ أي فرد متفرد لا شريك له ولا إله معه.

﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ أي الذي يُصمد إليه فيدعى لقضاء الحوائج وجلب النفع ودفع الضر.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ رد على اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب

فأما اليهود والنصارى فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

ومنهم من زعم أن المسيح ابن الله، ومنهم من زعم أن عزير ابن الله.

وزعم بعض مشركي العرب أن الملائكة بنات الله

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ليس له نظير يكافئه ولا صاحبة له.

▫ وفي صحيح البخاري من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله: (كذّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك:

- أمّا تكذيبه إيّاي فقوله لن يعيدَني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته.
- وأما شتمه إيّاي فقوله اتخذ الله ولداً، وأنا الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفوا أحد»

ـ وفي مسند الإمام أحمد والسنن الأربعة من حديث مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو وهو يقول: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).

فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى».

فكان هذا الاسم الأعظم متضمناً للتوحيد.

⇦ ولذلك يجب على طالب العلم أن يحذر من قبول التفسيرات الخاطئة لكلمة التوحيد، وأكثر الأخطاء شيوعاً في تفسيرها:

١: قصر معناها على توحيد الربوبية أو بعض معاني الربوبية، كمن يزعم أن معناها لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ونحو ذلك من معاني الربوبية.

٢: قصر معناها على بعض معاني توحيد الأسماء والصفات كمن يقول معناها أنه واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا شريك له.

٣: دعوى أن معناها مسألة خلافية ولا ينبني عليها التفريق بين الكفر والإيمان.

وهذه التفسيرات الخاطئة قد يجدها طالب العلم لدى بعض أهل الفرق الضالة، وبعض من يلبس الحق بالباطل ليضل الناس بغير علم، كما كان يفعله بعض علماء السوء الذين ضل بسببهم كثير من الناس فكانوا يلبسون الحق بالباطل ويأكلون فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون، ويدلسون على الناس، ويسارعون إلى طاعة الحكام المبدلين لشرع الله فيطيعونهم في تبديل الدين وتغيير أحكام الله، ويلبسون على الناس ويوهمونهم أن هذا هو الدين الصحيح.

نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

❐ قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»).

هذا جزء من حديث معاذ بن جبل وقد سبق ذكره في درس الإحسان.

والحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم

- و(الأمر) واحد الأمور، وهو من أكثر الألفاظ العامة استعمالاً في لسان العرب، بل إنه يعبر به عن أي شأن.

والمرء من شأنه أنه يأتمر في نفسه أموراً، أي يجعل لنفسه أموراً وشؤوناً يهمٌ بها ويسعى لها

كما قال امرؤ القيس: ويعدو على المرء ما يأتمر

أي: ما يهمُّ به من الأمور؛ فربما كان هلاكه في تدبيره لأموره.

- وقوله: (رأس الأمر) **في معناه قولان لأهل العلم:**

القول الأول: ما ذهب إليه بعض الشراح من أن المراد بالأمر هنا ما بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، وأن رأس ذلك الأمر الإسلام.

فهو كمثل الشيء الذي له جذع ورأس فيكون الرأس هو الإسلام.

وهذا التفسير لا يصح لأن كل ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الإسلام.

القول الثاني: أن رأس الأمر هو أصله ومعظمه؛ فإذا ذهب ذهب الأمر كله

كما يقال: رأس المال؛ فمن ذهب رأس ماله؛ بقي مفلساً لا مال له.

وهذا القول أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وقال به ابن عاشور.

وهذا ظاهر في الأمور المعنوية التي تضاف إلى الرأس كما يقال: رأس الحكمة مخافة الله؛ أي أصلها ومعظمها؛ ورأس العلم خشية الله.

ويطلق لفظ الرأس على معانٍ في لسان العرب يدل عليها السياق والاستعمال بالإفراد والتركيب

فيقال: رأس الحبل، أي طرفه.

ورأس الجبل أعلاه.

وعصا لها رأسان أي شعبتان .

ورأس الحول آخرُه.

قال الرياحي :

ومـاذا يـدّري الشـعراء مـني	وقـد جـاوزت رأس الأربعـين
أخـو خمسـين مكتمـل أشـدي	وحـنّكني مـداورة الشـؤون

فإطلاق لفظ الرأس في قوله (رأس الأمر) ليس نظيراً لإطلاقه في رأس الحيوان، ولا هو بمعنى الطَرَف، ولا آخرَ الشيء، وإنما هو أصله ومعظمه.

والمقصود أن قوله صلى الله عليه وسلم : «رأس الأمر الإسلام» أي أن أصل أمر الإنسان وما خلق من أجله هو الإسلام ؛ فإذا ذهب إسلام المرء ذهب أمره كله، وأصبح على غير شيء، فسائر أموره إذا لم يسلم لا اعتبار لها، ولا تنفعه عند الله.

كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

فهؤلاء ليسوا على شيء لأنهم ضيعوا رأس الأمر وهو الإسلام.

وقال تعالى في الكفار : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾

وقال المخبَّل السَّعدي :

إنـي رأيـت الأمـر أرشَـدُه	تقـوى الإلـه وشَـرُّه الإثـم

أي : ما يأتمره الإنسان في نفسه ويهم به ويسعى له، أرشده تقوى الإله، وشرُّه الإثم.

فأرشد الأمر تقوى الله، وهو من هذا الباب فإن ما خالف التقوى فليس فيه رشد.

قوله : «وعموده الصلاة» أي هي عمود الإسلام، وشأنها عظيم فلا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وإذا سقط العمود سقط ما اعتمد عليه، وهذا يبين لك أن شعائر الإسلام معتمدة على الصلاة فإذا صلحت الصلاة صلحت أعمال العبد، وإذا فسدت فسدت عليه

أعماله، فلا ينتفع بزكاة ولا صيام ولا حج ولا غيره؛ إذ كانت الصلة بينه وبين الله منقطعة بتضييعه للصلاة.

ولذلك كان أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله الصلاة.

قال حريث بن قبيصة: قدمت المدينة فقلت: (اللهم يسر لي جليسا صالحا)

قال: فجلست إلى أبي هريرة؛ فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسا صالحا فحدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله أن ينفعني به.

فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر؛ فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك». رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني.

وروى الإمام مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عماله - أي الذين يستعملهم على أمور المسلمين ويوليهم عليها - : (إن أهمّ أمركم عندي الصلاة؛ فمن حفظها فقد حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع).

- قوله: «وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» أي أعلاه وأشرفه، وهو مظهر عزه وقوته وزينته.

ـ وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة».

- وقد تضمّن هذا الحديث على وجازته بيان ما يكون للإنسان به شأن عند الله تعالى، وهو الإسلام.

وهذا الإسلام له عمود وهو الصلاة من أداها حفظ دينه، ومن ضيعها ضيع أمره، وفي الصلاة صلاح نفسه، والجهاد فيه السعي لإصلاح غيره، وهذا شأن المسلم الذي أحسن إسلامه أنه يُصْلِح نفسه ويسعى لإصلاح غيره.

فالصلاة تنبيه على ما يصلح العبد من الأعمال، والجهاد على ما يصلح غيره.

❏ قوله: **(وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ).**

رد العلم إلى عالمه، وختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أدعى للقبول، والله تعالى أعلم.

اللهُمَّ تقبَّل مِنَّا إنَّك أنْتَ السَّميعُ العَلِيمُ
واغْفِر لَنا وارْحَمْنَا إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.
اللهُمَّ أدخِلْنَا فِي رَحْمَةٍ مِنْكَ وفَضْلٍ واهْدِنا إلَيكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً
وارْزقنا مِن لَدُنكَ رِزقاً كَرِيماً
وَعَافِنَا واعْفُ عَنَّا إنَّكَ أنتَ العَفُوُّ الحلِيمُ.

الرياض

٢٥ شعبان ١٤٣٢ هـ

تمت دروس الدورة ولله الحمد.

أسئلة وتطبيقات على الدروس السابقة (٣)

تمهيد:

هذه الأسئلة مستفادة من وقائع وأسئلة مما يستفتي فيه الناس في مسائل لها صلة بالدروس التي سبقت، وحرصت على أن تكون هذه الأسئلة أقرب إلى صياغة السائلين وعبارات أصحاب الدعوات الباطلة ليتعرف الطالب على موضع الخلل ويرده.

ومما ينبغي التفطن له أن الدعوات الباطلة قد تتضمن بعض الحق فيغتر بها بعض الناس لما فيها من بعض الحق، وبعضهم يعبر عن باطله بعبارات جميلة ورنانة ربما يستحسنها من لا يعرف حقيقتها، وذلك كما يسمي المنافقون أعمالهم التي يعملونها في إفساد الدين إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً، وهذه الألفاظ من الألفاظ المحببة إلى النفوس السوية، لكن حقيقة أعمالهم ليست إصلاحاً ولا إحساناً ولا توفيقاً.

والموقف الصحيح أن يميز المؤمن الحق من الباطل، فيقبل الحق ويرد الباطل، ويراعي المقاصد الشرعية، ولا يقبل حكم أصحاب تلك الدعوات على دعواتهم بالألفاظ الحسنة المحببة حتى يعرف الوصف الشرعي الصحيح لتلك الأعمال.

س١: يطلق بعض المفكرين عبارات مفادها أن الإسلام يحترم الديانات السماوية الأخرى، وأن أتباع هذه الديانات كلهم مؤمنون لا فرق بينهم إلا في اختلاف الشرائع، فكل هذه الأديان جاءت من الله، والإسلام دين المحبة والسلام، والمسلم الحق هو الذي ينفتح على الآخرين ويتحاور معهم ويتقبلهم.

ما رأيك في هذه الدعوات؟

س٢: ما تقول فيمن يقول: إن الحدود والتعزيرات التي جاء بها الإسلام حق وعدل لكنها خاصة بالزمان الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأن تلك العقوبات كانت شائعة في ذلك الزمان، وأما في العصر الحاضر مع التطور والتقدم المدني ظهرت وسائل

للعقاب أقل وحشية وأكثر ملاءمة لروح الإسلام وسماحته؛ فالأخذ بها أولى تطبيقاً للمبادئ العامة للشريعة؟

س٣: أيهما أفضل إطالة الصلاة أم تخفيفها؟

س٤: تاجر مسلم يريد أن يبلغ مرتبة الإحسان في المعاملة ويخشى أن يخسر في تجارته فما توجيهك له؟

س٥: رجل أساء إلى مسلم إساءة بالغة ثم ندم وأراد التوبة؛ وخشي أنه إن أخبره بإساءته وطلب سماحه أن يترتب على ذلك شر كبير، فكيف يصنع حتى يحقق التوبة ويتحلل من تبعة إساءته؟

وصايا لمن اجتاز دورة شرح ثلاثة الأصول وأدلتها

الحمد لله الذي منّ علينا بإتمام شرح رسالة (ثلاثة الأصول وأدلتها) لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله.

وقد تبيّن بدراسة مباحث هذه الرسالة القيمة اشتمالها على أهم مسائل أصول الدين، وتبين حسن معرفة مؤلفها بانتقاء تلك المباحث وترتيبها.

ورسالة (ثلاثة الأصول) رسالة وجيزة وسهلة العبارات، وأكثر ما اشتملت عليه أدلة من الكتاب والسنة، وكان يكفي الطالب لفهم هذه الرسالة شرح يسير يوضح ما يحتاج إلى توضيحه بعبارات موجزة لكنني حرصت على التوسع بقَدَرٍ في الشرح ليكون هذا الشرح لَبِنَةً في إعداد طلاب علم مؤهلين للدعوة إلى الله تعالى لهم نصيب وافر من التأصيل العلمي وفهم مسائل أصول الدين بأدلتها.

إضافة إلى أن هذه المباحث التي اشتملت عليها هذه الرسالة هي من المسائل المهمة في الاعتقاد بل هي من أصول الدين، وهي مسائل يحتاج الطالب فيها إلى جمع أهم الأدلة والآثار عن الصحابة والتابعين وانتقاء أهم النقول عن العلماء في هذه المسائل ومعرفة القواعد والتقسيمات المعينة على فهم تلك المسائل لتكون عُدّةً للطالب في دراستها وتدريسها مستقبلاً إن شاء الله.

وأنا أوصي طلاب العلم المتخرجين من هذه الدورة بوصايا آمل منهم العناية بها:

أولاً: الدعوة إلى دين الإسلام قائمة على فقه مسائل الاعتقاد ، وطالب علم الاعتقاد بحاجة إلى علمين مهمين من قصّر فيهما أو في أحدهما أثّر تقصيره في الانتفاع من علمه:

العلم الأول: علم السلوك، وهو علم يُعنى بتزكية النفس وإحسان عبادة الله عز وجل، وهذا العلم قد ألفت فيه رسائل وكتب جليلة القدر عظيمة النفع فينبغي لطالب العلم أن يعتني بها.

العلم الآخر: فقه الدعوة إلى الله تعـــالى، وهذا أمر يحتاجه طالب العلم كثيراً ؛ فإن معرفته بأحكام المسائل وأدلتها ينبغي أن يصاحبه معرفة بفقه الدعوة وحسن تبليغها والحذر من الآفات والأخطاء التي قد يكون لها آثار غير محمودة على طالب العلم وعلى دعوته.

وإذا كمّل طالب العلم هذه المقامات الثلاث : فقه مسائل الاعتقاد، وفقه السلوك، وفقه الدعوة كان إماماً من أئمة الهدى، ومن الدعاة إلى الله على بصيرة ، ومن العلماء الربانيين.

فإنه يدعو إلى ما عرف صحته من الحق بأدلته، ويرد الباطل ويبين بطلانه ويحذر منه.

وهو في نفسه قائم بما يقتضيه فقه مسائل العبادات من حسن التعبد لله جل وعلا والعمل بالعلم النافع.

وفي معاملته لغيره قائم بما يقتضيه فقه الدعوة إلى الله من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

فيكون عالماً صالحاً في نفسه ساعياً في إصلاح غيره.

والأمة بحاجة ماسة إلى هؤلاء ؛ فهم عدة الأمة.

ثانياً : دراسة المتون العلمية لها أهميتها المعروفة في التأصيل العلمي، لكنها بحاجة إلى روافد ترفدها من القراءة المنظمة في الكتب والرسائل المهمة.

وسأنتقي لكم منتقيات من الرسائل المختصرة والكتب القيمة ، وأضعها في موضوعات متتابعة بعد هذا الموضوع.

لتكون عوناً للطالب على فهم مسائل التوحيد ، والتعرف على مناهج الأئمة في عرض مسائل التوحيد وتدريسها، والدعوة إليها، وتوضيح الحجج وكشف الشبه التي يثيرها بعض الجهلة وعلماء السوء.

وما كان في هذه الرسائل من تكرار فأوصي أن يقرأه الطالب قراءة سريعة تكون كالمذاكرة له، وما كان فيها من مباحث إضافية أو تطبيقات دعوية وقف عندها وقفة تأمل ودراسة حتى يحسن معرفتها.
فإن أشكل عليه شيء بعد أمكنه السؤال عنه.

ثالثاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾، فلا يكن همّ الطالب الاقتصار على فهم المعلومات التي تلقى إليه في الدروس، بل ينبغي أن يكون همّه مع ذلك التعرف على ما يمكنه بذله للدعوة إلى الله تعالى بصيرة، والتعرف على الأبواب التي يحتاج إلى فقهها جيداً للدعوة في مجتمعه ، وهذا يكون في كل مجتمع بحسبه، فمن كان في مجتمعه مظاهر للشرك وعبادة غير الله عز وجل، فليتقفه في مسائل الاعتقاد ويولي ما يتصل بحجج التوحيد وكشف شبهات المشركين عناية كبيرة، ويبدأ بما يتيسر له من الأسباب.
ومن كان في مجتمع يلاحظ فيه وجود دعوات للتنصير فينبغي له أن يعتني بما يتصل بهذا الباب من مسائل، ويدعو إلى الله بما يتيسر له من الأسباب.
وهكذا كل من وجد في مجتمعه حاجة إلى فقه باب من أبواب الاعتقاد ينبغي له أن يولي ذلك الباب عناية بفقه مسائله، ويقوم بواجبه من الدعوة إلى الله عز وجل في ذلك.

الفهرس